منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

خليل الــرز

الحي الروسي

رواية

الحي الروسي


طبع في لبنان

الحي الروسي

رواية

خليل الـــرز



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1440 هـ - 2019 م

ردمك 978-614-02-1724-9

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الزرافة

الزرافة وأنا

على سطح حديقة الحيوانات في الحي الروسي كان تلفزيوني الـ 14 بوصة يعرض، من فوق طربيزة قريبة من خطم الزرافة، مباراةً من الأرشيف بين إسبانيا والأورغواي. كنت أسمع أصوات المدافع القريبة التي لم تهدأ منذ الصباح الباكر، وأشرب الشاي الذي أصبح بارداً، وأنتظر فطائر التفاح التي يخبزها دينيس بتروفيتش أستاذ الكلارينيت في المعهد العالي للموسيقا، وأشاهد مع الزرافة أهدافاً باليةً سُجّلت بالأسود والأبيض قبل خمسين عاماً في مدريد. كانت المدافع القريبة تقصف غوطة دمشق من بساتين الحيّ الروسي. لكنني كنت أصغي، بانتباه قِطّ، إلى الدرج الطويل الفارغ حتى الآن، خلف الديوانة التي أسترخي عليها، والذي يمكن أن يمتلئ فجأةً بخطوات نونّا الرشيقة في أيّ لحظة. كانت قد ذهبت إلى المركز الثقافي الروسي في وسط العاصمة لزيارة أبيها. كان البدر ينيرني، وشاشة التلفزيون تلمع بقوة في عيني الزرافة الواسعتين السوداوين، وبنورها الفضّي تغمر، على شفتيها، الوبرَ الكثيف الذي يكاد يلامس اللاعبين البائدين والمتفرجين البائدين والعشب البائد في ملعب كرة القدم.

دائماً بدت لي المساحة المخصّصة للزرافة ضيقةً على جهامتها البادية مقارنة بما يجاورها من كتل الحديقة وحيواناتها. وقد اعتاد المارة في الشارع المجاور على مشاهدة رأسها المنيفة من فوق السور

وشجيراته منذ سكنتُ في غرفة صديقي صالح على سطح مستودع الحديقة. كان صالح قد اختفى من الحي الروسي قبل الحرب بعدّة شهور. وكنت قد خيّبتُ أمل زوجتي بي، وأمل أبيها أيضاً، بخصالٍ كثيرةٍ غير محمودةٍ من وجهة نظرهما- لا يتسع المجال الآن، ولا الضرورة ربما، لتعدادها أو التطرّق إليها. لكنني حين شعرت بأنني أصبحتُ فائضاً عن الحاجة والاعتبار في منزلي، الذي تملكه زوجتي وأبوها، تركته لهما دون تلكّؤٍ ولا ندم. وكان المكان الذي تركه صالح في حديقة الحيوانات ما يزال شاغراً في تلك الفترة، فملأتُهُ دون إبطاء بمباركةٍ حارّةٍ من الكلبة الأفغانية رئيسة بتروفنا وصاحبها فيكتور إيفانيتش- زميلي القديم في غرفة مترجمي صحيفة **أنباء موسكو** قبل أكثر من عشرين عاماً، والمدير الحالي لحديقة الحيوانات في الحي الروسي ورئيس تحرير مجلة الحائط فيها.

لم أكن شخصاً غريباً على الزرافة قبل أن أصبح جارها، فقد كان لي حضوري المُرَحّب به دائماً من قبل الجميع في حديقة الحيوانات منذ مدة طويلة. وقد كان يحلو لي أن أظنّ، كلما اقتربت من الزرافة، أنّها تميزّ يدي من بين كل الأيدي التي تمتدّ إليها عادةً من داخل السياج. كنت أشعر أنها لا تتحرّج مني، كما تفعل عادةً مع إيفانوفا التي تزيل الفضلات من تحتها يومياً، ولا تبدي لي شيئاً من الحذر الخجول، كما تفعل مع الطبيب البيطري بشير غندورة الذي يعاينها من وقت إلى آخر. ولعلها كانت تتعمّد أن تلتفت إلى جهتي حيث أكون، وفي أحيانٍ نادرةٍ كانت تنحني برأسها فوق رأسي حين تشعر براحة كفّي تربت على قائمتها أو بأصابعي تُخرج الأحجار الصغيرة العالقة بين أظلافها.

ما كان يفوتني طبعاً علاقة الزرافة الطيبة بجميع زملائها في الحديقة عاملينَ وإداريين وحيواناتٍ على حدّ سواء، كأنّ إحساسها بارتفاعها البالغ فوق الأشياء والكائنات الأخرى كان يمنحها استعداداً فطرياً للعطف على الجميع والتودّد إليهم. ومن جملة ما لفتني دائماً، بهذا الخصوص، أنها لا تبخل أحياناً بعناء الانحناء من فوق سياجها لتتحقّق، مرةً أخرى وأخرى، من إزالة الكلفة بينها وبين جارتها النعامة من الجهة الأخرى. وفي بعض الأحيان كانت تمدّ إليها لسانها الأسود الطويل، وتمسّ، برفق ومودّة وحذر، جبينها الضيق وأسفل منقارها المفلطح ورقبتها الموبّرة النحيلة، بينما لا تنقطع هذه عن دهشتها الدائمة بعينيها الجاحظتين المدوّرتين. وفي طريقها إلى حافة سطحي، بعد حلول الظلام، كانت تتوقف وتتلفّت، على هينتها، إلى هنا وهناك، حتى إذا لفتَها شيء محدّد دقّقتْ فيه بصبرٍ واهتمام، لتتأكّد، ربما، من أن الذئب العجوز المُوعك دائماً ما يزال حياً مع عجوزه في قفصهما الصغير، وأن العقبان السوداء لم تتعب من تجهّمها طوال الوقت فوق ذراها الاصطناعية وراء الشبك العالي، وأن الليمورات المشاغبة الصغيرة ما تزال حتى هذه الساعة تنطنط بين أغصانها المصبوغة اليابسة. وقد عرفت الأفغانية رئيسة بتروفنا، قبل أيّ كائنٍ آخر في الحديقة، كيف توجِد لنفسها مكانة خاصةً في قلب الزرافة- كانت تعيش مع فيكتور إيفانيتش في غرفة على السطح المقابل لسطح صالح، الذي أصبح سطحي، فتقفز، تقريباً كلّ صباح، إلى الفسحة أمام غرفتي وتقف على حدّها، ثم تبدأ، وقد أطلّتْ الآن على فناء الزرافة، بلفتِ نظرها إليها بنبحاتٍ متلاحقةٍ خفيضةٍ ورقيقة. وكانت الزرافة لا تتردّد في الاستجابة لندائها الحميم فتقترب

منها، وبانحناءةٍ قصيرةٍ فقط تكون بمواجهتها مباشرةً. ثم لا تلبث أن تسبل جفونها برموشها الغزيرة الطويلة الفاحمة مستسلمةً، بهناءةٍ واطمئنان، لرئيسة بتروفنا إذ تنكبّ هذه بلسانها، بهمّة وإخلاصٍ وفخر، على تنظيف فتحتي أنفها المسطّحتين وجبينها المحدّب وعينيها المغمضتين وأذنيها وقرنيها القصيرين.

مع ذلك، ولأسبابٍ غامضةٍ لا أستطيع إثباتها بوضوح، فقد خيّل إلي، مع مرور الأيام، أن أحداً في الحديقة لا يدنو من مكانتي عند الزرافة. وقد عزّز لديّ هذا الانطباع أنها، منذ ليلتي البعيدة الأولى في غرفة صالح، بدأت تخصّني من بين معارفها وزملائها المقرّبين بذلك الإصغاء الخالص الذي لا يهدف على الأغلب إلى فهم ما أقول. وما كنت بطبعي كثيرَ الكلام، لكنني أحتاج أحياناً إلى بعض الكلمات المسموعة فأقولها أمامها كيفما اتفق لأتخلّص من وجودها بلا جدوى في فمي. وأحياناً أجدني في المساء أقرأ أمامها بصوت مسموع، بالروسية أو بالعربية، من كتابٍ في يدي، أو من قصيدةٍ في بالي. ورغم أنني أكتفي، في غالب الأحيان، بخواطري المتداعية أمامها دونما حاجة إلى الكلمات، فإنها لا تكفّ، في هذه الحال أيضاً، عن إصغائها الشديد الصافي إلى صمتي نفسه، كأنها تأنس، في كلّ مرة، بضوضاء خفيّة محبّبة تصل إليها فقط من خواطري ومشاعري مباشرةً. وكان يسرّني طبعاً، وأنا شبه مستلق على الديوانة ويدي تداعب جبينها المحدّب وقرنيها القصيرين، أن أنتبه إلى قمر يحتجب الآن بغيمة عابرة، أو إلى قطّة تنظّف نفسها على السطح المقابل، أو إلى جلبةٍ تحتدّ فجأةً في الشارع المجاور. وعلى عكس الحرج الذي يلازمني عادةً، كلما طال صمتي بحضور

الأشخاص الآخرين، فإنني لا أشعر به أبداً بحضور الزرافة مهما طال، فقد كانت تُشعرني دائماً بأنها تجد بـــي ما تفكّر فيه وما تبحث عنه وما تصغي إليه في كل الأحوال. وأحياناً كنت أجلس أمام وجههـــا مباشرةً على كرسي قش لأصل بيدي إلى بداية عرفها، ولتتمكّن، إذا شاءت، من الإصغاء إلى هواجسي عن كثب. كأنها، بعينيها المؤتلقتين وأذنيها المتيقّظتين، كانت، كلما سنحت لها الفرصة، تنبش في وجهي ماضياً سعيداً لها من أشجارٍ لذيذة في غابـــات بعيـــدة، وشـــركاء ومعارف من حيوانات وطيور ما عادت تسمع اصطخابها منذ وقت طويل. وأحياناً كنت أشعر، كما لو في حلم يقظةٍ هنيء، أنها، في كلّ مرةٍ، كانت تقتفي في ملامحي أثرَ وليدٍ سقط إلى الحياة مـــن رحمهـــا العالية في يوم غابر بعيد، ولم تعرف أين وكيف فقدتْه ذات ظهـــيرة مشؤومة لاهبة.

الزرافة ونونّا

I

وكان يومٌ من الأيام انتبهتْ فيه نونّا إلى البصل الأخضر، كما لو أنها تراه لأول مرة، فاشترت جرزةً. وكانت حديثة العهد بدمشق، فلم تعتد بعدُ على أكل البصل الأخضر الطازج، ولا حتى مع الخبز واللبن. غير أنها عرفت فجأةً الغاية من شرائها جرزة البصل الأخضر في ذلك النهار حين التقت بي، للمرة الأولى، على درج مدخل المركز الثقافي الروسي في وسط العاصمة القديمة دمشق. كنت أعكم بين ذراعيّ رزمة أعداد قديمة من جرائد روسية، اشتريتُها بالكيلو من مكتبة المركز لاستخدامها في مجلة حائط حديقة الحيوانات. وكانت نونا تمسك جرزة البصل الأخضر بزهو ظاهر، وقد استوقفها منظري فجأةً، فجعلتْ تتمعّن فيّ كأنها تستحضرني من حوادث ماضيةٍ وأمكنةٍ بعيدة. وإذ تهيأتْ كأنما تريد أن تهجم عليّ وتحضنني مع جرائدي، إلا أنها تردّدتْ في اللحظة الأخيرة ولبثتْ في مكانها. لكنها، وقد احمرّ وجهها الآن وارتعشت شفتاها الزهريّتان، مدّتْ إليّ جرزة البصل الأخضر كما تقدمّ باقة ورد. وكنت في تلك اللحظة مستعداً، أنا الآخر، لأن أحضنها بكلّ جرائدي، لا لأنني عرفتها من قبل، كما كان يمكن أن نعتقد معاً بسهولة، بل لأنني عثرت، في وقتي الحرج آنذاك، على امرأة مثلها تهتمّ بي.

- تذكرني؟ أنا نونّا!

سألتني بحرارة، فهدّيتُ حزمة الجرائد الضخمة على صدري بيدٍ واحدة، وتناولتُ بالأخرى جرزة البصل الأخضر بإحساسها العالي به- كما أتلقّى باقة ورد.

- أنا أذكركَ. انتظرني هنا!

أردفتْ، ثم ركضتْ على الدرج، وغابت في باب المركز الثقافي الروسي. وكنت كأنني لا أريد في حقيقة الأمر أن أذكرها. أصبحت الجرائد الآن أخفّ عليّ وأقلّ، وأذناب البصل الأخضر الشهيّ قريبةً من وجهي، والمارّة من حولي أقلّ تجهماً وأكثر اتّساقاً بعضهم مع بعض، فما كان يلزمني أن تكون هنالك، أو لا تكون، حكاية قديمة بيني وبين نونّا مهّدتْ، دون أن نحتسب، للقائنا الحارّ المباغِت قبل قليل. لم أكن على الأغلب في حاجة إلى أسباب إضافية تفسّرها لي، أو تسوّغ اندفاعتها نحوي، أو تبرّر وقوفي السعيد الآن على رصيف شارع 29 أيار أمام درج المركز الثقافي الروسي أنا وجرائدي وباقة بصلها الأخضر. كلّ ما كان يهمّني في تلك اللحظة هو أنني أنتظر امرأة جميلة أحتاجها بكلّ قواي. وإذ تأخرتْ عليّ لم أبادر طبعاً إلى تكذيب حواسّي ولا مشاعري. ظللتُ واقفاً في مكاني لا أفكّر في غيابها، بل فيها، دون أن أشعر بمرور الوقت. ثم لفتني عجوز أعمى يتبع عصاه، تردّد لحظةً حين حاذاني على الرصيف، ثم ابتعد عني بمقدار خطوتين أو ثلاث، ووقف إلى جانب شجرة صنوبر فتية. وكما لو أنه صادف الآن في ظلام عينيه صديقاً عزيزاً قرب الشجرة، فجعل يبتسم له بوداعة، وقد تأكّدتْ عصاه من وجوده بحركات رشيقة أمامه في الفراغ. ما أردتُ أن أنغّص عليه احتفاءه بما يراه من

دوني. حاولتُ ما أمكنني أن أُشعِره بعدم وجودي إلى جانبـــه، وأن أحداً غيره لا يرى، ولا يتوقّع، صديقه العزيز في ظلامه المطبق مــن حوله، ثم نظرتُ إلى السماء أتشاغل بزرقتها الصافية. وهنا بـــاغتتْني عصاه الطويلة بلمسةٍ خفيفةٍ على ركبتي، كما لو بمحض المصـــادفة، فالتفتُّ إليه- كان يعرّض ابتسامته، وينظر من وراء جفونه المغمّســة المتلاصقة باتجاه مدخل المركز الثقافي الروسي حيث ظهرتْ نونّا فجأةً من الباب. كانت الآن بثوب أصفر ذهبيّ قصير يُظهر بياض ســـاقيها وذراعيها العاريتين من الأكمام، وقد تدلّت من كتفها حقيبـــة يـــد حمراء. وفي نزولها الرشيق السريع على الدرج بدت لي فاتنةً إلى درجة أنني لم أعد أذكر ما كانت ترتديه قبل ذلك. تريّثتْ تكـــاد تلـــهثُ أمامي، وقد انفرجت شفتاها الزهريتان وعيناها السعيدتان تستطلعان في وجهي خطوتنا المشتركة الأولى في العاصمة القديمة دمشق. نظرتُ إلى الأعمى- كانت ابتسامته ما تزال عريضة من أجلنا على الأغلب أنا ونونّا. ثم خيّل إليّ أن صديقه العزيز، الذي لا نراه، والذي ما يزال ربما واقفاً أمامه في ظلامه الدامس إلى جانب شجرة الصنوبر، كـــان يمحضنا، هو الآخر، الابتسامة العريضة نفسها. ودّعتُهما معاً، بانحناءة ودودة قصيرة من رأسي، ثم رفعتُ يدي لأوقف سيارة أجرة أقلّـــتني ونونّا إلى حديقة الحيوانات في الحي الروسي.

II

كانت نونّا وبصلها الأخضر حدثين مهمّين في حياة الزرافة. ما كان البصل الأخضر قبل نونّا، خاصة في الربيع، ليغيب عن سفرتي- إما في إناء الخضار مع الفليفلة والفجل والرشاد إلى جوار صحنَيْ لبن ورزّ أو بازلاء مطبوخة بعصير البندورة والجزر، وقد يكون مفروماً مع البقدونس في تشيكة العدس أو البرغل، وربما وحده، في أحيان قليلة، مدروماً مع رشّة ملح برغيف خبز ساخن. وكانت الزرافة تنتبه كعادتها بفضول شديد إلى عشائي أمامها على السطح، والبصل الأخضر لا يكفّ عندئذٍ عن نشر نكهته من حولي كأن أحداً غيري في حديقة الحيوانات لا يشعر به ولا ينتظره ولا يخصّه بأدنى اهتمام. لم أنتبه قط إلى أن الزرافة كانت تتنفّس أنفاسي بنهم كلّما داعبتُ وجهها وشعّثتُ عرفها بعد العشاء. كنت أضع كرسي القش على حافّة السطح وأجلس أمامها، كما لو أنني لم أتناول عشائي بعد. وكان لا يمكنني قبل نونّا أن أربط، ولو بخيطٍ رفيع، بين رائحة البصل الأخضر التي أضرمها من حولي وبين الحرارة التي تتشممني بها الزرافة، فقد أسعدني دائماً أنني المعني الوحيد بعواطفها الحارّة في مثل تلك اللحظات. لقد حزرتْ نونّا دون أيّ عناء محبّةَ الزرافة للبصل الأخضر منذ لقائهما الأول. كانت قد سبقتني في الصعود إلى غرفتي على سطح الحديقة، إذ تريّثتُ قليلاً عند مكتب فيكتور إيفانيتش لأرمي رزمة الجرائد عني قبل أن أتبعها. ثم مكّنني طولُ الدرج إلى غرفتي من أن ألحق بها على درجاته الأخيرة وأكتشف لأول مرة جمالَ ظهرها بالأصفر الذهبي، وقد تدفّقت عليه خصلات شعرها السبطة

الشقراء. وما إن لمحتْ رأس الزرافة تقابلها من حدّ السطح المقابل حتى شهقتْ من وقع مفاجأةٍ كأنما لا تُصَدَّق. وفي الحال امتدّت يدها إلى باقة بصلها الأخضر، أخذتْها من يدي دون تردّد أو تفكير، واقتربت بها من الزرافة كما تقترب من عمّة ضخمة وعزيزة. ثم جعلتْ تطعمها، على مهلها، الجرزة الخضراء بصلةً وراء بصلة. كثيراً ما لاحظتُ، في السابق، كيف كانت الزرافة تمضغ عروق العشب والأوراق، وكأن عينيها مستسلمتان لفكرةٍ واحدةٍ مستقيمةٍ لا نهاية لها. وأحيانا كنت أجلب لها كومة من أعشابها إلى السطح لنتناول العشاء أحدنا أمام الآخر، لكنها مع ذلك كانت، في كلّ مرة، تستسلم لفكرتها الوحيدة الطويلة، المملّةِ أعتقدُ، في أثناء الطعام. وقد انتظرتُ الآن، مع أول بصلة خضراء تناولتْها من يد نونّا، أن تشغل بالها بفكرتها المتشابهة الطويلة المعهودة من جديد. غير أنها ظلّت هذه المرة تمضغ البصلة وتتلمّظ بها فترةً طويلةً، وعيناها تأتلقان، كأنما، بمشاعر وصورٍ جديدةٍ أشهى وأحلى. ثم خيّل إليّ أنها، من شدّة اندماجها بلقمتها العطرة الطازجة، صارت الآن تهمهم لنا، وربما لنفسها، بأصواتٍ خفيضةٍ ممتنّةٍ راضيةٍ تتسرّب متقطّعةً من فتحتَي أنفها المسطّحتين. ومع ابتلاعها بصلتَها الخضراء الأولى وتناولها الثانية، بالتلمّظ نفسه والهمّة نفسها، فكّرتُ، وأنا أشهد اضمحلال فكرتها المملة القديمة في عينيها، أن فيكتور إيفانيتش لن يوافق بأيّ حال على إعفائها من العشب البائت والأوراق الذابلة. لا، لن يقبل بإطعامها البصل الأخضر مهما غالى باحترامه لها باعتبارها أضخم الكائنات، ليس فقط في الحي الروسي، بل في العاصمة القديمة كلها على الإطلاق. إنه، بصفته مديراً عاماً لحديقة الحيوانات ورئيساً

لتحرير مجلة الحائط فيها، يحسب دائماً، من أيّ قرشٍ أبيض مُتــاح، حسابَ اليوم الأسود الذي قد لا يأتي أبداً، وقد يأتي في أي لحظة. إن بطاقات الدخول إلى الحديقة، برأيه، لا يمكن الاعتماد عليها. ومــا تخصّصه بلدية الحيّ الروسي لنا من ميزانيتها يغطّي بالكــاد نفقاتنــا الضرورية. أما المساعدة المالية التي يقدّمها بوريا فلا يمكن الركــون إليها في تنفيذ أيّ خطة أو مشروع جديد في الحديقة؛ لأنه ببساطة لا يقدّمها بانتظام، وإن كان يتحمّل غالباً أعباء إطعام الحيوانات اللاحمة في الحديقة من فائض طرائده في موسم الصيد. لكنه "يترك حلوقهــا مفتوحة لي في بقية أيام السنة، فماذا أفعل بها هي الأخرى؟"، شــكا فيكتور إيفانيتش ذات يوم بمرارة في افتتاحية من افتتاحياته في مجلــة الحائط، مع أن كل ما لدينا من الحيوانات اللاحمــة لا يتعــدّى، في الواقع، ضبعاً وثعلباً عكر المزاج قليل الطعام وذئباً وذئبــةً طــاعنين بالسنّ، وثلاثة عقبان سود تكتفي عادة بالجرذان التي تقع في مصائد الحديقة. باختصار كان لا يمكن مفاتحة فيكتــور إيفــانيتش ببصــل الزرافة. ولأسباب عديدة كان من الصعب، بل من المستحيل، علــى نونّا مثلاً، مهما آمنتْ بالزرافة وأحبتها، أن تؤمّن لها يوميــاً خمســةً وعشرين كيلو غراماً من البصل الأخضر على حسابها الخاص. لكنها، برغم كل شيء، وجدتْ بعد تداولٍ قصير جداً معي أن تســتمرّ في تقديم البصل الأخضر لها، كتحليةٍ طازجةٍ ملحقةٍ بوجبتها الرئيســية الطويلة الذابلة. ومنذ ذلك اليوم أصبحت تخصّها بجرزةٍ وحيدةٍ كــل مساء.

لكنّ صداقة نونّا مع الزرافة لم تتوقف عند البصــل الأخضــر فقط. لم تتطفّل طبعاً على العلاقة الودودة المتبادلة أصلاً بين الزرافــة

وحيوانات الحديقة الأخرى. كان مفهوماً للجميع، منذ ظهورها بيننا، أنها لن تنافس أحداً على محبته للزرافة، كما لن تكون بديلة لأحد في خدمةٍ عزيزةٍ محدّدةٍ يحرص على تقديمها لها. لقد بدأتْ منذ أيامها الأولى في الحديقة تعثر، كما لم يفعل أحد قط، على أماكن بعيدةٍ عن البال متروكةٍ وحدها في الظلّ والزوايا المهملة في حياة الزرافة. لفتتْ نظري ذات مساء، مثلاً، إلى أن الزرافة تغنّي أحياناً في سكون الليل بصوتٍ مبحوحٍ خفيضٍ جداً يتسرّب من أعماق رقبتها الطويلة. وكان طبيعياً أن أنخرط في اكتشافات نونا لما فاتني من تفاصيل الزرافة، فانشغلنا معاً بغنائها الخفيض، وألصقنا آذاننا بعنقها، في كل مرة، وأصغينا إليه بشغف وانتباه شديدين. وقد رجّحنا دائماً أن يكون غناؤها الشجيّ العميق البعيد تعبيراً عن الانسجام، وليس عن الوحشة. ثم اكتشفتْ نونا، ذات يوم، أن الزرافة لا تميل إلى شرب الماء كلّ يوم، فقد تكتفي بشربةٍ واحدةٍ كلّ يومين أو ثلاثة أيام، وأنها، إلى ذلك، تشعر بالضيق إذا ابتلّتْ به بشكلٍ مفاجئ. وقد حرصتْ نونا على توصية الجميع بأن ينتبهوا إلى الماء في حوض شربها، فلا يأسن عندما تحتاج إليه، وأن يتحاشوا، ما أمكنهم، مفاجأتَها برشق الماء عليها، ولو على سبيل المداعبة. وفي تلك الفترة تقريباً لاحظتْ نونّا أيضاً حصّةَ الزرافة غيرَ الكافية من طيور الحديقة الطليقة وعصافيرها مقارنة بالحشرات المحتملة، التي تصوّرتْها بسهولة وجعلتني أتصوّرها معها، في جلدها الشاسع المهمل المرقّط الجميل. فكّرتْ نونا، ثم فكّرتُ بعدها مباشرةً، أن الزرافة في كل الأحوال لا يمكن أن تتحكّم بما يخطر في بال الطيور عندما تخرج من أعشاشها تسعى إلى الطعام، ولا نحن أيضاً بقادرين على جعلها تمشّط جلد

الزرافة كلّه بمناقيرها النهمة كل صباح. وكان مفهوماً طبعاً أننا لن نترك جلد الزرافة مرتعاً للحشرات الكثيرة المحتملة، فتذكّرتْ نونا فرشاة ملابس أبيها دينيس بتروفيتش في الغرفة التي يكتريها في المركز الثقافي الروسي، وتذكّرتُ سيبة الحديد الواقفة في مستودع الحديقة. لم يعترض دينيس بتروفيتش، قالت نونّا، بل اعترف لها بفرشاة جديدة في الخزانة جاء بها من موسكو منذ سنتين سوف يتمكّن أخيراً من استخدامها. وهكذا أصبحت نونّا، كلما شعرتْ بحاجة الزرافة إلى التخلّص من حشراتها الزائدة، تتعلّق على رأس السيبة وتزيلها، وأنا أسندها على الأرض، وإلى جواري سطل صغير مليء بالماء، أتناول الفرشاة من يدها، أغمرها بماء السطل، أخلّصها هناك من بقايا الحشرات التي تخيّلتْها، ثم أجففها ببشكير نظيف قديم على كتفي قبل أن أعيدها إليها من جديد. سيبقى للطيور ما تأكله، تقول نونّا. الطيور تظل تنطنط وتفتّش عن الحشرات حتى تجدها، وإذا لم تجدها مباشرةً أو تاهت عنها قليلاً لا تيأس منها لأنها لا تعرف ما هو اليأس. إنها في هذا الوقت بالذات تكون جزءاً من وجود الزرافة، تقريباً مثل ذيلها ومثل أعشابها الذابلة، ومثل إيفانوفا التي تزيل فضلاتها كلّ صباح، ومثلي أنا الآن على رأس السيبة، ومثلك إلى جانب سطل الماء. يدي لا تصل إلى ظهر الزرافة على كل حال. السيبة نفسها لا تمكّنني أصلاً من الوصول إلى طعام الطيور العالي هناك. والزرافة نفسها لا تسمح بذلك دون أن تدري أو ندري. هي لا تحتاج عادةً إلى التفكير بشؤون حياتها، أو حياتنا، عندما تأكل أو عندما تمشي أو عندما تستيقظ، أو عندما تراك أو تراني. أعني أنها لا تهتمّ بما الذي ننتظره منها بالضبط، نحن الكائنات الكثيرة التي تعيش

في داخل حياتها الخاصة، بل تشعر بنا جميعاً فقط وتتصرّف على هذا الأساس. ولذلك سوف تجد الطيور دائماً ما تأكله في جلدها الواسع مهما تاهت عن طعامها ومهما بالغتُ بتنظيفها من الحشرات. تتـــابع نونّا كلامها، كما لو أنها أمينة أســـرار الزرافـــة، والناطقـــة باســـم مشاعرها وبما يجول في خاطرها الآن وفي كل حين، وأنا أتابع يـــدها الدؤوبة بفرشاة ملابس دينيس بتروفيتش، وأشعر بـــالرفق والدرايـــة والعطف كيف تمرّ بها جميعاً على مساحة صغيرة جداً مـــن جســـم الزرافة العملاق.

ثم جاء يوم اكتشفتْ فيه نونّا أن الزرافة لا تتثاءب.

نحن نتثاءب أحياناً، وكذلك الذئبان العجوزان والضبع والثعلب وكل قرود الحديقة، ومعنا كلّ أسود الغابات ونمورها وفهودها الـــتي رأيناها منذ طفولتنا في أفلام الكرتون وبرامج الحيوانات، هل تذكر؟ سألتني نونا. ثم طلبتْ مني في مساء ذلك اليوم أن أراقب الزرافـــة في الليل لنعرف ما إذا كانت ستتثاءب قبل أن تنام على الأقل.

- إذا تثاءبتْ في نومي أيقظْني حتماً!

قالت نونا، ثم انسحبت إلى الغرفة فجأةً، ونامت لأول مرة قبل أن أنام.

كان ذاهباً من بالي، في تلك اللحظات، أنني لم أنفرد بالزرافـــة منذ مدّة طويلة جداً. لكنْ ما إن رأيتُني واقفاً وحدي على الســـطح أمامها حتى شعرتُ بلهفةٍ إليها، مباغتةٍ وحارةٍ، كأنني لم أكن معهـــا منذ أول المساء. وكنت لا أريد أن أظنّ أن لهفتي هذه إنما تعبّر عـــن حاجتي إلى استرداد الحصّة التي تنازلتُ، ربما، عنها لنونّا من مكـــانتي القديمة عند الزرافة يوماً بعد يوم. كان يُضايقني، في حقيقة الأمر، أن

أُحمّل ضعفي اللذيذ المستفحل أمام نونا مسؤوليةَ المسافة الموحشة التي فصلتني ربما، بحضورها القويّ، عن الزرافة. لن أستسلم لتهيؤاتي السريعة هذه بسهولة، قلت. لقد كنت، وسأبقى، أشعر بالضعف اللذيذ المستفحل ذاته أمام الزرافة أيضاً- اقتربتُ منها الآن، وأنا أستبعد بكلّ طاقتي أن تبادرني بحرارةٍ أقلّ مما أظنّ وأتمنى. جلستُ أمامها على حافة السطح، كما لو أن المسافة الموحشة المحتملة بيني وبينها هي مجرّد سوء تقدير مني على الأغلب، وأنني، إذ أحاول إزالتها الآن، لا أهدف، ولا يمكن أن أهدف، إلى تشويه صورة نونا في ذهنها، ولا في ذهني طبعاً. إن ما سمّيته الآن تنازلاً لنونّا عن بعض مكانتي القديمة عند الزرافة لم يكن، ربما، سوى طريقة لاستدراجنا، نحن الثلاثة، إلى اكتشاف حاجةِ كلٍّ منّا إلى الآخر. نعم، لقد ملأتْ نونّا بوجودها الحيويّ ومخيّلتِها الغنية فراغات كثيرةً فاتني مِنْ قبلُ أن أنتبه إليها في حواسّ الزرافة واهتماماتها ومُتَعَلّقاتها. لكنني بنونّا نفسها قد أصبحتُ معنياً بما فلت من ملاحظتي قبل حياتها معي في حديقة الحيوانات. اقتربتُ أكثر من الزرافة. مددتُ يدي متهيّباً إلى عرفها، ودسستُ الأخرى في طيّةٍ حارّة بين عنقها وفكّها الأسفل، فانحنت برأسها الضخم حتى صار فوق كتفي. ألصقتُ خدّي بخدّها الموبّر المجعّد الهائل، وأغمضتُ عينيّ منتظراً منها بكلّ حواسّي ما يمكن أن يُهدئ خاطري المضطرب، ولم تنطّرني طويلاً. شعرتُ في الحال بهمهمةٍ بعيدةٍ تتناهى إليّ، من تلك الهمهمات الراضية العميقة التي تتسرّب أحياناً من أعماقها عندما تمضغ البصل الأخضر. وكنت مستعداً لاعتبار ذلك إشارةً كافيةً إلى حضوري عندها تامّاً كما كان قبل نونّا. لكنها ما لبثتْ أن انزلقت برأسها إلى ظهري، برفقٍ وعطفٍ

ظاهرين، كأنما لتمكّنني هذه المرةَ من أن أحضن عنقهـــا الســـاخن النابض كلّه بين ذراعيّ. فعلتُ ذلك بكلّ قواي، كما لو أنني انتهزتُ أخيراً فرصة لا تعوّض لأحقق رغبةً أشعر بها منذ سنين طويلـــة. وإذ أبعدتُ رأسي عنها قليلاً، فيما كانت أصـــابعي تتحسّـــس ملامـــح وجهها الكبير بشغف، كانت، كما انتظـــرتُ وأحببـــتُ وأردتُ، تخصّني من أعماق عينيها الواسعتين المعتمتين بنظرتها الدافئة الســـوداء الطويلة وإصغائها الخالص الذي عهدته دائماً. كأنها كانت تبحـــث فيّ، من جديد وبلا كلل، عن أثرٍ لوليدها المفقود، وعـــن حفيـــف أشجارها البائدات وهسهسة ظلالها الغابرات ولغط أصواتٍ حميمـــةٍ فقدتْها من ماضي أيامها وأيام جدّاتها الزرافات البعيدات في وطنـــها الملتبس المضمحلّ الأول. ثم تذكّرتُ فجأةً امتناعها عـــن التثـــاؤب، وفهمتُ أنها لن تنعس مادمت جالساً أمامها. نهضتُ من على كرسي القش. ابتعدتُ إلى حافة السطح الأخرى المطلّة على الشارع. جمدتُ في زاوية تتيح لي أن أُراقبها خلسةً في انتظار تثاؤبها، وأن أبدو مـــن ناحيتها كما لو أنني مشغول بشيءٍ آخر. وفي واقع الأمر لم يكن ثمة ما يشعرني بأيّ قلق عليها إذ لم تختلف عليّ، من صباح إلى صـــباح، قبل أن تلاحظ نونّا إحجامها عن التثاؤب. ثم إذا كانت لا تتثـــاءب حقاً فإنني لا أعتقد أنها الكائن الوحيد الذي لا يتثاءب علـــى وجـــه الأرض. في حياتي لم أر عصفوراً واحداً يتثاءب، ولا حـــتى عقباننـــا السود الثلاثة في الحديقة، ولا أعتقد أن الأسمـــاك وقناديـــل البحـــر والحبّارات تتثاءب تحت الماء، ولا أعرف ما إذا كان النحل أو النمل يجد وقتاً للتثاؤب في يومه المضني الطويل. لكنني، مع ذلك، ما أردت أن أستخفّ بنباهة نونّـــا وملاحظاتهـــا. أردت، بكلمـــةٍ أدق، أن

يُداخلني، ما استطعتُ، قلقُها الحلو على الزرافة لا أكثـــر. ودون أن أفلت الزرافة من مراقبتي حاولتُ الآن، ما أمكنني، أن أجمد في مكاني مُثبّتاً عيني على خيال امرأة تجلس في شرفة بعيدة بالطرف المقابل من الشارع- كأنها كانت في انتظار غائب عزيز منذ أول المساء، لكـــنّ الوقت الطويل الذي قضته على الشرفة أمامي جعلها تيأس أخيراً من عودته هذه الليلة، فنهضتْ خائبةً وغابت في ظلام الشـــقة. ثم نـــدر المارة في الشارع، وخفّ كثيراً الضجيج المتأخّر القادم مـــن شـــارع الملاهي القريب، وجهجه الضوء، والزرافة في مكانها لا تـــنعس ولا تتثاءب. ظلّت تساهرني حتى استيقظت نونا مع قدوم رئيسة بتروفنـــا إلى سطحنا في الصباح. لم تستفسر نونا منّي عن شـــيء بخصـــوص الزرافة، فلو كانت تثاءبت في أثناء نومها لكنتُ أيقظتها حتماً، لكنها فوجئت ببقائها واقفةً في مكانها الليلَ بطوله:

- ألم تنم؟

- الزرافة نادراً جداً ما تنام، وإذا نامت فبشـــكلٍ متقطّـــع، ولدقائق قليلة لا تتجاوز العشرين أحياناً، وواقفةً طبعاً أكثر الأحيان.

أجابها، عنّي، فيكتور إيفانيتش من السطح المجاور، وهو ينظـــر، بعطفٍ وإعجاب، إلى رئيسة بتروفنا المنهمكة الآن بعملها المفضّل في تنظيف وجه الزرافة، ثم أردف:

- ربما بسبب الخوف من سباع الغابة لا تنام بعمق.. مـــع أن زرافتنا هذه ولدت في خيمة سيرك.

نظرت نونّا إليّ مستشعرةً، كأنما، سباعَ الغابة العتيقة المتوارثـــة المتربّصة حتى الآن في رأس الزرافة. وكما لو أنها أصبحتْ الآن، قبل

أيّ شخص آخر، معنيةً بخوفها من السباع، التفتتْ إليها بوجهٍ مستغرقٍ بالتفكير. كانت رئيسة بتروفنا قد ابتعدت عنها راضية تماماً عن عملها الودود المتقن. اقتربت نونّا من الزرافة، وحطّت براحة كفّها على جبينها المحدّب لتخفّف، كأنما، من حدّة الزئير المجرّد القديم المحتمل في رأسها حتى الآن. وكان ملموساً، بالنسبة إليّ على الأقل، أن نونّا قد وضعت في بالها هذه السباع الغابرة المفترضة، منذ هذا الصباح، إلى جانب البصل الأخضر والحشرات والطيور والسيبة وفرشاة ملابس دينيس بتروفيتش وسطلِي الماء والطبيب البيطري بشير غندورة وإيفانوفا ورئيسة بتروفنا، وغير ذلك الكثير من متعلّقات الزرافة في حياتها معنا جميعاً، بالإضافة طبعاً إلى ملاحظات فيكتور إيفانيتش الخاصة بها في مفكّرته الصغيرة، التي يسمح لنا بقراءتها أحياناً، عن سلوك مرؤوسيه من الأشياء والكائنات الحية من البشر والبهائم في حديقة الحيوانات.

الزرافة والتلفزيون

I

في ذلك اليوم نزلنا، نونّا وأنا، إلى السوق، واشترينا بمبادرةٍ منها تلفزيون الـ 14 بوصة. إن الزرافة، كما فهمتْ نونّا من فيكتور إيفانيتش في ذلك الصباح، تعيش في الحديقة منذ خمس سنوات. وكان عمرها قبل ذلك لا يقلّ عن هذه المدة، ومن الوارد جداً أنها، بعد مرور عشر سنوات على وجودها في هذا العالم، لم تعد تميّز من تصوراتها الموروثة عن السباع سوى الخوف الغامض الذي يمنعها من الاسترخاء والنوم العميق. لابدّ أن الخوف من السباع قد ولد بوضوحٍ شديد مع جدتها في الغابة، ثم مع أمها بوضوح أقلّ إذ جيء بها مع فحلٍ من عمرها إلى خيمة السيرك في الحي الروسي، حسب فيكتور إيفانيتش، في شهور حياتهما الأولى. لكنّ زرافتنا الحفيدة لا تعيش الآن في الغابة ولا تعرفها أصلاً، وقد تتمكّن شيئاً فشيئاً، فكّرتْ نونّا، إذا شاهدتْ سباع التلفزيون من وراء شاشته المتينة أن تكوّن، قدر الإمكان، فكرةً واقعية، ولو مصغّرةً، عن مصدر خوفها القديم دون أيّ عواقب. ولعلّها ستعرف أخيراً، أو ستشعر على الأقل، أن السباع مهما زأرتْ لا تفترس الحيوانات الأخرى لأنها تكرهها، بل لأنها تحبها ولا تستطيع العيش من دونها، تماماً كما تحب الزرافات أشجار الأكاسيا، والكلابُ العظامَ، والأسماكُ الأسماكَ.

الناس أنفسهم يحبون الخراف التي يأكلونها. لكن الخراف لا تخاف الناس، ولا تشعر إزاءهم بأي عداء، ولا توسوسُ بسكاكينهم قبل أن تنام. إنها تعيش في اصطبلاتهم بسلام، وتأكل من معالفهم، وترعى في مراعيهم مطمئنةً غاية الاطمئنان كما لو أنها ستحيا معهم إلى الأبد، أليس كذلك؟ سألتني نونّا بنبرةٍ متشكّكة، كأنما، بفكرتها عن المحبة الخالصة التي نتبادلها مع حيواناتنا الأليفة التي نأكلها. وكنت لا أريد أن تذهب نونا بعيداً في شكّها الرهيف هذا، فذلك لن يأخذها، على الأغلب، إلى غير أن تضع نفسها بعد قليل، بكل مشاعرها الشفّافة وأفكارها الرقيقة ومخيلتها الخصبة، مكانَ تلك الطيور والأسماك والخراف والعجول التي تتألف منها عادةً أشهى موائد البشر. حتى كباب آكوب، الذي نتلذّذ به عادةً معاً في المناسبات، قد يجعلنا نبدو في عينيها، مع نمو شكّها طبعاً، كما لو أننا استمتعنا في واقع الأمر بافتراسنا خرافاً وديعةً قُتلتْ من أجلنا في كل مرة ذهبنا فيها إلى مطعم الزهور في بستان كليب. وكانت عيناها، في تلك اللحظة، قد اكتستا بقلقٍ مفاجئ كان يمكن أن يُفضي بها فعلاً إلى ذلك الحرج الرهيف النافل.

- الناس يحبون الخراف، والخراف لا تخاف الناس ولا تفكر بالخوف منهم.

سارعتُ، بنبرة المفتون، إلى تأكيد فكرتها الأولى التي صرّحتْ بها قبل قليل. ثم أردت أن أحوّل الحديث إلى جهة أخرى، فلفتّ نظرها إلى أننا، بالمناسبة، نستطيع، من أجل أن تصبح شاشة التلفزيون على ارتفاع مناسب لمشاهدة الزرافة، أن نُخرج إلى فسحة سطحنا طربيزتَنا الوحيدة من الغرفة.

- الطربيزة قصيرة عليها.

أجابت نونا على مضض، كما لو أنها ما زالت تغالب شعوراً غامضاً بالقلق كان سيفسد على الأغلب احتفاءنا بتلفزيوننا الجديد.

- ننتظر ونجرّب.

قلتُ، وأنا أصعد على السيبة إلى ظهر الغرفة- ثبّتُّ الصحن اللاقط، ونزلتُ بخفّة بهلوان. ثم أخرجتُ الطربيزة، ووضعتُها أقرب ما تكون إلى ديوانتنا وحافة السطح. وكانت نونا قد أخرجت التلفزيون من صندوقه الكرتون، فتناولتُه منها، وركّزتُه على الطربيزة بصورة تسمح لنا، نحن الثلاثة: الزرافة ونونا وأنا، بالمشاهدة القريبة المنشودة. ثم لم نعرف بعد وصلِ التلفزيون بجهاز الاستقبال ودارة الكهرباء كيف نملأ الوقت القليل الثقيل الباقي على حلول الظلام. جلسنا على الديوانة متجاورَيْن ننتظر المساء الموشك بصبرٍ نافد. نادراً ما كانت الزرافة تقترب من حافة سطحنا في النهار، فهي نجمة الحديقة بلا منازع، وتكون عادةً مشغولةً حتى المساء باستقبال وملاطفة ضيوفها الكثيرين من الصغار والكبار القادمين من أجلها يومياً من الحي الروسي ومن كلّ أحياء العاصمة القديمة دمشق. ثم رأت نونّا، بصوتٍ مُسارَرَةٍ ضعيف، وهي تصفن في الشاشة الصغيرة المطفأة أمامنا، أن يكون التلفزيون، عند وصول الزرافة إلى حافة سطحنا، مفتوحاً سلفاً على الغابات. يجب أن نبدأ، قالت، بأشجار الأكاسيا التي ورثْتها هي الأخرى بالولادة وليس بخبرتها الشخصية، تماماً كالخوف من السباع التي لم ترها في حياتها. أعني لا ينبغي أن تتعرف إلى السباع قبل أن ترى الغابات وتحبها. يجب أن تكتشف أولاً هواجسها العتيقة المشوّشة اللذيذة بالأكاسيا، فتراها أشجاراً

حقيقيةً لأول مرة، عاليةً، شهيّةً، فاتنةً، كما لم تـــر و لم تتـــذوّق و لم تظنّ. بعد ذلك يمكن السباع أن تظهر من أعماق الغابة اللذيذة مثل نقاط بريئة متحركة تكبر أمامها شيئاً فشيئاً- في البداية لن تلتفت إليها طبعاً وقد لا تهتمّ بها. لكنها شيئاً فشيئاً سوف تضطر إلى ملاحظتـــها عندما ستصبح بأحجامها الطبيعية، وعندئذٍ سوف تـــذكّرها علـــى الأغلب بالوحوش الغامضة التي تهجم عليها عادةً كلمـــا أغمضـــت عينيها لتنام عندنا في حديقة الحيوانات.

ثم صمتت نونا، وقد اكتست عيناها من جديد بالقلق المباغـــت نفسه حين ارتابت قبل قليل بفكرتها عن المحبة الخالصة بيننـــا وبـــين الخراف التي نأكلها. ثم التصقت بـــي على الديوانة حتى خيل إليّ أنها قد تحضن براحتيها أصابع يدي في أيّ لحظة، فـــانتظرتُ متلـــهّفاً أن تفعل.

لم تفعل.

– الخراف تخاف الذئاب.. أليس كذلك؟

سألتني.

– تخاف.

اعترفتُ.

ثم لم تسألني: ما الفرق إذاً بيننا وبين الذئاب؟

بل قررتْ بصوت منفعل خفيض بعد صمت قصير:

– لا بدّ من الخوف.

ثم تابعتْ بصوت آخر:

– سوف نبحث الآن في تلفزيوننا عن الغابات التي تلزمنـــا. وسوف نعثر، لا بدّ، على غابة أو غابتين، وربما ثلاث، من

غابات غينيا أو سيراليون ربما. هل تعرف بالضبط من أيّ بلد تأتي الزرافات إلى خيام السيرك وحدائق الحيوانات؟

ثم أجابت نفسها فوراً:

- ليس مهماً على كل حال من أين تأتي الزرافات، ما يهمنا الآن الغابات التي سنجدها هنا في تلفزيوننا بعد قليل. سوف نرتّبها في جهاز التحكّم غابةً وراء غابةٍ وراء غابة. وعندما يطل علينا رأس الزرافة من بعيد نكبس الزرّ على أول غابة تحت يدنا. أنت طبعاً من سيكبس الزرّ؛ لأنني سأكون في هذا الوقت واقفةً على حافة السطح. سوف أستدرج الزرافة بجرزة بصلها الأخضر، فلا تلتهي في طريقها إلينا بغيرنا من حيوانات الحديقة؛ لأن من المحتمل جداً أن تختفي الغابات دون أن نشعر. الغابات، مثل أي شيء آخر في التلفزيون، لا تبقى غالباً في مكانها فترةً طويلة، خاصة إذا كنتَ بحاجة ماسّة إليها. أعني أننا قد لا نستطيع أن نضمن غابةً واحدةً من الغابات مهما رتّبناها وأمّنّا عليها في جهاز التحكّم. في أيّ لحظة يمكن أن نعود إليها ونجد بدلاً منها نشرة أخبار أو مباراة بالمصارعة، أو برنامجاً وثائقياً عن الإنفلونزا في الحرب العالمية الأولى، فماذا نفعل عندئذٍ؟

ثم نظرت نونا إليّ، كما لو أنها تريد فعلاً أن تعرف مني الآن ماذا سنفعل إذا عدنا إلى الغابات و لم نجدها في التلفزيون عند وصول الزرافة إلى حافة سطحنا. اعتقدتُ طبعاً أنها سوف تجيب بنفسها على سؤالها كما تفعل غالباً. لم تجب هذه المرة، بل حضنتْ براحتيها

أصابع يديّ كما توقعتُ قبل قليل. لم أستطع طبعاً تقدير الإجابة التي تنتظرها مني لأقولها. ظللت صامتاً أنظر إلى الأرض، ومشغولاً جداً بإحساسي بدفء يديها فقط. ولمّا طال صمتي شعرتُ بعبئه عليها، فرفعت وجهي والتفتُ إليها. كانت الآن تنظر إليّ بحماسةٍ واضحة، كما لو أنني الزرافة التي ستلتقي بعد قليل، لأول مرة في حياتها، السباعَ الطليقة في الغابات الحقيقية الممكنة أخيراً في تلفزيوننا الجديد.

- سوف تفهم الزرافة اليوم سبب خوفها القديم. قد لا تفهمه طبعاً من النظرة الأولى إلى السباع. في البداية سوف تأخذ فكرةً عامةً فقط عن الأصوات الغامضة التي تمنعها من النوم. ثم شيئاً فشيئاً ستتحوّل هذه الأصوات أمام عينيها إلى مجرّد زئير. زئير عادي واضح ومخيف سوف تطلقه على سطحنا سباعٌ حقيقية مختزلةٌ تعيش في غابات أكاسيا حقيقية، مختزلة أيضاً، تطلّ علينا كلّ ليلة من هذه الشاشة الصغيرة.

وكانت عينا نونا ما تزالان تنظران في عينيّ كما لو أنني الزرافة، وتتأكّد، كأنما، من درجة اقتناعي بكلامها واستعدادي لأن أبدأ من الآن فصاعداً بتفهّم خوفي الغامض القديم قدر الإمكان، وهي تشجّعني على ذلك بأصابعها التي تضغط على أصابعي برفقٍ لذيذ. ولسببٍ ما خيّل إلي في تلك اللحظة أنها ترتعش من الانفعال أو من شعورٍ مفاجئ بالبرد، فأردت أن أغمرها بذراعي. وكانت ما تزال تلتصق بي على الديوانة التي نجلس عليها. لكنّ فيكتور إيفانيتش أشعل، عندئذٍ فقط، الضوء فوق الدرج الصاعد إلى غرفته، فانتبهنا إلى ظلام أول المساء ونهضنا. فهمنا أخيراً أن انتظارنا الآن لن يطول

كثيراً جداً. ثم كان ظهور رئيسة بتروفنا أمامنا على السطح المقابـــل، بعد قليل، علامةً أكيدة على مغادرة الزائـــر الأخـــير، وأن فيكتـــور إيفانيتش يصعد وراءها الدرج على مهله. كانت الزرافة الآن ما تزال بعيدة عنّا. كأن خرتشةً خفيفة استوقفتها فجأةً بالقرب من ســياج النعامة. وكانت نونّا قد بدأت سلفاً تهرتم معها من بعيد على حافــة السطح، وهي تلوّح لها بجرزة بصلها الأخضر. وكنـــت، في هـــذه الأثناء، قد انكببتُ أمام التلفزيون أبحث متلهّفاً في قنواته المتســارعة أمامي عن أنسب الغابات لأفكارنا في ذلك المساء. لكنّ الحظّ أراد، كأنما، أن يناكدني في اللحظة الحرجة، فلم أعثر مـــن كـــل بـــرامج الحيوانات إلا على لقطات قريبة تحدث تحت أرض غابة أفريقيـــة في برنامج عن حياة النمل. كنت أتوقّع طبعاً وصول الزرافة بين لحظـــة وأخرى، فتمنّيت الآن لو تُمهلني هامشاً إضافياً من الوقـــت، فـــلا تستجيب بالسرعة المتوقّعة لنداء نونّا. كانت إبهامي لا تتوقّف عـــن تقليب القنوات بعضها فوق بعض بجهاز التحكّم، فلا أرى أمـــامي على الشاشة سوى تدفّقِ صورٍ سريعةٍ مبتورة لمذيعات ورؤساء وفُوَط نسائية وحوادث سير وممثلين ومطربين ومُلتحين وسفينة غارقة ولكمة على الأنف وجزر مبشور وجنازة وتظاهرة وفرشاة أسنان، دون أيّ أثر لأيّ غابة من الغابات التي اتفقنا عليها أنا ونونا. ثم نبّهتني نونّا إلى اقتراب الزرافة من حافة السطح، فخشيت من سوء الحـــظّ أن يمـــلأ الشاشة لي، عند وصولها تماماً، بتكشيرة سبع يزأر في لقطة قريبة غير مسبوقة بغابة الأكاسيا اللذيذة ولا بالنقاط البريئة البعيدة المتقدمة من أعماقها. وكان الرؤساء والملوك والملتحون والممثلون والمتظـــاهرون والمشيّعون ولاعبو كرة القدم ولاعبات التنس والمراسلون والمطربات

والمذيعات والراقصات ما يزالون يتدفقون أمامي بــلا نهايــة، مــع البقدونس المفروم ودواليب السيارات الجديدة والقتلــى والأحذيــة الجديدة وحفاضات الأطفال وحزم المعكرونــة وقنــاني الويســكي وشفرات الحلاقة ورقائق البطاطا المقلية. وكدْتُ أستســلم لخيــبتي المتواصلة لولا نهر عريض ظهر فجأة بمياه عكرة حمراء وشريط داكن الخضرة ممتد على طول ضفته البعيدة في أعلى الشاشة. النهر أنســب من النمل في كل الأحوال، فكرتُ بخيبةٍ أقل. لا شيء كــان يمنــع الحوّامة، التي تطير الآن بالمصوّر فوق وجه المياه العكرة، من أن تتجه به، وبنا، في أيّ لحظة إلى الشريط الأخضر البعيد، فنجد أنفسنا فجأة في أحضان الغابة المرتجاة. وبالفعل لم تمض ثوان معدودات حتى اقتربنا من الشريط الأخضر البعيد، وقد تحوّل الآن أشجاراً عاليةً ما كنت في هذه العجالة والضرورة لأعتبرها، أياً كانت في حقيقة الأمر، إلا مــا نحتاجه بالضبط من أشجار الأكاسيا. ومع وصول الزرافة أخــيراً إلى حافة السطح وبلوغنا أشجار الشاطئ على الشاشة في آن، استعجلتني نونّا أن أتنحى جانباً لتفاجأ الزرافة الآن بالغابة على مــدى النظــر. تنحّيت لها في الحال، وأنا أترصّد ونونا وقع أشجار جدّاتها الزرافات عليها. لم تلتفت إليها. ظلّت تنظر، بنهمٍ، إلى نونّا التي أخفــت الآن جرزة البصل الأخضر خلف ظهرها. بــادرتُ، عندئــذٍ، بتقريــب التلفزيون مع طربيزته من رأس الزرافة حتى أصبح من المســتحيل أن تتجاهل الأشجار التي ملأت من أجلها الشاشة كلّها حتى كــادت، من شدّة قربها، تلامس الوبر القصير الكثيف على شفتيها، لكنْ دون جدوى.

- الزرافة عمياء.

قال فيكتور إيفانيتش، وهو يراقبنا من حافة السطح المقابل، وفي يده كوب شاي يتصاعد منه البخار.

- أصابها العمى بعد مرض، و لم تعد صالحةً للسيرك، فقدموها هديّةً لنا منذ سنوات.

تابع فيكتور إيفانيتش بعد رشفةِ شاي.

كان المصور قد حوّل كاميرته عن الأشجار باتجـــاه النـــهر، ثم قرّب بعدستها منّا شيئاً مجعّداً طافياً على سطح المياه سرعان ما تبـــيّن أنه تمساح متّجه نحو الشاطئ. وكانت نونّا قد أظهرت جرزتها مـــن وراء ظهرها، وناولت الزرافة بصلةً خضراء، وهي تنظر إليها ثم إليّ، نظرتَها النضرة الواعدة عندما توشك على منح ابتسامة جميلة. كنت أسمع في هذه الأثناء، كما لو من وراء ستارةٍ سميكة، كيـــف كـــان فيكتور إيفانيتش ينفخ في شايه الساخن ويرشفه من وقتٍ إلى آخـــر. ثم وجدتُني أنشغل فترة طويلة بالتمساح الذي خرج من الماء وتمـــدّد على الرمل يتشمّس، وقد فتح فكّيه الهائلين للهواء الحـــار الخـــانق. كانت أشجار الأكاسيا وراءه على عرض الشاشة تقف الآن باتّساق وصبرٍ وصمتٍ وترقّب، كأنها ما تزال تنتظر شيئاً منّا نحن في حديقـــة الحيوانات. حتى التمساح، مع أنه تمساح، بدا لي فجأةً كأنه في صورةٍ ما يشغل بالنا المتّقد، فلم يعد خروجه من الماء عبثاً بالنسبة إليّ علـــى الأقل. ولسببٍ لم أفهمه و لم تفسّره الكاميرا مباشرةً، عـــاد المصـــوّر يصوّب الآن عدسته من جديد نحو الغابة، فتناثرتْ في ذهـــني فـــوراً احتمالات كثيرة تخدم نوايانا الآسرة التي لم تخبُ رغم كل شيء. غير أن نونّا هتفت باسمي بصوت دافئ حذر ضعيف، فكففت عن متابعتي حركة الكاميرا، والتفتُّ إليها. كانت تبتسم الآن ابتسامتها الساحرة،

وتدعوني بعينيها السعيدتين أن أنظر إلى الزرافة- لقد انتبهتْ أخيراً إلى شاشة التلفزيون. وكان المصوّر يبرّر الآن ذهابه إلى الغابة مستعرضاً، كأنما من أجل الزرافة فقط، أشجار الأكاسيا شجرةً شجرةً. وبحركةٍ بطيئةٍ يبتعد عنها لتراها الزرافة كلّها بالقياس إلى رحابة السماء وامتداد الشاطئ، ثم لا يلبث أن يقترب منها حتى لتكاد تميّز العروق الدقيقة على سطح أوراقها النديّة الخضراء. كانت الزرافة تتمعّن بالغابة وتصغي إليها باهتمام كبير، وهي تمضغ بصلتها الخضراء بتأنٍ شديد ومتعةٍ ملحوظة. وكنا، نونا وأنا، تماماً كما ينبغي لنا أن نكون، إلى جانب الزرافة حتماً دون أيّ حساب أو تردّد- كأن ما قاله فيكتور إيفانيتش عن عماها قبل قليل لم يكن في الواقع سوى معلومة صحيحة لا أكثر. إن من غير المعقول فعلاً أن يتنازل سيركٌ طويل عريض عن زرافة شابة بهذا الجمال الباهر لحديقة حيوانات دون سبب جوهريّ. لكننا، نحن الزرافة ونونا وأنا وباقي حيوانات الحديقة وروّادها الأطفال بصورة خاصة، نملك في المقابل من الحقائق، التي لا تخصّ غيرنا إذا شاء فيكتور إيفانيتش، ما يجعلنا نعتقد أن الزرافة، إذا كانت لا ترى تبعاً لمعلومته الصحيحة الباردة، فإنها ليست عمياء تبعاً لحقائقنا الشخصية الحارّة العزيزة المجرّبة. تلك الحقائق التي يعرفها فيكتور إيفانيتش نفسه ولا يستطيع إنكارها في أي حالٍ من الأحوال، بل من أجلها اعتبر الزرافة دائماً في مفكّرته الأجمل والأذكى والأكثر لباقةً وطيبةً من بين كل مرؤوسيه من مخلوقات الحديقة وأشيائها. الزرافة، التي لا تخطئ برأس لسانها الأسود الحذر الطويل رقبةَ النعامة النحيلة المعلّقة في الهواء، ليست زرافة عمياء. والزرافة التي تميّز، من عشرات الأيدي الممدودة إليها من وراء

السياج، اليدَ الصغيرة التي تقدّم إليها خسّةً أو جــزرة، لا يمكــن أن تكون زرافةً عمياء. والزرافة التي ما اصطدمت قط بأيّ من الأسيجة المجاورة في باحتها الضيقة، والتي ما داست مرةً فوق فضلاتها، والـــتي تفسح عادةً بالمجال لإيفانوفا لتقــوم بعملــها الإداريّ بــالتنظيف، وللطبيب البيطريّ بشير غندورة ليمارس مهنته في أعضائها المختلفــة دون اعتراض، ولفيكتور إيفانيتش لأن يفاتحها مرةً أخرى وأخــرى بأن بعض الآباء لا يفضّلون تمكين أطفالهم مــن ملامســة شــفتيكِ بأصابعهم مهما تلهفوا إلى ذلك، كيف يمكن أن تكون زرافةً عمياء؟ هي التي لا تكلّ من الإصغاء الخالص إلى هواجسنا والتغلغل بنظراتها الصافية الثاقبة الدافئة السوداء إلى أعماقنا، كما لو أنها، في كل مرة، تولّف فينا وفيها خواطرنا الدفينة بخواطرهــا الخاصــة، وأســرارنا بأسرارها، ومشاعرنا بمشاعرها.

- هدية لا تعوض.

قالت نونّا، بعد صمت طويــل، لفيكتــور إيفــانيتش دون أن تلتفت إليه. وكانت الزرافة تتابع متعتها بمضغ بصلتها الأخيرة، وتتابع باهتمام واضح التمساحَ الذي كان قد عاد إلى الماء ويلتهم الآن، هو الآخر بشغفٍ كبير، سمكةً خائفة ضخمة تتلوّى بين فكيه الهائلين.

II

في الليلة الثانية من وجود التلفزيون لم نيأس طبعاً، لا أنـــا ولا نونا، من العثور على السباع تحديداً في غابة أكاسيا. لم يكن لدينا أيّ مبرّر عندئذٍ لأن نكترث بالذئاب التي صـــادفناها، ولا بالثعالـــب أو الثعابين، حتى السحالي الضخمة المرعبة ما أغرتنا بإبقـــاء زرّ جهـــاز التحكّم مكبوساً عليها لأكثر من ثانيتين أو ثلاث. ثم كانت إثارتنـــا كبيرةً حقاً عندما عثرنا أخيراً، وراء نشرة أخبار باللغة الصينية، وربما الفيتنامية، على أول سبع التقته الزرافة في حياتها.

كان السبع جالساً أمام غزالةٍ يأكلها. وفي مكان قريب ربضت لبوة مترقبةٌ مع ثلاثة أشبال.

ما كنا، بطبيعة الحال، لنجرؤ على انتظار الكثير جداً من لقـــاء الزرافة الأول مع مصدر خوفها القديم. أو بكلمة أدق ما أردنـــا أن تُشعرنا بالخيبة دون أن تقصد، فقد لا تعرف كيف تربط، تلقائيـــاً، خوفها الغامض بهذا الحيوان الغريب الذي يتناول طعامه أمامها للمرة الأولى. ثم إن السبع، الذي عثرنا عليه، لم يكن للأســـف في غابـــة أكاسيا، بل في برّية عارية من أيّ صنف من الأشجار. لو كـــان في غابة أكاسيا، كما خططت نونا ليلة البارحة، لكان من الأسهل ربما على الزرافة أن تشعر، بالفطرة مثلاً، بأنه عقبة على الأقل في الطريق إلى أشجار جدّاتها اللذيذات.

ظلّت الزرافة تراقب السبع الذي يتابع طعامه، طوال دقيقتين أو ثلاث، ونحن نراقبها ونراقبه، لكنّ شيئاً جديداً لم يطرأ على ملامحها، كما لو أن ما يجري أمام خطمها، على الشاشة، معـــروف ومتوقـــع

بالنسبة إليها، بل وطبيعيّ. وما كان برودها المبدئيّ هذا ليجعلنا نشعر باليأس من قدرتها على التمييز بأي حال، فقد تمكّنتْ نونّا وحدها، بعد قليل، من ملاحظة أن الزرافة قد بطّأت من وتيرة مضغها بصلتَها الخضراء. وهذا، مع أنني لم ألاحظه أبداً، كان مؤشراً جيداً، بالنسبة إلينا معاً، إلى أن الزرافة بدأت ربما تدرك هذا النوع البسيط المباشر من الطعام حين يأكل حيوانٌ كاملٌ حيواناً كاملاً آخر مستلقياً أمامه دون حراك. ثم شدّ انتباهنا شبلٌ من الأشبال الثلاثة- انفصل عن أمه فجأةً، وانضم ببساطة وهدوء إلى وليمة أبيه. ثم بالبساطة نفسها والهدوء نفسه رفع عندئذٍ الأبُ قائمته، القريبة من شبله، ونزل بها على رأسه باكتراثٍ قليل جداً. انقلب الشبل فوراً على ظهره، وظل مستلقياً إلى جانب الغزالة بشكلٍ كامل أيضاً دون حراك. كان واضحاً بالنسبة إلينا أن الشبل قد لقي حتفه حتماً، وانتظرنا منه متلهفين أن يجلو للزرافة، بمقتله الصريح، شيئاً ما من صورة أبيه المتوحشة المغبرّة في رأسها، لكنْ دون جدوى. لم نسلّم طبعاً باضمحلال خوف الزرافة بفعل تقادم صور الافتراس الموروثة في رأسها وغياب تجربتها الشخصية به؛ لأننا كنّا نعرف أنه كان ما يزال يمنعها، كلّ ليلة، من النوم لأكثر من دقائق معدودات، كما لو أنها ما تزال تعيش في غابة من الغابات وليس في حديقة آمنة وسط أصدقائها ومحبّيها من الحيوانات الأخرى. لا بدّ من الخوف، ردّدْتُ وراء نونّا. الخوف يعلّم الشجاعة ويحضّ على المعرفة ويضع الخائفين على حافة المجهول والفعل. ونحن نريد، من كلّ قلبنا، أن تخاف الزرافة الآن من السباع لتفهمها أخيراً على حقيقتها دون أيّ تبعات على حياتها. لم نعد، في واقع الأمر، قادرين أن نتصوّر أن يكون خوفها كلّه مجرّد

احتمالٍ سطحيّ عابرٍ احتمله أمامنا فيكتور إيفانيتش ذات صباح. أصبحتْ الزرافة في نظرنا، مع خوفها المشوّش من سباعها العتيقة المهلهلة المحشوة في رأسها، أشدّ جاذبيةً وجمالاً وغموضاً وقرباً منّا وهذا الأهم. لقد بدا لنا الخوف عندئذٍ ضرورياً حتى لنموّ النبات، ومن دونه ما كانت لتتمّ، ربما، هجرةُ الطيور، ولا كان ثمة معنى لأسفار النحل ودأبِ النمل، والذهابِ إلى المدارس، وبناء البيوت والسفن والطائرات والمدافع، وتأليفِ الكتب والأغاني، والذهاب إلى المسرح والسيرك والسينما، وضرب المواعيد بين المحبّين وتربّص المجرمين ودقة رجال الأعمال وخفّة السحرة واللصوص. وحدهم اليائسون حقاً لا يخافون. ولم يكن، على حدّ علمنا، في حياة الزرافة عندنا في حديقة الحيوانات، ما يدعوها إلى اليأس الكلّي لكي لا تخاف. لقد كنا، أنا ونونّا، متأكّدَيْن تقريباً من وجود الخوف في قلبها؛ لأننا لن نصدّق أن تكون غير مكترثة بالحياة مهما بالغتْ بحيادها البارد إزاء ما يجري أمام عينيها الآن بين السبع والغزالة. ثم خطر الزئير فجأةً ببال نونا- لو قرّر السبع أن يزأر الآن لساعد الزرافة ربما في نبش صورته القديمة الموروثة فيها، ولاستطاعت، دونما جهدٍ كبير، أن تتخيل نفسها، أو إحدى جدّاتها على الأقل، مستلقيةً بشكل كامل في مكان الغزالة دون حراك. بعد ذلك رأينا، معاً، أننا إنما نكلّف الزرافة ما لا طاقة لها به في ليلة واحدة؛ فقنعْنا، من حيث المبدأ، بالسبع الأول الذي شاهدته في تلك الليلة ولم تتعرّف إليه بصورة جيدة. لم يكن دم الغزالة كافياً، قلنا، وما حدث للشبل كان أقلّ بكثير من أن يعيد إلى الزرافة سنين طويلة من ذاكرة جداتها البعيدات. ثم إن خبرتها الضعيفة جداً، بل المعدومة عملياً، بسلوك

الفرائس الخبيرات بالخوف من السباع والأمل بالنجاة منها، لم تُمَكّنها حتماً من أن تستوعب كما ينبغي استلقاءَ الشبل الفوريّ الكامل إلى جانب الغزالة. ثم بدا لنا أمراً حسناً جداً، في نهاية الأمر، أن الزئير المنتظر الفاصل لم يحصل، فظللنا نستبعده بكلّ قوانا حتى شبع السبع من الغزالة وقام عنها وابتعد.

في الليالي التاليات لم نغامر بالزئير. ما أحببنا، كأنما، أن نتنازل عن إيماننا، العميق دونما أساسٍ مفهوم، بخوف الزرافة وقدرتها على استيعابه والتعايش معه بوصفه حافزاً للحياة والصداقة والمعرفة. وكذلك ما أردنا أن نفقد أملنا بأثر الزئير الحاسم في جلاء ذاكرتها الغائمة عن محتوياتها الوحشية الضرورية المرعبة، كما قدرتْ نونا وقدّرتُ بعدها مباشرةً. لقد كان من العبث حقاً أن نُقْدم على المجازفة، بذريعة الوقوف على الحقيقة، فنضع إيماننا بالخوف وأملنا بالزئير على محكّ ما يسمّى عادةً التجربة. لم نكن أصلاً، لا أنا ولا نونّا، من طلاب أي حقيقة مكتملة جاهزة تملك سلفاً كل الأجوبة الشافية لهواجسنا المتكاثرة التي لا تحصى. صرنا نتهرّب بعدئذٍ، قدر الإمكان، من السباع المستثارة الغاضبة التي يمكن أن تزأر في أيّ لحظة في قنوات التلفزيون، ونركّز، بقدر ما يسعفنا الحظ والمصادفات، على السباع البالغة الشبعى الخاملة نصف النائمة في الظلال، واللبوات البارعات الرشيقات البكماوات في معظم احتمالات يومها الغنيّ النشط المثمر، وكذلك على الأشبال المتشاقية التي لم تعرف، بعدُ، ما هو الزئير وما هي ضرورته، والتي لا تكفّ طوال الوقت عن اللعب والطعام والنوم والفضول. ثم لم تمض أيام معدودات أخرى حتى بدأنا، شيئاً فشيئاً، ننزلق بالزرافة، كأنما بمحض المصادفة، إلى مشاهدة

حيوانات البرّية الأخرى، وحيوات السماء من الطيور والحشرات والهوامّ، ومَخلوقات الأنهار والبحار والمستنقعات.

لقد أظهرت الزرافة، كما تبين لنا بمرور الأيام، اهتماماً لافتاً بكلّ الكائنات التي كنا نقفزها بجهاز التحكّم في السابق. وبرغم تركيزها المتوازن الموزّع بالتساوي على كل ما يجري أمامها على الشاشة، كانت نونا تعرف كيف تلاحظ الفروق الواهية، التي تفوتني دائماً تقريباً، في درجة ميلها إلى هذا الحيوان أو ذاك. وتبعاً لملاحظاتها فإن الزرافة تجد متعة كبيرةً في مراقبة فيلة البحر، خاصة حين تتكوم بشحومها الرجراجة كالتلال الحيّة المتناثرة على الشواطئ، وإن كانت لا تفضّل كثيراً المعارك القاسية التي تدور بين ذكورها في موسم التزاوج، مع أنها تتابعها، بالفضول نفسه، حتى آخر طعنة ناب وآخر قطرة دم. كما يحلو لها كثيراً، من وقت إلى آخر، مشاهدة الفراشات في طيرانها الرهيف المتمهّل الصامت صمتاً مطبقاً بين الأزهار والأوراق والصخور. وتستغرق في إصغائها إلى الطيور المغرّدة الصغيرة إلى درجة أنها، تقول نونا، تصوّب أذنيها إلى الغابات الكثيفة حين ترجّع أمامها جوقة تغاريدها المتنوّعة الآسرة، لكنها، في الوقت نفسه، لا تنفر، بوضوح شديد، من نعيق الغربان ولا من نعيب البوم ولا من نهيم الفيلة أو من نهيق الحمير. وأحياناً تبدي شغفاً خاصاً بالنظام الصارم المتبّع في خلايا النحل، وكذلك بالتماسيح حين تحضن صغارها بين أنيابها وتنقلها من مكان إلى آخر. أما قطعان صيصان البط الساعية بلا كلل وراء أمّاتها المتباطئات، فتتعاطف معها بلا حدود، برغم أنها لا تكره أبداً مكر الثعالب بها، ولا تتردّد بغضّ نظرها في غالب الأحيان عن مكائد أولاد آوى أيضاً. وكلما سنحت

لها الفرصة لا تخفي دهشتها من رشاقة الماعز على منحدرات الجبال الحادة ومن نطاح التيوس على حوافّ الصخور الحادة القريبة من السماء. لكنها لا تفهم كثيراً مشاجرات الديكة التي تنعقد عادةً فوق المزابل بمناسبة ودون مناسبة، فتولي، عندئذٍ، الاهتمام الأكبر للدجاجات المستكينات الصامتات في كدّ مناقيرهنّ المتواصل طوال النهار. وفي بعض الأحيان تذبّل الزرافة عينيها فجأةً، وتسرح سعيدةً جداً في سماءٍ صافيةٍ زرقاء لا أكثر.

وقد تعلّمتُ، من ناحيتي، أن لا أدقق ملاحظات نونا التفصيلية الحارّة، عن ميول الزرافة واهتماماتها، بأسئلتي المنطقية الباردة في بعض الأحيان. لقد استطعتُ، شيئاً فشيئاً، أن أتقبّل الزرافة كما ترويها نونا لي، فأدمجها، ما استطعتُ وعلى مهلي، بالزرافة التي تقدمها لي خبرة مشاعري القديمة بها. لم تكن الزرافة في داخلي تحتاج إلى أيّ تلطيفٍ أو تزويقٍ أو تجميل، ولا طبعاً إلى تمتين أواصرها بي، لكنها، باللمسات التي تراها بها نونا، أصبحتْ تبدو في عينيّ أحنّ، وأرقّ، وأطول بالاً، وأكثر خبرةً وحكمةً في تقدير المشاعر والحوادث والصور. وقد تجلّى ذلك أكثر فأكثر عندما بدأت نونا تمدّد ملاحظاتها، يوماً بعد يوم، على مساحات متنوعة جديدة أخرى من اهتمامات الزرافة. لقد أصبحتْ الآن تستمتع كثيراً بمشاهدة الأغاني والأفلام والمسلسلات، ولا تتضايق أبداً من الدعايات، وتنتبه إلى برامج تعليم المناهج المدرسية لكافة المراحل والصفوف، ولا تملّ من نشرات الأخبار ولا من برامج العمال والفلاحين والمجالس المحلية ورسائل مجلس الشعب، وتهضم، تقريباً بسهولة، النقلَ المباشر الدوريّ للمسيرات الشعبية، العفوية كما يقولون، في ذكرى الهزائم

والانقلابات، وتتحمّل، بشجاعة وتسامح، الأعياد الدينية المتنوعة والشعائرَ المتكررة والخطب الطويلة في أيام الجمع والآحاد، وتتمتع بالصبر الكافي لأن تتابع إلى النهاية المقابلات المملة المتشابهة التي تجري مع الكتّاب والشعراء والممثلين ورؤساء البلديات ومدراء التموين والمجرمين الممسوكين التائبين والعمداء المسؤولين عن جدولة وتصنيف الجنايات الأخلاقية والجنائية وتنظيم المرور في شوارع العاصمة القديمة. ثم صار بإمكاننا أن نترك الزرافة تتفرج وحدها على كلّ هذا العالم المتواصل أمامها طوال الليل، فقد كان واضحاً أنها تستمتع بمشاهدة كل شيء يتحرك أمامها على الشاشة الصغيرة. لكن التلفزيون، مع ذلك، لم يمنعها قط من الالتفات إلينا من وقت إلى آخر، لتتأكّد، كما تظنّ نونا، من أن موعد نومنا لم يحن بعدُ وأنها ستصغي إلى المزيد من هرتماتنا على خلفية البرامج المتعاقبة التي تشاهدها. وكانت أحياناً تطيل التفاتها إلينا، فتفوّت فقرات مهمّة من مسلسل تاريخي عن بطولات الشعب ضد الاستعمار، أو من فيلم كرتون، أو من خطاب قوميّ لرئيس منتخب مدى الحياة، أو من برنامج وثائقيّ عن تاريخ دباغة الجلود وصناعة الأحذية. لكنها، في كل مرة تعود فيها إلى متابعة تلك الصناعات والبطولات والخطابات والأفلام الكرتونية، كانت تبدو كما لو أنها لم تفوّت شيئاً على الإطلاق. وكان ما يشغل نونا، كلما شعرنا بالنعاس، أنها لم تتمكن حتى الآن من تحديد ما إذا كانت الزرافة تشعر مثلنا بالنعاس أيضاً؛ فملامحها لا تشي عادةً بغير الانتباه والفضول الشديد لمعرفة المزيد من البشر والحيوانات والحشرات والطيور والأشجار والقطارات والمعامل والمتاحف والمدارس والحقول والأنهار والبحار والحروب والأفلام

والدعايات والمسلسلات والأغاني وحفلات الأوركسترا والسيرك ونشرات الأخبار. وما كنا، والحال هذه، لنفكّر طبعاً بإطفاء التلفزيون عندما نأوي إلى سريرنا في الغرفة في ساعة متأخرة من الليل. كنا نبقيه شغّالاً حتى الصباح دون أن نعرف متى، وعند أيّ حيوانٍ أو حشرةٍ أو مهرّجٍ أو ملكٍ أو رئيسِ جمهوريةٍ أو قندرةٍ جديدةٍ أو تظاهرةٍ أو هدفٍ في مباراةٍ بكرة القدم غفت الزرافة وانزلقت في دقائق نومها القليل.

الزرافة وأمي

كنّا الآن، أنا والزرافة، ما نزال على سطح حديقة الحيوانات نشاهد بالأبيض والأسود مباراة كرة القدم التي جرتْ في مدريد قبل خمسين عاماً بين إسبانيا والأورغواي. كان القمر ما يزال ينيرنا، والمدافع ما تزال تقصف جيراننا في غوطة دمشق من بساتين الحي الروسي. وكنت قبل خمسة عشر عاماً، من هذه الليلة، قد شاهدتُ مع أمي مباراة أخرى بكرة القدم بين إسبانيا والأورغواي، إنما حيةً وبالألوان وعلى شاشة أكبر بعدّة بوصات. لم تكن أمي من محبي كرة القدم ولا من متابعيها حتى عندما لا تجد ما تفعله، ولا كان نظرها، بسبب استفحال مرض السكّري، يساعدها أصلاً في تمييز شيء محدّد من اللاعبين، فضلاً عن تمييز الكرة والأهداف على الشاشة. وكانت إسبانيا في تلك المباراة ستخرج من المونديال إذا لم تسجّل هدفين نظيفين، و لم تكن قد أدخلتْ أياً منهما عندما سمعتُ عصا أمي تطرطق على الأرض، وقد ظهرتْ يدها على باب الغرفة. كانت أمي في تلك الأيام تهتدي بيدها وتتوكّأ على عصاها. وكما فهمتُ بعدئذٍ فقد جاءت إليّ، في تلك اللحظة الحرجة من عمر المباراة، لتطلب مني أن لا أنسى في سطل النفايات قدمَها التي سيبترونها غداً في مشفى الرازي، وأن عليّ أن أدفنها في اليوم نفسه لكي تُحشر معها يوم القيامة. ما كانت أمي، طبعاً، لتدرك محنة

إسبانيا في ذلك المساء، خاصة أنها لن تقدّر كما ينبغي، حتى ولو تمكّنتُ من شرح ذلك لها في ثانيتين مُستَقطَعَتين من وقت اللعب، معنى أن يتبقّى عشرون دقيقة على نهاية المباراة بالنسبة إلى إسبانيا. لكن أمي فهمت فوراً دون أيّ شروح أنني مندمج جداً بالضجيج الذي أشاهده، فأجّلتْ مفاتحتها لي بموضوع قدمها في يوم الحشر. استلقت بمحض المصادفة على أقرب ديوانة إلى التلفزيون، ثم سندت رأسها تلقائياً إلى الجهة التي تُمكّنها من مشاهدة المباراة إلا إذا أغمضت عينيها ونامت، وهو ما توقّعتُه طبعاً بسبب نظرها المضمحلّ على الأقل. لكنها لم تنم. ظلّت عيناها المفتوحتان طوال الوقت توحيان إلي بالاهتمام البالغ الذي كانت تتابع به ما يجري على الشاشة الملونة أمامها. لم تكن تعرف بالتأكيد أن المباراة، التي يُفترض أنها تهتمّ بأحداثها معي، كانت بين فريقَيْ إسبانيا والأورغواي. ولعلّها لم تكن قبل دخولها الغرفة قد سمعت بوجود إسبانيا كلها لولا ابن عمتي رحمو الذي جمع ذات يوم مجموعاً ضعيفاً في البكالوريا، فأرسله أبوه الجمركيّ إلى إسبانيا ليدرس الطب. كان ذلك بعد خمس وعشرين سنة من نهاية مباراة الأرشيف التي نشاهدها الآن أنا والزرافة، وقبل عشر سنوات من المباراة التي كنت أشاهدها مع أمي قبل خمسة عشر عاماً. ولا بدّ أن مرور كل هذه السنين على سفر رحمو، الذي لم يعد إلى أهله، قد طمر كلّ أثرٍ لإسبانيا في ذاكرة أمي بالكثير مما جدّ في أيامها من المناسبات والمصائب والأشخاص، فما عادت تعني لها شيئاً أبداً عندما استلقت أمام التلفزيون على الديوانة. لكنني فهمتُ منها، في طريقنا إلى مشفى الرازي في صباح اليوم التالي، أنها، في أثناء متابعتها المباراة الساخنة بعينيها العمياوين، كانت

تفكّر أيضاً في الكلاب الضالّة الشمّامة التي لا تشبع مهما أكلت. وقد أرادت أن تلفت نظري إلى ضرورة حجر ثقيل أضعه فوق المكان الذي سأدفن فيه قدمها؛ لأنها لن تستفيد شيئاً من دفنها إذا نبشها كلب ضالّ وأكلها، ولن تعرف، بعدئذٍ، أين ستجدها عندما ستحتاج إليها لتقف بها أمام الله في يوم الحساب. أما الأورغواي فلم ترتبط، لا من بعيد ولا من قريب، بأيّ حدثٍ أو شخصٍ في حياة أمي لكي تكون بالنسبة إليها موجودةً في هذا العالم. كانت تعرف الرقة جيداً لأنها وِلدتْ في الرقة وولَدتنا، نحن أولادها، جميعاً فيها، وتعرف حلب فقط لأن أباها مدفون في حلب، وتعرف اللاذقية وتستطيع، دون أن تزورها، أن تتذكّرها وتشتاق إليها لأن أختي الكبرى تسكن فيها، كما تعرف دمشق لأنها أجرتْ فيها عملية قلب مفتوح، ثم ظلّت تعرفها بعدئذٍ لأنني صرت أعيش فيها. وقد كانت موسكو، قبل دمشق، مكاناً حيوياً لاهتمامها ومعرفتها ومحبتها طوال وجودي هناك. لكنها، في المقابل، لم تكن متأكّدةً من أنها تعرف حمص معرفة واضحة، ولعلها كانت تُشكّك في وجودها؛ لأن معلوماتها الشحيحة جداً عنها لم تُمكّنها من إيجاد أيّ صلةٍ لها بأي فردٍ من أفراد أسرتنا، أو بأي مرض من أمراضها الكثيرة، أو بأمراض أبي على الأقل قبل أن يموت. العراق، مع أنها لم تزره ولم يسافر إليه أحدٌ من ناسها المقرّبين، ظلّ دائماً بالنسبة إليها أوضح بكثير من حمص أو طرطوس أو القامشلي؛ لأن العراق كان يعني لها شيئاً محدّداً شديد الوضوح في حياتها، هو البكاء الذي لا يشبه أي بكاء آخر في الدنيا. وقد بدأ العراق يساعدها على هذا النوع الخاص من البكاء منذ مدة طويلة جداً، منذ الراديو الخشبي الضخم الذي صمده

عمّها، ذات يوم من طفولتها البعيدة، على طاولة فصّلها على قـدّه ووضعه في صدر غرفته الكبيرة، ثم صار يشغّله على العـراق. وقـد استنتجتْ أمي بنفسها، بعد أيام من وجود الراديـو في المنـزل، أنّ العراق، الذي سمعت باسمه من عمّها لأول مرة، إنما كان يعني في واقع الأمر حضيري أبو عزيز. كانت أمي تملـك طبعـاً، قبـل الراديـو الخشبـي، خبرة طويلة نسبياً بالبكاء القديم المعروف المتعلّـق غالبـاً بالمصائب والذنوب الصغيرة والكبيرة، الحقيقية والملفّقة، والمتداولـة عادةً في كثير من الأسر والبيوت. لكنها لم تكن تحبّ هـذا البكـاء العادي، ولا كانت تستسلم له إلا بعد أن تخفق في مغالبته وابتلاعـه مرة واثنتين وثلاث. لم يكن ممتعاً لها أبداً أن تبكي بعـد أو خـلال معاقبتها بالضرب الموجع المتعارف عليه بين الناس أو بحرمانهـا مـن أشياء عزيزة كثياب العيد مثلاً. ولا كانت تلجأ إلى ذلـك البكـاء بسهولة حين يذكّروها بأبيها المدفون في حلب، أو حـين يعيّروهـا بأمها المتزوجةً من رجل آخر في تادف. وقد ظلّت أمي تعرف ذلك النوع الوحيد من البكاء حتى عرّفها راديو عمها الخشبـي إلى البكاء العراقي الذي تعلّقت به منذ المساء الأول. كان بكاءً خالصـاً مـن الأسباب، وبريئاً تماماً من أي غرضٍ أو معنى. ولا تعرف معه كيـف ولماذا تهلّ دموعها الصافية اللذيذة الخافتة. ولا كانت تشعر بعـده، كما يحدث معها غالباً بعد بكائها العادي القديم، بأنهـا مرضوضـة ومنهكة ونعسانة وصوتها مبحوح، بل كانت تشعر بأنهـا خفيفـة ونظيفة ولا تريد أبداً أن تنام، وأنها فوق ذلك لا تكره أحداً أو شيئاً في الدنيا، بل تكاد تحبّ الجميع، حتى زوجة عمها لـولا الشـاي. الشاي. وحده الشاي خسر مكانته لديها بعد تعرّفها إلى حضيري أبو

عزيز، فلم تعد تتصوّره حتى في الصباح مع خبز الصاج الساخن. وقد بدأ ينمو عندها ذلك الموقف غير المسبوق من الشاي، مع سكّرِهِ وكؤوسه المعرّقة الصغيرة وأباريقه وصوانيه وشاربيه وكل ما يتعلق به، منذ أول ليلة للراديو الخشبي في بيت عمها عندما أجبرتْ، من أجل تحضير الشاي، على قطع بكائها العذب المدهش الجديد. ثم تعزّز لديها هذا الموقف العدائيّ أكثر فأكثر تجاه الشاي بعد أن شاع في اليوم التالي خبر الراديو بين الجيران والأصدقاء والمعارف القريبين والبعيدين، وأصبحت عتبة غرفة عمها الكبيرة تطفح، كل مساء، بأحذيتهم وتواسيمهم وكلاشاهم وشحّاطاهم. وكانت زوجة عمّها لا ترى ابنتيها الجالستين إلى جانبها كالعرائس، فلا تكفّ عن رؤيتها، هي بنت العشر سنوات، مقرفصةً إلى جانب ريحانةٍ في فخّارة صغيرة وطاسةِ ماء نحاسية كبيرة في الطاقة القريبة من الباب. طوال الوقت كانت زوجة عمها تقطع لها بكاءَها الجديد العزيز الحارّ الخافت بإبريق الشاي الذي يفرغ دون توقف، وبالكؤوس المشروبة المنثورة بين الأيدي والأقدام والركب، فوق اللبابيد والبسط وعلى حوافّ الطرّاحات، والتي ينبغي لمّها حالاً وتنظيفها وملؤها وتوزيعها من جديد على الضيوف الذين لا يشبعون أبداً من شفط الشاي. لم يتغيّر موقفها طبعاً من الأشياء الأخرى التي كانت تنشغل بها في النهار. لم يطرأ شيء جديد مثلاً على علاقتها بالخبز الذي كانت تخبزه على الصاج في وقت مبكر من الصباح. وكذلك ظل موقفها على حاله من تقديم العلف للدواب التي لا تخلو منها الزريبة، ومن متح الماء من البير، وغسل الأطباق البائتة من عشاء الأمس، وشطف السكّية والفسحة الممتدة أمامها بمحاذاة الغرف، وسقاية الختمية

والورد الجوري، ورشّ شتلات الريحان بالماء قبل استيقاظ عمها. حتى تسكيت ابن عمها الصغير محمود لم يتأثر ببكائها الجديد. كان محمود ولداً لطيفاً دون أن يدري، فلا يستيقظ في الليل إلا نادراً، وإذا استيقظ فلمرة واحدة، ودائماً بعد انتهاء حضيري أبو عزيز. التنغيص الوحيد كان الشاي. لكنّ أمي لم تستسلم له بسهولة. خطر لها بعد أيام قليلة على وجود الراديو، وهي في طريقها إلى المطبخ، أن جحش أخيها، حتى لو كان موجوداً دائماً في الزريبة، لا يستطيع أن يفعل شيئاً لزوجة عمها، على عكس جدتها الخرساء. جدتها الخرساء وحدها القادرة على الوقوف بينها وبين زوجة عمها. فكّرتْ أمي، ثم حطّت من يديها، على حرف شجرة الرمان، صينية الشاي التي تحملها بالإبريق الفارغ والكؤوس الدبقة، وأسرعت إلى غرفة جدتها الخرساء وأيقظتها من نومها. كانت آثار دموعها اللذيذة المقطوعة ما تزال ظاهرةً على وجهها، فضمّتها الجدّة إلى صدرها ظانّةً أنها تبكي بكاءها العاديّ القديم. لم تكن الجدّة على علم بما طرأ على الغرفة الكبيرة، وكانت كعادتها تنام بعد الغروب، فما كان بوسعها أن تلاحظ حتى كثرة ضيوف الليل في الفترة الأخيرة. ولم تعرف أمي، في وقتها الضيّق في تلك اللحظات، كيف تربط لها، بسرعة ووضوح، دموعَها الحلوة الجديدة بحضيري أبو عزيز، خاصة أن صمم الجدة لن يمكّنها من سماعه حتى لو جلست بلزق الراديو. لكنها رجتْها، بأصابعها وملامح وجهها، رجاءً حاراً وسريعاً أن تنهض الآن من فراشها، وتذهب إلى غرفة عمّها الكبيرة. ثم قامت من بين ذراعيها وخرجت. التقطت الصينية التي تركتها على حرف شجرة الرمان، وأسرعت إلى المطبخ.

نادراً جداً ما كانت الجدة الخرساء تأتي إلى الغرفة الكبيرة، حتى طعامها كانت تتناوله وحدها، أو مع أمي إذا وقعت عينـــها عليهـــا بالمصادفة. ولا كانت على علاقةٍ، من أي نوع، مع كنّتها أو مع أي امرأة أخرى من الجيران في الحارة. كان أكثر ظهورها علـــى بـــاب غرفتها في الصباح، تتشمّس على بساط مخطط، تمشط وتجدل شعرها الأسود الكثيف الطويل، تصفن بشجرة الرمان والختميـــة وأنســـاق الريحان وبالحصى الملون المبلل بالماء المفروش في أرض الحـــوش، تهـــزّ برأسها هزّة خفيفة لمن يرمي عليها السلام بيده من بعيـــد، وتبتســـم للجحش الذي يلتفت إليها أحياناً من فوق سياج الزريبة. وفي المساء كانت تظهر في المطبخ. بإشاراتها الدقيقة البكماء كانت تشرف عادةً على كنّتها وحفيداتها في طهو العشاء. وكنّ جميعاً يتابعن وينفّـــذن، دون اعتراض، ما تشير إليه أصابعها البيضاء الطويلة النظيفة الحازمـــة التي كانت تعرف، فوق مهارتها بالطبخ، كيف تدسّ، عند اللـــزوم، بين إشاراتها المعبّرة الرشيقة، التوبيخَ القاسي والســـخرية اللاذعـــة. وكان معروفاً لديهنّ جميعاً أنها لا تستمد سلطتها عليهن مـــن ابنـــها الذي ينشغل بتسوّق الحبوب وضروف السمنة وجـــزّات الصـــوف لتجار البلدة في النهار، ثم باستقبال ضيوفه في الليل. وكانت زوجته، من ناحيتها، لا تشركه عموماً بشؤون البيت، فلا تســـتخدم نفـــوذ مؤخرتها الكبيرة لديه إلا نادراً. أما إذا تعلق الأمر بأمّه فكانت تحرص تماماً على أن لا تشتكي منها أمامه، ليس لأنه سيخذلها بالضرورة، أو لأنه إذا بطش فيمكن أن يبطش بها أيضاً، بل لأنّ في الجدة الخرســـاء نفسها من الخصال ما كان يردعها عن ذلك. نعم كانت تكرههـــا، كما فهم الجميع حتى أمي، ولا تخفي ذلك أمام أحد. لكنها لم تعبّـــر

عن هذه الكراهية أمامها أبداً، بل على العكس، كانت تُبدي لها ما يوحي بالتقدير، وربما الإعجاب، كما لو أنها تنقاد، دون إرادة منها، بسلطة حضورها الصامت الجذّاب القوي. ولعل طول الجدّة اللافت بين النساء، ومشيتها الموزونة برغم تقدمها في السن، ورصانة وخفّة نهوضها وجلوسها، دون أن يصدر منها الأنين المعهود لدى العجائز من عمرها في النهوض والجلوس والمشي والوقوف، وكذلك استغناءها الظاهر عن خدمة أيّ منهن إلا في الضرورة النادرة القصوى، وحرصها على مسافة ملموسة تفصلها عن الصغائر في سلوك هذا وذاك في المنزل، ثم استحمامها اليوميّ، ونظافة ثيابها الدائمة، وطيب الرائحة التي تهب من أذيالها حتى في المطبخ والزريبة، ونظرتها العسلية الصافية الخالية من المشاعر المسبقة تجاه أي شيء يصادفها هنا أو هناك، وأخيراً جمال ملامحها الذي لم تتمكن الأيام والتجاعيد من تبديده حتى الآن، لعل ذلك كلّه كان يُبطل كراهية الكنّة لها ويعطّل نواياها السيئة المُبيّتة في الأوقات النادرة التي كانت تلتقي حماتها فيها.

كان حضيري أبو عزيز يتابع غناءه في غياب أمي حين دخلت الجدّة الخرساء إلى الغرفة الكبيرة. كانت، بطلعتها الرصينة وأناقتها المعهودة، تبدو كما لو أنها لم تكن في ثوب نومها قبل دقائق. نهضت النسوة في وجهها مندهشات، بمن فيهنّ كنتها، ووسّعن لها في الحال المكانَ الأوجه والأقرب إلى الراديو الخشبي. وكان الرجال قد شعروا بالجلبة الخفيفة التي نشبت بين النساء، فالتفتوا إليهنّ، وفوجئوا، بمن فيهم راعي البيت، بوجود الجدة الخرساء غير المألوف في الغرفة الكبيرة، إذ لم يُعرَف عنها السهر ولا مجالسة الضيوف. وهنا

عادت أمي بصينية الشاي المجدّد، فجاء صبّه وتوزيعه في الوقت المناسب، إذ ساعد الجميع في هضم مفاجأة الجدة وتأجيلِ تساؤلاتهم حولها ريثما ينتهي حضيري أبو عزيز. ولعل الجدة فوجئت هي الأخرى بلمّة الناس الكبيرة في الغرفة. لعلّها تكدّرت من قربهم الشديد الخانق الذي لم تحسب حسابه، فشعرت بالنفور من الأنفاس الحارة وروائح العرق العابقة المتدفقة من كل هؤلاء الغرباء المتكدّسين أمامها ومن حولها. ولا بدّ أنها لاحظت، فوق ذلك، أنهم صامتون، كما لا يفعلون عادةً في أثناء احتسائهم الشاي في كلّ مكان، فهل قطعت عليهم حديثاً كانوا سيكملونه لولاها؟ لكنهم يعرفون أنها لا تسمعهم على أيّ حال. ثم إنهم مستغرقون، كلّهم، كأنما بفكرةٍ شائقةٍ مشتركة واحدة، وأنظارهم، إلى ذلك، مصوّبة كلّها إلى صندوق خشبي، لم تره من قبل، مصمودٍ على طاولة في صدر الغرفة. ما كان لها طبعاً، هي المكتفية الراضية غالباً بما تراه وما ترتئيه في الصمت الأليف الكامل الذي تعيش فيه منذ عشرات السنين، أن توحي إلى أحد بحاجتها إلى تفسير ما يجري أمامها. لكنها التفتت إلى أمي فجأةً، وكانت قد عادت إلى طاقتها وقرفصت إلى جانب الريحانة، وأشارت إليها أن تجلس إلى جانبها بين النسوة. وإذ نزلت أمي حالاً من الطاقة وحشرت نفسها بِلزْقها، شالت الجدة يدها، الطويلة الطرية النظيفة الخفيفة، وأحاطتها بها، كما لو أنها ستطرد بدفء جسمها العزيز الصغير الحيرةَ والوحشةَ اللتين بدأت تشعر بهما منذ دخولها الغرفة. لكن أمي سرعان ما خذلتها هي الأخرى دون أن تقصد، إذ ما كادت تستقر في مكانها حتى شعرت الجدة ببكائها الحار الغريب المكتوم إلى جانبها، مع أن أحداً لا يضربها، ولا

يتوعّدها، ولا يزوم عليها من بعيد. ثم زاد من حيرة الجدة الخرساء ووحشتها، على الأغلب، أن وجه أمي الباكي كان خالياً تماماً من التظلّم والشكوى، فقد كانت تذرف دموعها بهناءة غامضة، كما لو أنها لا تحتاج إلى مواساتها، ولا حتى إلى يدها الحانية التي تحيط بها الآن. ولعل الجدة عندئذٍ قد شعرت فعلاً بعبء يدها على كتفي أمي النحيلتين، فلم تعرف كيف تريحها منها وكيف ترتاح، هي نفسها، من حاجتها الملحّة الآن إلى دفء عزيزٍ صغيرٍ إلى جانبها لم يعد يخصّها فجأةً. وربما تمكّنت الجدة من إنشاء علاقة واهية شديدة الغموض بين دموع حفيدتها السعيدة وبين الصندوق الخشبي المصمود الذي لا تحوّل عنه عينيها كما يفعل الجميع. غير أنها، في ذلك الضيق والارتباك، ما كانت لتصل إلى أبعد من ذلك. لقد كان من المستبعد جداً أن تستوعب الفكرة الشائقة التي تجمع أمي بكل هؤلاء الآخرين الجالسين المشغولين عن الكلام حتى الآن، وقد امتلأت وجوههم، فوق ذلك، بصفاءٍ وشفقةٍ ما لاحظتهما من قبل في وجه أيّ منهم. لقد كانوا، كلّهم، بمن فيهم أمي، شركاء من دونها بسعادة منيعة صارخة. دائماً عاشت الجدة في وحدةٍ متماسكة، من صنع يديها، بعيدةٍ عن أنظار الآخرين وأصابعهم. وحدة مليئة بأمشاطها القديمة، وثيابها النظيفة التي لا تهترئ، وذكرياتها التي عدّلتْها دائماً تبعاً لحاجات أيامها، وأفكارها القليلة التي تختصر لها عادةً الناسَ والحيوانات والحشرات والأشياء التي تراها في المنزل من مسافةٍ كافيةٍ في أغلب الأحيان. لكنها الآن، بين كل هؤلاء الناس الغافلين عنها، كانت في وحدةٍ ما خَبِرَتْها. وحدة موحشة قاسية حوّلتها، ببساطةٍ وفظاظة، إلى امرأة زائدة عليهم جميعاً. حتى أمي لم تعد تحتاجها، أمي

التي ظنت الجدة دائماً أنها الكائن الوحيد الذي لن يستغني عنها بأي حال، تلك المخوّلة دون غيرها بالدخول متى شــاءت إلى ســكينتها الخاصة المستقرة من حولها منذ سنين. نظرت الجدة الخرساء الآن إلى أمي الممعنة بسعادة بكائها المنيع كما تنظر إلى جاحــدة صــغيرة. ثم نظرت إلى يدها التي كانت ما تزال تحيط بها كما لــو عبثــاً ودون سبب، ولم تعرف متى سترفعها عنها لتعود إلى غرفتها دون تــأخير. لولا أمي، التي سحبتها من فراشها، لكانت حتماً غارقــةً في ســابع نومها، ولما همّتها، كما تفعل الآن، سعادةٌ غريبة تراها ولا تشعر بها، بل لا تفهمها ولا تعرف مناسبتها، ثم لا ينوبها منها ســوى روائــح الأنفاس النتنة والعرق والفساء.

وكانت خطة أمي قد نجحت طبعاً، إذ سرعان ما فرغ إبريــق الشاي، وكان عليها كما جرت العادة أن تجدّده، لكنّها الآن لبثــت مطمئنةً في مكانها كما لو أن الأمر لا يعنيها. لم تجرؤ زوجة عمهــا، بحضور الجدة، أن تقطع لها بكاءها الحلو مرةً ثانيةً بالشاي، فوجدت نفسها مرغمةً لأن تطلب من إحدى بناتها أن تجدّده، وكان عليهــا، إذا دعت الحاجة إليه من جديد، أن تشغل به ابنتها الثانيــة أيضــاً. وكانت أمي واثقة بذهاب الضيوف قبل أن يأتي دورها على الشاي مرة أخرى، فشبعت في تلك الليلة من البكــاء اللذيــذ إلى جانــب جدتها. وقد تبيّن لها، في نهاية حضيري أبو عزيز، أن عــيني زوجــة عمها جميلتان، وأنها ليست سمينة جداً كمــا يقولــون، وأن النــاس يظلمونها حين يدّعون أنها قاسية معها، مع أنها مثل أمهــا، ولكــي تُحسن الأم تربية ابنتها يجب أن تقسو عليها، لأن أمــي لــن تخلّــد عندها، بل سوف تتزوج أبــي الذي سيأتي من حلب عندما سينمو

لها ثديان كبيران، وسوف تلدنا جميعاً أنا وإخوتي، ويجب أن تتعلّم من زوجة عمها منذ الآن كيف تطبخ وكيف تجلو الأطباق، وكيف تغسل الملابس وكيف تسكّت الأولاد، وكيف تشعل الحطب في الموقد وفي الوجاق وتحت صاج الخبز. ثم إن الشغل لا يهمها أصلاً، وإذا شاءت زوجة عمها فسوف تُخرج الآن، وحدها، كل البسط واللبابيد والطرّاحات لتنفضها من الغبار في أرض الحوش، وتشطف الغرفة من آثار أحذية الضيوف ورماد سجائرهم وبصاقهم، وتغسل، لماذا لا تغسل أيضاً، البابَ والنوافذ وسجاجيد الجدران المليئة بالغزلان والأشجار وينابيع المياه المصفرّة من تعشيش الغبار ودخان السجائر. كانت سعادة أمي قوية، عندئذٍ، إلى درجة أن ابنة عمها الكبرى لم تعد في نظرها تشبه ساكو بائع الدجاج، ولا تفوح من أختها الصغرى أبداً رائحة الماعز، كما كانت تُشيع عنهما في أحلام يقظتها القليلة بين البنات الصغيرات في الحارة. وعندما تهيّأت للنوم في تلك الليلة تحقّقت أمي من جفاف خرقة محمود بين فخذيه الصغيرتين إلى جانبها في الفراش، ثم وضعت رأسها على المخدة، وتذكّرت أخطاءها الكثيرة التي لا تغتفر، وظلّت تضيف إليها ذنوباً جديدة لم ترتكبها، حتى أخذها النوم وهي تشعر بتقصيرٍ عذبٍ تجاه الجميع.

في الصباح الباكر من اليوم التالي لمحتْها جدهّا الخرساء، فنادتها بيدها وأعطتها كمشةً من الْلَبْلبي، فجلست تتشمّس إلى جانبها على بساطها المخطّط، وهي تقرط القضامة بالسكّر، وتفكر في حلاوة المساء القادم كما بعيدٍ مسبوت. كان المساء بعيداً جداً عليها، لكنها استطاعت طوال النهار أن تتجنّب كل الملاحظات التي يمكن أن تأخذها عليها زوجة عمها. كانت تعرف كيف ترضيها بعملها

المتقن في المنزل، دون أن تضطرّها إلى استخدام لسانها السليط، بـل صارت، فوق أعمالها اليومية المعتادة، تتخيّل وتنفّذ مهامّ جديدة تبعاً لحركة عينيها وأنصاف كلماتها التي ظلّت ترنّ في أذنيها من وقت إلى آخر. وإذ حلّ المساء أخيراً كان جمر أمي مُعَدّاً سـلفاً في المطـبخ، وإبريق الشاي مملوءاً بالماء والسكّر، وأرتال الكؤوس النظيفة مصطفة في الصينية الكبيرة، والعشبة تنتظر في علبة صغيرة مفتوحـة. لكـنّ الضيوف، مع أنهم أناس طيبون، تأخروا كثيراً في رأي أمي، و لم يأتوا دفعةً واحدة كما أرادت، فاضطرت إلى انتظارهم في طاقتها واحـداً إثر واحدٍ حتى وصلوا جميعاً. وعلى عكس توقعها، عندئذٍ، لم يشعل عمها الراديو مباشرةً مع أنه جالس بقربه، بل صار بدلاً مـن ذلـك يرحّب فترةً طويلة بالضيوف، ويزحلق فوق البُسط واللّبابيد علبةَ تبغه المعدنية من واحد إلى واحد إلى واحد. وعندما مدّ يـده أخـيراً إلى الراديو لم تفهم أمي لماذا بدأ رجل عجوز يسعل بقوة، وكانت طاسة الماء الكبيرة إلى جانبها في الطاقة، فهبّت بها إليه لكي يسكت قبل أن يشتعل النور الصغير في قلب الراديو. سلّمته الطاسة، فظلّ يشـرب منها مدة طويلة جداً، كما لو أنه لم يشرب في حياتـه أبـداً، ثم لم يعدها إليها إلا عندما اشتعل النور في قلب الراديو. ارتعشت كفّاهـا الصغيرتان حول الطاسة الباردة الثقيلة في الحال، وكان يمكن لصوت حضيري أبو عزيز أن يملأ الغرفة الصامتة في أي لحظة، فتفلت الطاسة من يديها في حضن أحد الضيوف. لكنّ حضيري أبو عزيز انتظرهـا حتى قطعت المسافة المضنية إلى طاقتها ووضعت الطاسة إلى جانبـها بسلام، ثم بدأ يملأ روحها بصوته. وسرعان ما جاءها بكاؤها اللذيذ الخافت المنتظر. وكذلك لم تتأخر، إلا بضع دقائق أخـرى، إشـارة

زوجة عمها المعتادة إلى الشاي، لكنّ أمي لم تفاجأ كثيراً بها هذه المرة؛ إذ لا بد في نهاية الأمر من عمل الشاي للضيوف. فزّت من مكانها في الحال، وقد هوّن من إحساسها بالخسارة اطمئنانُها إلى أنها لن تضطرّ إلى تحضير الشاي مرةً أخرى. ثم إنّ زوجة عمها لن تعفيها في كل الأحوال من المرة الأولى بتحضيره، حتى ولو حتّمتْ على جدتها الخرساء أن تبقى في الغرفة الكبيرة في الليل والنهار. خرجت إلى أرض الحوش. وكان صوت حضيري يتبعها من بعيد، فلم تشعر بهواء الليل البارد، ثم ظلّ يتبعها وينعش دموعها السعيدة في خطواتها المتدفقة إلى غرفة جدتها الخرساء لتوقظها وترسلها إلى الغرفة الكبيرة كما فعلت بالأمس، وكما ستفعل معها دائماً في مثل هذا الميعاد من كل ليلة. غير أن صوت حضيري أبو عزيز انقطع في قلبها فجأةً ما إن مدّت يدها إلى الباب لتدخل على جدتها. وفي لمحة بصر انقلب بكاؤها الحلو السعيد إلى بكائها العادي القديم الذي تكرهه. لقد أدركت في تلك اللحظة أن باب جدتها، كما لم يكن أبداً، مقفل من الداخل بإحكام. وكما لو أن جدتها الخرساء الصمّاء سوف تسمعها فعلاً إذا حطّمت قبضتيها على الباب انهالت عليه تدقّه، بكل قواها، بيديها وقدميها وركبتيها. ثم تعبت من الدقّ دون جدوى، فتكوّمت على الأرض أمام الباب تنتحب نحيباً مريراً بصوتٍ قويّ مبحوحٍ شاكٍ وعاجز. كان القمر يضيئها، وجحش أخيها في الزريبة ينظر إليها من وراء السياج. دائماً كان جحش أخيها وجدتها الخرساء الشخصين الوحيدين اللذين تفصح لهما عن كلّ خصوماتها ومصالحاتها غير المعلنة مع الناس والحيوانات والأشياء في حياتها. وقد اعتقدت دائماً أنهما يثقان بها ويفهمان عليها ولا يُحيجانها إلى كثير من الكلمات في

شرح مشاعرها تجاه هذا الشيء أو ذلك الشخص. لكنها الآن لم تلتفت إلى سياج الزريبة لترى جحش أخيها تحت ضوء القمر. نهضت تشهق بالبكاء أمام باب الجدة المقفل، وقد زاد من مرارتها أنها الآن ستعمل الشاي برغم كل شيء، وستظلّ تعمله طوال الليل لبقرة عمها التي لا تفوت بأكبر باب، ولابنتها الكبرى- ساكو بائع الدجاج، وعنزتها النتنة الصغرى، ولكل الآخرين الذين جاؤوا من آخر الدنيا لكي يشفطوا الشاي عندنا. وفي طريقها الطويل إلى المطبخ كان نحيبها المُذلّ يتفاقم إلى درجة أنها لم تعد قادرة على إيقافه، ولا حتى على التقاط أنفاسها. ثم خُيّل إليها في المطبخ أن الأشياء من حولها صارت تدور، وأن قدميها لم تعودا قادرتين على حملها، وقد ضاعف من حاجتها الملحّة إلى الهواء شعورُها المفاجئ الشديد بأنها بدأت تختنق فعلاً. لكنها لم تعرف كيف تكفّ عن البكاء لتتنفّس، فلمحت إبريق الشاي. وكما لو في منام بشع من مناماتها أمسكت به، رمت غطاءه، ثم شمرت ثوبها وقرفصت فوقه، فتوقفت فجأةً عن البكاء مع أول دفقةٍ من بولها في الإبريق. عندئذٍ فقط شعرت بالهواء يسري في عروقها، وبراحةٍ عميقة لم تستطع معها أن تتحكّم في مثانتها المحتقنة قبل أن تفرغ من آخر قطرة فيها. نهضت أخيراً خفيفةً كالريشة، وبحركة لا إرادية شالت الإبريق، الطافح الآن بمزيج من الماء والسكّر والبول، أفرغت منه قليلاً فوق أرض المطبخ، ووضعته فوق الجمر الذي كانت قد هيّأته قبل مجيء الضيوف. ثم جلست على حجر قريب، جففت بِردْنيها دموعها القديمة الباردة الآن على وجهها، وانتظرت حتى غلى الإبريق. لقّمته بعشبة الشاي من العلبة المفتوحة، وتركته يفور على الجمر قليلاً، ثم نقلته إلى الصينية. وعندما

أرادات أن تمضي به إلى الغرفة الكبيرة، كما لو أن شيئاً خارجاً عن المألوف لم يحدث، أضاء لها القمر من جديد جحشَ أخيها في الزريبة، فلمحته هذه المرة، وتسمّرت في مكانها مثل ممسوكةٍ بعملٍ مشين. كان الجحش ينظر إليها، ولا بدّ أنه رأى وفهم كل شيء. وكان واضحاً، بالنسبة إليها، أنه لم يكن راضياً أبداً عمّا حدث. لم تكن في فمها كلمة واحدة تقولها له، فالجحش، في كل المرات التي يأتي بها من السفر مع أخيها في البريّة، كان يرى ويسمع كل ما يجري في المنزل من وراء سياج الزريبة. وفي غالب الأحيان كان يقف في صفّها، وإن كان لا يهجم بسببها على أحد، فلا تذكر أمي أنه عفس من أجلها في قلب زوجة عمها على سبيل المثال، مع أنه أقوى منها بكثير. كان عادةً يكتفي بذيله، يرفعه فجأةً إلى الأعلى ثم يضرب به مؤخرته السوداء بقوة، فتفهم أمي أنها على حق وأن غيرها على باطل وأنه حانق جداً من أجلها. وإذا اقتربت منه في أثناء ذلك كان يحني لها رأسه، ويضع براطيمه في كفّها الصغيرة ويدفئها بزفيره الحار. وكان قد لاحظ، لا بدّ، ضيق أمي من الشاي في الفترة الأخيرة، ولعلّه قد تمكّن أيضاً من إعادة ذلك الضيق إلى الصندوق الكبير الذي رآه بين يدي عمّها قبل أيام، وإلى تكاثر ضيوف المساء. لكنه بدا الآن لأمي كأنه لا يريد أن يفهم أن ما فعلته بالشاي قبل قليل إنما كان من أجل أن تتنفّس لا أكثر. ثم تذكّرت نفسها في عينيه وأدركت أنها كانت أجمل، بما لا يقاس، من صورها القبيحة التي يراها في هذه اللحظات. وكانت لا تريد، ولا تستطيع، أن تخسره من صفّها، لكنها، بعد حضيري أبو عزيز، ما عادت تقبل أيضاً أن يخنقوها بالشاي وحدها طوال الليل. تابعت طريقها فجأةً إلى الغرفة

الكبيرة، وهي لا تستوعب، ولا تريد أن تستوعب من الآن فصاعداً، أنها لا تكون جميلةً في عيني الجحش إلا حين يعتدون عليها وتسكت. ما عادت تطيق أن تكون جميلة في عينيه بهذه الطريقة فقط. ثم بدت، بخطواتها المسرعات الحازمات، كأنها لن تسكت على شيء بعد الآن. غير أنها سرعان ما تريّثت عند باب غرفة عمها الكبيرة، وخشيت أن تكون قد سقطت فعلاً من عيني الجحش. بدأت أرتال الكؤوس الزجاجية الرقيقة ترتعش في صينيتها، فودّت، كأنما، لو تعود في الحال إلى المطبخ لتغيّر الشاي اللعين بشاي جديد. لكن زوجة عمها تستبطئها الآن حتماً، ولن تمهلها من الوقت أكثر من ذلك، وقد تخرج في أي لحظة لتتفقّدها وتبهدلها، ففتحت أمي الباب أخيراً ودخلت.

كان حضيري أبو عزيز ما يزال يغني في الغرفة. وفي الحال ميّزت أمي أن الصوت الذي تسمعه الآن لم يكن ذلك الصوت الذي خرج معها إلى أرض الحوش وتبعها إلى غرفة جدها، فلم تجرؤ على الالتفات ناحية الراديو. كأن حضيري أبو عزيز كان معها في المطبخ. وكان جحش أخيها ما يزال في بالها ينظر إليها حتى الآن. ثم في طريقها المتعرجة إلى البقعة الشاغرة في وسط الغرفة وقعت عيناها على الغزلان المصفرّة من تعشيش الدخان والغبار في سجادة الحائط المقابل، وشعرت بأنها تعرف هي الأخرى ما حدث هناك، وأنها هي أيضاً تلومها بعيونها القطنية المغبرة السوداء. حتى الغزال الصغير، الذي لا يرفع رأسه عادةً عن نبع الماء المعتم الكالح، كان الآن لا يشرب في واقع الأمر، إنما ينظر إليها بطرف عينه. وضعت الصينية في وسط الغرفة وقرفصتْ إلى جانبها. وكان عليها أن تشرع فوراً بسكب

الشاي في الكؤوس مادام حاراً في الإبريق. ظلّت جامدة في مكانها، وقد بدأت تشعر أن كل شيء في الغرفة قد أصبح ينظر إليها. وحدهم الذين سيشربون الشاي كانوا لا ينظرون إليها. لو كانوا شعروا، كما شعرت غزالات الحائط، بما تغيّر في صوت حضيري مثلاً، لما ظلوا حتماً ينظرون حتى الآن إلى الراديو، بل إليها. الراديو نفسه، توقعت أمي دون أن تلتفت إليه، كان يحملق بها بمفتاحيه المدوّرين ولا يُصدّق ما ستفعله الآن. وكان الشاي، إلى جوارها، لا يكفّ عن نشر رائحته الفضّاحة في الغرفة، كأي شاي حقيقيّ حار.

- صبّي التشاي!

جاءها صوت زوجة عمها آمراً بارداً ولاسعاً من مكان لم تستطع تحديده في الغرفة. كان لا بدّ من صبّ التشاي. لا بدّ. بحثت بعينيها عن زوجة عمها في الغرفة فوجدتها وراءها. لم تكن الآن تنظر إليها، فقد عادت، بعد أمرها بصبّ التشاي، تصغي إلى حضيري أبو عزيز الذي كان ما يزال يغيّر صوته بسبب أمي. لم يكن لدى أمي ما تقوله لزوجة عمها، ولا كانت تعرف ماذا تريد منها بالضبط حين بحثت عنها بعينيها ووجدتها. لعلها فهمت، بالغريزة، أن أحداً غيرها لن يجد لها الآن مخرجاً من ورطتها، فهي التي تأمر، وحدها في المنزل، وتكيد وتعاقب وتكافئ وتعفو. ولا بدّ أن زوجة عمها قد شعرت، في تلك اللحظة، بوجه أمي الأحمر المذنب المتوسّل المختنق المنتظِر المسلَّط عليها، فلم تكرّر أمرها بصبّ التشاي، بل سدّت كلّ بصيص أمل ممكن في وجهها، وتابعت نظرها البارد الصلب إلى الراديو. وكان مفهوماً لأمي أنها أمهلتها بضع ثوانٍ أخرى فقط لتصبّ التشاي، فالتفتت يائسةً إلى صينيتها، أمسكت بالإبريق، وبدأت

تصبّ. كان عمها، في هذه الأثناء، قد عاد يزحلق للضيوف علبة تبغه المعدنية على البسط واللّبابيد، فيما عبّر بعض الرجال عن بهجتهم بالشاي القريب بنحنحات وسعلات قصيرة وتنهيدات طويلة من الأعماق، دون أن يفلتوا الراديو الخشبي من ملاحظتهم المتواصلة. امتلأت أرتال الكؤوس في صينية أمي بسرعة كبيرة، وإذ أمسكت بطرفيها ونهضت بها مالت إليها فجأةً، فتدافعت الكؤوس على سطحها وزحفت كتلةً واحدةً إلى جهتها، وكادت تنكبّ بشايها الحارق كلّه على لحم صدرها الغضّ لولا محمود الصغير- بكى، في الوقت الضروري المناسب، مرعوباً ومستغيثاً في الغرفة الثانية، فأبعدت أمي الصينيّة عنها في اللحظة الأخيرة، ورمت بها إلى الأرض بكل ما عليها وخرجت مسرعةً إليه.

منذ تلك الليلة تصالحت أمي مع الشاي. ستظل جدتها الخرساء تعطيها كمشات اللّبلبي في الصباح، وسوف تظل تتشمّس إلى جانبها على بساطها المخطط، ولن تُحيجها، بعد الآن، إلى قفل غرفتها في الليل؛ لأنها لن تتخلى عنها مهما نامت بعد الغروب. وجحش أخيها سيظل في صفّها أيضاً؛ لأنها لن تكون إلا جميلة في عينيه. لن تنتظر منه، وهو لن يفعل على أي حال، أن يعفس من أجلها في قلب أحد من الناس مهما فعلوا بها. لكنه سوف يظلّ، كرمى لها، يرفع ذيله إلى أعلى ما يستطيع، ثم يهوي به بقوة على مؤخرته السوداء، وهذا ليس بالقليل بالنسبة إلى أمي لأنها ستظل تعرف، من وقت إلى آخر، أنها على حق، وأنها على حق، وأنها على حق، حتى لا تعود تفكّر في الحق ولا في الباطل. كان المهم بالنسبة إليها أن يبقى صوتُ حضيري أبو عزيز كما هو دون تغيير. المهم أن

لا يتركها بكاؤها الحلو الجديد مهما قطّعته زوجة عمها بالشاي بلا رحمة. سوف تنتظره منذ الصباح. ستحاول، ما أمكنها في النهار، أن لا ينغّص عليها انتظارَه ما تفعله بها الأبقار والماعز وبائعو الدجاج في المنزل. سيساعدها ذيل الجحش العزيز في تحمّلهم وفي تحسين صورهم في عينيها حتى إذا قدم الليل والضيوف كان بإمكانها أن تبكي بكاءها اللذيذ المُقطّع الخالص، دون أن تفكّر فيهم أو في غيرهم من الأشياء. بكاؤها العراقي الجديد فارغ على كل حال من كل شيء. حتى الكلمات، التي لا يمكن مَسْكُها باليد ولا وزنُها بالميزان، لا تجعل بكاءها أحلى مهما كانت حلوةً ومهما راحت وجاءت من حولها في الهواء. لم تكن أمي تحتاج إلى أن تفهم، أو تتابع، أو تلتفت إلى الكلمات المتشابهة المتّصلة مثل خيط رفيع في صوت حضيري أبو عزيز. تلك الكلمات التي تتكرر غالباً في كل أغنياته، وتشير أصلاً إلى حوادث غريبة عنها ما خبرتها ولا عاشتها في حياتها اليومية حتى ذلك الحين. لم يحدث، مثلاً، في تلك الأيام البعيدة أن تعلّقتْ أمي تعلّقاً شديداً بشخصٍ أو شيء، ثم فارقها هذا الشخص أو هذا الشيء لكي تنتظر عودته إليها بمثل ذلك الشغف، وترسل إليه مع الطيور سلاماتها الملتاعة بمثل تلك الحرقة التي كان حضيري ينوح بها. لم تكن متأكّدة أبداً، ولا كان يهمها أن تتأكّد، مما إذا كانت مجروحةً، كما تقول بعض الكلمات، جرحاً عميقاً لم يُطيّبه لقمان الذي لم تعرف أصلاً من يكون، ولم تشعر قط بضرورة أن تعرف من يكون. لكنها، في الأغنية المتدفّقة آنذاك من الراديو الخشبي أمام عينيها الدامعتين، كانت تندمج بعجز لقمان عن تطبيب الجراح كشيء لا وجود له بالنسبة إليها، ولكنْ لا بدّ منه لحضيري أبو عزيز لكي يغنّي. إن

صوته، كما ثبت لها، لا يمكن أن يصل إليها وحده، بل يحتاج دائماً إلى طيور لم ترها في حياتها تحمل الرسائل والسلامات، وإلى مرارة صبر لم تذقها، وإلى جراح لم تنجرحها، وإلى عاذلين لا تعرف ماذا يعنون، وإلى سفنٍ لم تركبها تبتعد بأحبة مخلصين ما شعرت بهم في يوم من الأيام. ولا بدّ أن بكاءها العراقي الجديد ما كان، من ناحية أخرى، ليصبح أكثر صفاءً وحلاوة لو اضطر صوت حضيري ذات يوم إلى استخدام حبال الغسيل التي تنشر عليها الملابس، والبير الذي تمتح منه الماء، والوجاق الذي تشعله، وقن الدجاج الذي تقلي وتسلق منه البيض، وغير ذلك من الكلمات المألوفة الأخرى التي عرفتْها وخبرتْها في أرض الحوش والمطبخ والزريبة وعلى سطح الدار. ما كان يفتن أمي، كحالها دائماً حتى عندما وجدتُها أمّي في بيتنا، ليس قول الكلمات أياً كانت. دائماً كانت تجد كلمات كثيرة من حولها، ودائماً كانت هذه الكلمات ليست لها، تخذلها كلما مدّت إليها يدها، فتكون أضيق بكثير، أو أوسع بكثير مما تشعر به، خاصة إذا اضطرت إلى استعمالها أمام الآخرين. أما إذا ضاقت الدنيا على روحها، وكان لا بدّ لها من الفضفضة عن نفسها ببعض الكلمات الحارّات الركيكات السريعات المبتورات، فكانت تقولها دفعةً واحدةً لجدتها الخرساء أو لجحش أخيها وللدجاج أحياناً وقدور المطبخ وريحانة الفخارة في الطاقة ومحمود الصغير ولنا بعدئذٍ نحن أولادها، قبل أن نكبر، ولأبي عندما يكون نائماً وكذلك لقبر أخي الصغير محيو في زياراتها الخاطفة التي لم تنقطع إلى جبانة أويس القرني. دائماً كانت تستصعب تركيب الكلمات على نواياها المألوفة والواضحة بالنسبة إليها فقط، و لم تكن، لا من قبل ولا من بعد، قد تعلّمتْ

كيف تجعلها كلماتها هي، لتخرج من فمها على قدّ ما تحسّه وتريد قوله. وفي أغلب الأحيان كانت تترك الكلمات وشأنها حيث تجدها، وتذهب لتمشّط شعر أختي في بيتنا، أو تفلّي رأس جدتها الخرساء في شمس الصباح أمام غرفتها في بيت عمها، أو تنشر غسيلنا أو غسيلهم قبله بسنوات كثيرة، أو تحفر الباذنجان عندنا، أو تجلي الأطباق عندهم، أو تبكي بكاءً عادياً قديماً لا تحبّه عندنا وعندهم، أو حتى تؤذيهم بالسمن العربي، مثلاً تدهن به مخداتهم وفرشهم وشراشفهم النظيفة، وتعضّنا نحن أولادها من أكتافنا ومؤخراتنا وبطات أرجلنا الصغيرة، ثم تعرق ويحمرّ وجهها كلما لاحظتْ آثار أسنانها الزرقاء على لحمنا كالساعات. لقد احتجتُ دائماً إلى ملء فراغات كثيرة بين كلماتها المستعارة القليلة التي تضطرّ إليها، في كل المرات التي استدرجتُها للحديث عن نفسها، خاصة في سنوات مرضها. لقد كان علينا، أنا وهي، أن نبقى معاً في غرفة واحدة فترات طويلة، متنقلَيْن من مشفى إلى مشفى، ومن مدينة إلى أخرى. وكان يساعدني، في ملء تلك الفراغات الخرساء، وجهُها الواضح بالمشاعر والمواقف والإشارات، وكذلك الأشياءُ التي تسترعي انتباهها من حولها أو عبر النافذة، والطريقةُ التي تستقرّ بها يداها في حضنها أو على مسند مقعد، أو حين تمسّد بهما، على سطح مخدّةٍ أو غطاءِ طاولة، فكرةً ممضّةً لا تتركها، أو إحساساً مباغتاً بالسعادة لا تتركه. لكنّ خبرة حواسّي بها كانت دائماً أكثر ما يسعفني في تظهير أسئلتها الملجومة ونواياها المتعثرة ورغباتها الخامدة في ظلال صموتها المتكرّرة الطويلة. كأنني في كل مرة كنت أبنيها على هواي، فتلتبس الحدود عليّ بين أمي التي تعيش في الواقع وبين أمي التي تعيش في داخلي. لكنّ

كلماتها القليلة المترددة المباشرة كانت في الواقع دليلي دائماً إلى صورها التي أكوّنها أو أكتشفها في داخلي، ولذلك ما تخلّيت عنها قط. ولا فترت همتي، طوال وجودي بقربها، باستدراجنا معاً إلى الانشغال بحوادث أيامها الماضيات. وفي كثير من الأحيان كانت تعيد عليّ، بتشجيعٍ وإلحاحٍ مني، الحادثة مرات عديدة، ودائماً عبر ريبتها بكلماتها التي يمكن أن تخونها في أيّ لحظة. وكنت في كل مرة أحصل في فراغات الحادثة نفسها على هواجس جديدة من هواجسها المتراكمة القديمة، وذكريات مقطّعة، ونوايا لا رابط بينها ولا سياق، وأشياء غامضة أخرى مغبّرة ومبعثرة بلا هدف هنا وهناك ما تزال تحتفظ بها نابضة حتى الآن.. انطباعات مشوّشة.. مشاعر مبتورة.. مهملات محبطة لم تكتمل في حينها.. ظلال أطفال يلعبون عند المغرب، قادوسان مليئان بالماء على ظهر الجحش أمام باب بيت عمها المغلق، من الباب نفسه يخرج ظهرُ أمها دائماً ولا يعود، أبوها يحمل فراشاً محزوماً على رأسه وهي تجلس صغيرةً فوق الفراش في زابوق معتم طويل تحت سماء سوداء مليئة بالنجوم، ملابس جديدة تصرّ بها حجراً ثقيلاً ثم تغرقها في البير، نعجة تسقط في البير، عمها يدلدل أباها في البير، ينقطع الحبل، ملابس أخرى، لابن عمها حمّادي الذي غرق في النهر، نصف مبللة على حرف شجرة الرمان، حريق فاشل في المطبخ برغم عود الغَرَب الذي أشعلته بنفسها تحت حملٍ كبير من جذول الطَرْفة، ملابس ثالثة اشتراها أبي ونسيها في السيارة التي جاءت به من حلب، أنا الصغير في الصف الأول الابتدائي، عائداً من مدرسة سيف الدولة الريفية في يوم قائظ، أنام في ظل حائط في الدربة الطويلة المؤدية إلى بيتنا، يراني حسن البريوه،

المنادي على الأشياء الضائعة في البلدة، لا يوقظني، بل نائماً يحملني إليها مع محفظتي المدرسية، أنصاف أسئلة بالقرب مني حول ظهر أمها الذي يظل يخرج من باب بيت عمّها حتى في مركز جراحة القلب بدمشق بعد أكثر من ستين عاماً، حِنّة لم تستخدمها حتى الآن، بيلون مكسّر، ردود قوية لم تقلها لأبي، مشاوير لم تذهبها إلى برّية خضراء ما داستها من قبل، مليئة بالخبيزة التي تحبها بالزيت والبصل، وميت عزيز كانت تودّ لو تبكيه قبل دفنه، لكنْ حال دون ذلك أنها كانت طفلةً لا يُعتَبُ عليها، أو لأن أبي أرسل لها خضار طبخة لأشخاص كثيرين كان عليها أن تعدّها لهم على العشاء، أو لأنها لم تعد حرةً في حركتها بعد ذبول أصابع قدمها واسودادها..

- هدف!

قالت أمي بصوت ضعيف، وقد التفتت برأسها نحوي فجأةً.

كان هدفاً إسبانياً ملعوباً في شباك مرمى الأورغواي، لكنه لم يكن أحد الهدفين المنشودين الضروريين لإسبانيا في المباراة الحاسمة التي كنا نتابعها أنا وأمي قبل خمسة عشر عاماً- لقد كان هدفاً، بالأبيض والأسود، في مباراة الأرشيف التي حصلت بين الفريقين قبل خمسين عاماً في مدريد، والتي ما نزال نشاهدها الآن أنا والزرافة على سطح حديقة الحيوانات في الحي الروسي بدمشق.

- هدف!

أكّدت أمي رؤيتها، بينما كانت إسبانيا تفقد عملياً أملها بالاستمرار بالمونديال في الدقائق الأخيرة من المباراة.

وكانت الزرافة الآن قد التفتت نحوي برأسها هي الأخرى، بعد هدف الأرشيف. وخيّل إلي، في تلك اللحظة، أنها تنظر إليّ بعيني

أمي، وأنها سعيدة، مثل أمي تماماً قبل خمس عشرة سنة، بأنها صارت تهتم بكرة القدم من أجلي، وأنها تستطيع في نهاية الأمر أن تفاتحني بموضوع قدمها في يوم الحشر غداً في السيارة التي ستقلّنا إلى مشفى الرازي، ثم في المشفى نفسه عندما ستدخل علينا ممرضتان لتجرّداها من ألبستها، وتلبّساها صدرية خضراء بلا أزرار وتجعلاها تستلقي على حمّالة ذات عجلات صغيرة. ثم عندما سيأتي رجلان ليخرجاها من الغرفة إلى الكوريدور الطويل سيكون عندها الوقت الطويل الكافي أيضاً لأن تُفهّمني على مهلها، وأنا أمشي إلى جوار حمّالتها في الكوريدور، أنها تريد، فوق كل الأشياء التي كنت ذكرتُها، أن أدفن قدمها، التي سيبترونها بعد قليل، في جبانة شيخ سعود إلى جانب قبر أبيها الذي ستنزل فيه بعد أن تموت، وسوف يكون سهلاً عليها في يوم القيامة أن تجد قدمها إلى جانبها عندما ستلزمها لتقف بها أمام الله.

ثم أغمضت أمي عينيها، بعد أن تأكّدتْ من سروري بمشاهدتها المباراة التي انتهت بعد نومها مباشرة على الديوانة دون أن تُدخل إسبانيا أياً من الهدفين المنشودين. لكن الزرافة ظلّت، مع ذلك، تنظر إليّ الآن بعينَيْ أمي قبل أن تنام، فيما كانت مباراة الأرشيف تواصل أحداثها العتيقة أمامنا على سطح حديقة الحيوانات في الحي الروسي. خامرتني رغبة قوية بأن أضمّها بين ذراعيّ، وقد خطر بي أنني في حياتي احتجتُ كثيراً وانتظرتُ كثيراً أن أضمّ أمّي بين ذراعيّ، و لم أفعل، كما احتجتُ كثيراً وانتظرتُ كثيراً أن تضمني هي بين ذراعيها، و لم تفعل. لكنني الآن، بعد كل هذه السنين التي تفصلني عنها، كنت مستعداً بكل قواي لأن أبادر إلى احتضانها بين ذراعيّ

على سطح حديقة الحيوانات، فنهضتُ من على الديوانة التي أستلقي عليها، متخفّفاً أخيراً من أثقال غامضة قديمة كانت تمنعني في الماضي من احتضان أمي. غير أنّ خطوات نونا بدأت، في تلك اللحظة، تتدفّق سريعةً على الدرج، فلبثتُ في مكاني حتى ظهرتْ على السطح. كانت تحمل لي فطائر التفاح التي يخبزها دينيس بتروفيتش من أجلنا كل يوم جمعة، وفي يدها الأخرى كانت تمسك بجرزة البصل الأخضر التي تنتظرها الزرافة.

- عادت قطّة عصام إلى الحيّ الروسي..

قالت بصوت مضطربٍ خفيض كما تنبئني بكارثة، وقد نظرت إليّ، بخوفٍ وحيرة بالغين، متسائلةً، كأنما، عمّا يمكن أن يجلب هذا اليوم المشؤوم أيضاً من المصائب التي لا تُصدّق للحي الروسي.

- عادت وحدها..

أردفتْ بصوتٍ أخفض.

وكانت راجمات الصواريخ، في هذه الأثناء، قد بدأت تشارك المدافع الثقيلة في دكّ جيراننا في غوطة دمشق من بساتين الحي الروسي.

عصام

حكاية عصام

I

لقد بدأت حكاية عصام في الواقع من حقيقته القديمة المكتملة به والمخلوقة كأنما من أجله، تلك التي لم تتسع يوماً لأحد ســـواه، ولا أراد، وربما ما عرف ولا استطاع، شَرْحَها أو تبريرها لأحدٍ أياً كان. الحقيقة التي طالما عاشها عندما حطّم أرقامه القياسية رقماً وراء رقـــم في الرماية ورفع الأثقال، وعندما وجد نفسه ذات يوم في حرب مـــن حروبنا الكثيرة، فحارب وصار بطلاً للجمهورية العربية السورية، ثم عندما أصبح الرجل الأول والأخير الذي وقف في وجه بوريا وظـــلّ حياً حتى الآن.

كان بوريا، وما يزال، المتنفّذ الفعليّ بمصائر الحي الروسي بِعلْمِ ومباركةِ الجهات الرسمية في العاصمة القديمة دمشق. وكان نفوذه قد بدأ منذ حوّل زعرانَ الحيّ، فارضي الخـــوّات القـــدامى، جثثـــاً في حاويات القمامة. ثم فَرَضَ، مقابل الأمن والأمان التـــامّين في الليـــل والنهار، أعمالَه الخيرية التي حاصص بموجبها الناس بأرزاقهم، بـــدءاً من المتسوّلين ولاعبـــي الكشتبان وعـــاهرات الأرصـــفة وبـــائعي اليانصيب، وانتهاء بالتجار والصناعيين وأصـــحاب بيـــوت البغـــاء وصالات القمار والمطاعم والمقاهي والكباريهات والسينما والمسارح وصالات الفن التشكيلي. وكان بوريا يعرف عصام منذ شغفه الأول

بالرماية ورفع الأثقال. وقد استدرجه، و لم يستجب، مرات عديـــدة، لأن يكون واحداً من رجاله المقربين، ليس لأنه رامٍ يقظ ويتقن كيف ومتى يستخدم جسده القوي فقط، بل لأنه فـــوق ذلـــك شـــخص محظوظ في تجنّب الضربة المباغتة. ومع نجاة عصـــام المتكـــرّرة مـــن محاولات بوريا تصفية الحساب معه، على أيدي رجاله، في الزواريب الضيقة ازداد وقعُهُ لدى سكان الحـــي الروســـي بصـــفته بطلـــهم ومرشحهم الأوحد لمواجهة بوريا نفسه ذات يوم. لكنهم لم يتأكدوا من ذلك إلا بعد عودته من الخدمة العســـكرية حـــين دخـــل، ذات صباح، إلى كباريه المعلّم أرتين حاملاً بإحدى يديه قطتـــه الصـــغيرة غزال، وباليد الأخرى حقيبة تنك فيها بدلان داخليّان وعدّة حلاقـــة وفرشاة أسنان ومنشفة صغيرة. لم يكن صعباً على المعلّم أرتـــين، ولا على أحدٍ في الحي الروسي آنذاك، أن يلقف المعنى الخطير في زيـــارة عصام هذه، ثم في عيشه بعد ذلك في الكباريه- لقد قرّر أخيراً تحدّي بوريا.

كان المعلم أرتين المستفيد الوحيد من بسط عصام حمايته علـــى الكباريه؛ إذ حرّره نهائياً من تمويل أعمال بوريا الخيرية التي لا يكـــلّ من اختراعها. غير أن الناس وجدوا في سحب الكباريه من ســـلطة بوريا بدايةَ إعادة اعتبار، مؤجّلة منـــذ وقـــت طويـــل، لكرامتـــهم المهدورة، فانتظروا على أحرّ من الجمر المواجهة المحتومـــة الآن بـــين بوريا وعصام. ثم طال انتظارهم عدة سنوات حتى حدث، في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، أنْ قرر بوريا السعي بنفسه إلى عصام، فلاقـــاه أخيراً ليس في الزواريب المقفرة الضيقة هذه المرة، بل على مرأى من الجميع أمام حديقة الحيوانات. عندئذٍ فقط بدا الناس كما لـــو أنهـــم

فوجئوا بالصدام الموشك الذي طالما حلموا به، فحدث ما لم يكن بحسبانهم أبداً، إذ خافوا فجأةً على حياة عصام. وكان من غير الوارد طبعاً، في اللحظة الحاسمة التي انتظروها طويلاً، أن يفقدوا إيمانهم بقدرة عصام على المواجهة، لكنهم احتاجوا، كأنما، إلى موازنةٍ دقيقةٍ وأخيرةٍ بين حجم النتيجة وحجم المجازفة بالأمل الأخير. ثم بدا الأمر، كأنما للجميع بمن فيهم بوريا، كما لو أن شيئاً ملحّاً جداً لم يعد في الواقع يبرر هذه المواجهة منذ مدّة طويلة. فعصام سيظلّ في كل الأحوال يبعث في الناس إحساساً مضيئاً بكرامةٍ عزيزةٍ غابرةٍ قد تخلّصت عملياً من أسنانها، وتحوّلت مع مرور الوقت إلى كرامةٍ محضٍ لم تدفعهم من قبل، ولن تدفعهم في المستقبل على الأغلب، إلى أي عملٍ خطرٍ على حياة بوريا. لكن شعورهم الجديد بافتقار المواجهة الآن إلى المناسبة والضرورة والمعنى كان في واقع الأمر متأخراً جداً. كان تجنّبُ الصدام أقرب إلى المستحيل في تلك اللحظة المحتدمة بالذّات. جمد بوريا وجمد عصام، ومعهما جمد الحي الروسي كلّه في انتظار معجزة، ولو من السماء، تسعفهم حالاً من الاستسلام لحماقة الشجاعة، وكانوا جميعاً مستعدّين للتواطؤ معها والإذعان لها دون شروط. وكان لهم ما أرادوا، فقد بدأ يتساقط عليهم ثلج مفاجئ غزير.

ثلج

ثلج

ثلج

كان الثلج مقنعاً ودقيقاً في توقيته، وسبباً مشرّفاً وكافياً للجميع لأن يحتفوا به ويؤجلوا، بمناسبة سقوطه العزيز النادر الفريد، موعدَ

الصدام المنشود بين بوريا وعصام. لقد فهموا، كأنهم تـذكّروا مـن جديد، أن الحي الروسي لا يقع في فراديس أحلامهم المفقودة، كما لا يقع تماماً في العاصمة القديمة دمشق وإن كان جزءاً من جغرافيتها في الكتب والمصوّرات. لقد كان الحي الروسي منذ نشوئه، وما يزال، برزخاً هشاً، لكنه قابل للحياة بصورة من الصور، ومتاح فوق ذلك للجميع. ولأسبابٍ وجوديةٍ ملحّةٍ تتعلق بفرادة هـذا الحـي ودقّـة تكوينه، احتاجت الأحداثُ المهمّة الفاصلة في حياته دائماً، وينبغي أن تحتاج قبل أن تحدث، إلى كثير من الوقت والتأمل والغبـار والتـردّد والترصّد والتمحيص والوساوس. وقد تعلّم الناس درساً مهماً جديداً من الثلج الأخير الذي أسعفهم من المواجهة بين بوريا وعصام أمـام حديقة الحيوانات- لقد ظلّوا ينظرون إلى عصام نظرهم إلى البطـل الذي سيخوض باسمهم ومن أجلهم معركةً حاسمة لا تُنسى مع بوريا. بيد أنهم الآن لن يسعوا، لا بأرجلهم ولا بقلوبهم ولا بعقـولهم، إلى هذا اليوم الفاصل الضروري المجيد مرةً أخرى. لن يلحّوا عليه. لـن يسألوا عنه. لن يطاردوه، كما لو كان مهراً جامحاً في بريّة. سيتركونه في ذمّة الزمن العجوز الحكيم البارع. الزمن يعرف الحـيّ الروسـي أحسن منهم، وسوف يعتني بنفسه بيومهم المجيد المنشود على هـذا الأساس. بيديه الخبيرتين المعروقتين سيُقدّر الزمنُ كيف ومتى وأيـن يمسك بذلك اليوم الجَموح ويُطوّعه على قدّ طاقتهم على الاحتمال. وقد يحوّله إلى نوعٍ باهرٍ من المجاز الاجتماعي البهيج الذي سيرضيهم جميعاً- سيكون بوسعهم عندئذٍ، كما أملوا دائماً، أن يرفعـوا، مـا استطاعوا، رؤوسَهم عالياً بعصام، إنما دون أن تهتزّ شعرة واحـدة في الحي الروسي. ولعلّ المزيد من الغبار الذي كان سيراكمه الزمن على

مهله فوق صورة عصام، وما يمثّله من الكرامة التي لن يتنازلوا عنـــها طبعاً، سيجعل منه في أذهانهم شيئاً فشيئاً أشبهَ ببطلٍ في حدثٍ شعريّ خالص، من تلك الأحداث التي تصادف عادة في الرقصات والأغاني الفلكلورية والحكايات الشعبية. فالرقص، مهما احتدم موضـــوعه، لا يخاطب العقل والغرائز بغير الرشاقة والدقّة. والأحـــداث الجســـام في الأغاني والحكايات الشعبية لا تؤذي أحداً عادةً مهما مجّدتْ المـــروءة والشجاعةَ، ولا تخرج بطبيعتها عن الحنكة المشوّقة وحســـن التـــدبير مهما حاك الأشرار أحابيلهم فيها. وما يدعو حقاً إلى الحيرة والأسف أنه لا يمكن الاستغناء تماماً عن الأشرار لا في الواقع ولا في الخيـــال- كأن الخير والجمال والشجاعة والرشـــاقة والدقّـــة لا تســـتقيم دون وجودهم. ليس مستحيلاً طبعاً أن تجد الخير منتصراً علـــى الشـــرّ في الحكاية انتصاراً كاريكاتورياً لا يقبله العقل ولا يستســـيغه الـــذوق الحسن إلا بصعوبة. كما يمكنك أن تجده منتصراً، دون أن يقـــع في الخرق والفظاظة، على قوى شريرة مجرّدة يمكن تخيّلها بسهولة، كما يحدث في الأعمال الرهيفة التي لا تحتاج إلى ترميز الشـــرّ بأشـــخاص محدّدين. وغالباً ما تقتضي هذه الأعمال التعبيريـــة، حفاظـــاً علـــى الإيقاع، اختزالَ قوى الشرّ بإشارات وإيماءات مُعبّرة لا أكثر- بحركةٍ مدروسة متقنة واحدة متكرّرة من وقت إلى آخر، بالجبين أو بنظـــرةٍ من العين أو بمشط القدم، يمكن أحياناً استيفاء الإشارة إلى قوى الشرّ في رقصة يقوم بها راقص بارع على سبيل المثال. لكنّـــك في بعـــض الأحيان تكون مضطراً إلى تمثيل هذه القوى الضرورية بكتلة ملموسة مستقلة بذاتها، كشخص بثقل بوريا ونفوذه، وهو ما يعنينا بالدرجـــة الأولى لأسباب تتعلّق بتعدّد الأقطاب على مسرح الحكاية المنشودة في

الحي الروسي. إن المؤلفين الجيدين لا يتركون المتلقّي فريسةً للضجر الذي يسبّبه عادةً التفسير الجاهز لكل قطب باعتباره تجسيداً آلياً للخير أو الشر، بل يلجؤون، في هذه الحال، إلى التأكيد مرةً أخرى وأخرى على الفروق الممكنة دائماً بين الشرّ والأشرار، وكذلك بين الخير والأخيار. وهذا ما كان يمكن أن يفعله الزمن طبعاً باليوم المجيد الحاسم بين بوريا وعصام بوصفه مؤلفاً فولكلورياً متمكّناً ومخضرماً في الرقص والأغاني والحكايات الشعبية والمنافسات والأعياد والطقوس والشعائر. وسوف سيكون مفهوماً، وشيّقاً على الأغلب، أن يخفّف الزمن من حلكة الظلام الذي يمثّله بوريا، فلا يُحسب على فريق الشيطان من النظرة الأولى، وأن يرمي، في المقابل، ظلالاً خفيفة على عصام لا تطمس على الناس صورته المفضّلة، إنما تمنعه من أن يكون، سلفاً، ممثلاً حصرياً للملائكة. وبذلك يتمكّن الزمنُ-الفنّانُ من خلخلة صورتيهما الواقعيتين الجاهزتين المبتذلتين كثيراً في الأذهان، فلا يعود انتصار عصام مسلّماً به منذ بداية الحكاية، أو المعركة الحاسمة، ولا كذلك هزيمة بوريا. سيكون على عصام، لكي ينتصر في اللحظة الأخيرة من الحكاية، أن يخضع في أذهان الناس على مدى الأيام لمهارات معقّدة نسبياً، لكنها مسلّية بالضرورة. أما إذا كان من سيؤدّي دور المنتصر هو بوريا، وهو اختيار وارد أيضاً وإن كان الأقل شيوعاً في الفنون الفولكلورية وحتى في الأجناس الأدبية المعروفة، فلن تُفضي النهاية إلى الخيبة الرخيصة، بل إلى التأمّل الخصب والمتعة المركّبة. وقد كان مفهوماً ومتداولاً، على مرّ السنين، أن ينخل الزمن، أول الأمر، هذه الخيارات المفتوحة كلها قبل أيّ حكاية أو رقصة أو صلاة أرضية، نخلاً طويلاً بارداً شاملاً متأنياً.

فهو، كعهده دائماً في صنعته، يتحقق ويفرز ويعدّل ويضمّ ويُقايِس، ثم يصطفي ما يصطفي حتى تُخلق، بين يديه، الحكايـــةُ، والرقصـــة والأغنية والطقس والشعيرة، كأنما من تلقاء ذاتها دون مؤلـــف أو صاحب. ثم شيئاً فشيئاً تدرج بين الناس جيلاً بعد جيل، رشيقةً حرةً متدفّقةً دون توقف، وجديدةً في كل مرة تجري على ألســـنتهم وفي حركات أجسادهم وفي صميم أرواحهم.

لكنّ ما يهمّنا الآن، وما يؤسف له حقاً، أن كلّ ما ذكرناه آنفاً من الخيارات الباردة المختلفة المحتملة لم يكن متاحاً تماماً لحكاية الحي الروسي بين عصام وبوريا لسوء الحظ؛ فالأحداث الســـاخنة الـــتي انفجرت في عموم البلاد، على نحوٍ مفاجئ، قد نسفت عملياً معظـــم هذه الخيارات، إن لم يكن كلّها على الإطـــلاق، بصـــورة مباغتـــةٍ ومربِكةٍ وموجعةٍ للجميع.

لقد وجد الزمن نفسه فجأةً في موقف لا يساعده أبداً في عمله الاعتيادي الطويل والدقيق. وكان عليه، فوق ذلك، أن يتكيّف دون تأخير مع عوامل متسارعة فظة وفظيعة لم يخبرهـــا جيـــداً في الحـــي الروسي على الأقل. وفي غمرة الحماسة والفوضى الناشئتين أصبح من المحتمل جداً أن تتقطّع وتتداخل بين يديه خيوطُهُ المتينة المنسّقة القديمة التي تصله منذ الأزل بالبشر والأشياء والحوادث. ومـــا كـــان هـــذا الانتقال السريع في طبيعة عمله ليمرّ طبعاً إلا على حساب المســـافة الحيادية الباردة التي فصلته دائماً عن وهج الواقع. لقد بدا الآن كمـــا لو أنه مورّط بالأحداث، فَفَقَدَ، كأنما، الكثير من ســـلطته التقليديـــة البديهية عليها.

وهكذا بدأ الناس في الحي الروسي يشعرون بأصـــابع الـــزمن

الحارّة، العجولة على غير العادة، خاصة على تنامي مشاعرهم تجـــاه عصام مع تنامي خطورة الأحداث التي ما عرفوهـــا قـــط، والـــتي أصبحت تضّيق الدائرة عليهم يوماً بعد يوم. ولعل الـــزمن المحنّـــك العجوز كان يملك، في واقع الأمر، هامشاً احتياطياً للمراوغة، فـــلا يتخلّى ببساطة، حتى في هذا الظرف الحرج، عن ناره الأمينة الهادئـــة المجربة في معالجة صورة عصام وإدخال التعـــديلات الضـــرورية في حكاية الحي الروسي على خلفية الأحداث العنيفة المتفجّـــرة لـــولا تدخّل التلفزيونات السافر في عمله الروتينيّ المحكم القديم.

عصفور نونّا

لقد ساهمت، في حقيقة الأمر، كلّ تلفزيونات الحي الروسي بنفض الغبار، الذي كان قد راكمه الزمن، عن مشاعر الناس القديمة تجاه عصام منذ بداية الأحداث عندما عمّت التظاهرات عدداً من مدن البلاد وبلداتها. غير أن الفظائع، المتواصلة في الليل والنهار على شاشات التلفزيونات، منذ تساقط القتلى بين المتظاهرين، وما تلا ذلك من تشكيل الألوية والكتائب والفيالق المجاهدة في سبيل الله، واستمرارِ وصول الجنود القتلى من أولاد الحي الروسي، وبدءِ تدفّق قذائف الهاون القادمة من الغوطة فوق رؤوسهم، وتزايدِ أعداد الموتى من المعتقلين الذين أصبح يُعثر عليهم عراةً مشوّهين مُكبّلين في البساتين وفوق تلال القمامة، ثم إمعانِ الطائرات بقصف المدن وإزالة بعض الأحياء والبلدات الصغيرة من الوجود، ما لبث كلّ ذلك أن جعل حضور عصام في أذهان الناس، في اليقظة وفي الأحلام، حضوراً كثيفاً ساطعاً وغير مسبوق. لكنّ أحداً في الحي الروسي ما كان ليتوقّع، عندما وصلت الأمور إلى هذا الحدّ من الفظاعة، أن يكون لتلفزيوننا على سطح حديقة الحيوانات دورٌ مميز في تأجيج الحاجة إلى عصام في حكاية جديدة عاجلة، برغم حجمه الصغير مقارنة بتلفزيونات الحيّ الأخرى ذات الشاشات الضخمة والمواصفات الحديثة في كثير من المطاعم والمقاهي والبارات والبيوت.

لقد بدأ تلفزيوننا بأداء هذا الدور، كما فهمنا بعدئذٍ، بفضل الصداقة التي عُقدتْ، منذ مدةٍ قريبةٍ نسبياً، بين رئيسة بتروفنا وبين العجوز موستاش- كلب أبو علي سليمان صاحب محل "المحترم" لبيع الألبسة الرجالية بجوار حديقة الحيوانات- وهو أستاذ لغة فرنسية، متزوج من امرأتين، وشهير بين طلاب المدارس وسكان الحيّ بسمعه الثقيل وصوته الأجش وميله غير المفهوم إلى تكبّد الخسارات المتتالية في شراء وبيع السيارات القديمة المنهكة من شدّة الاستعمال. نادراً ما كانت رئيسة بتروفنا تخطو خارج أسوار الحديقة دون مرافقة صاحبها فيكتور إيفانيتش. كانت قد بلغت من العمر مبلغاً أعفى مؤخرتها الذابلة من فضول الكلاب الشابة منذ مدة لا بأس بها. وكان انفرادها بفيكتور إيفانيتش، في الحديقة وخارجها، يُشبع ميلها المعروف إلى تبادل الهرتمة والخواطر المشتّتة معه بصوت مسموع. لكن موستاش، وهو بودول صغير الحجم جداً بالنسبة إليها، بعد أن بلغ سنّ الحكمة هو الآخر، كان، لسبب سيأتي ذكره بعد قليل، يتحيّن ظهور رئيسة بتروفنا في الشارع من مكانه على باب دكان الألبسة، ويبادلها علامات الاستلطاف الرصينة المدروسة من وراء ظهر فيكتور إيفانيتش في الذهاب وفي الإياب. ومع تقصير فيكتور إيفانيتش، الملحوظ في الفترة الأخيرة، بالخروج من الحديقة، تمكّن موستاش ورئيسة بتروفنا، بعيداً عن أنظار الجميع، من تمتين صداقتهما العفيفة طبعاً بحكم تقدّمهما في السنّ. ثم ما لبثت رئيسة بتروفنا أن فاجأتنا جميعاً حين اصطحبته ذات مساء إلى سطح الحديقة لتقدّمه إلينا أخيراً.

بدا لنا موستاش، عندئذٍ، كالغارق في أفكاره الخاصة، فلم يُظهر لي ولا لنونا التودّدَ الذي يُبديه الكلاب عادةً لأصدقاء محتملين من

البشر. لقد مَسَحَنا بتلك النظرة السريعة التي يمرّ بها على أشياء لا نفعٍ منها يصادفها كثيراً في حياته هنا وهناك. وكما لو أنه لا يعرف أبداً من يكون فيكتور إيفانيتش بالنسبة إلى صديقته الجديدة أدار له ظهره هو الآخر. ولعلّ رئيسة بتروفنا كانت، في هذه الأثناء، تشعر بالحرج من الفارق الواضح بين حجمها الكبير وحجمه الصغير، برغم تقاربهما في السنّ، فجعلتْ تبالغ أمامنا باهتمامها به لترفع من شأنه في عيوننا. ولربما أمِلتْ، في تلك اللحظة، باستدراج أصابع نونا بالذات إلى مداعبته من باب رفع الكلفة بينه وبينها على الأقل.

كانت رئيسة بتروفنا تدرك، بفطنتها الكلبيّة الدقيقة، أنني لم أعرف حتى الآن كيف أُحسِن التقرّب من الكلاب الغريبة دون أن أشعر بالخوف، أو بما يشبه الخوف على الأقل بعد عشرتي الطويلة المُشجِّعة معها في الحديقة. كما كانت واثقة، في الغالب، بأن فيكتور إيفانيتش لن يهضم مفاجأتها بسهولة، وسوف يحتاج إلى وقت طويل قبل أن يسلّم بمشاعرها الصادقة الحميمة حيال صديقها الجديد. لكنّ أصابع نونا على كل حال ما كانت في وارد مداعبة موستاش في تلك اللحظة- كانت منهمكة، بتشجيعِ ومتابعةِ الجميع، في نوبةٍ مكثفةٍ من نوباتها الجديدة في حياكة الصوف. وكان واضحاً أنها لن تضحّي بإقبالها المثمر الآن على الحياكة من أجل رفع الكلفة بينها وبين موستاش، رغم المودة العميقة التي تربطها برئيسة بتروفنا. غير أن موستاش لم يُظهر، عندئذٍ، ما يدلّ على اهتمامه الفعليّ بأيّ رفعٍ لأيّ كلفةٍ تصورتْها رئيسة بتروفنا مع نونّا أو مع غيرها- كان ما يزال عالقاً حتى أذنيه بأفكاره الخاصة المتلاطمة التي ظهر بها منذ قليل، ولم يعرف كيف يضبطها في ذهنه حتى الآن، بينما توقفت عيناه، في نظرةٍ

متوتّرة، على شاشة تلفزيوننا الصغير من بعيد.

وكنا على سطحنا في حديقة الحيوانات، بعد أن أصبحت الأحداث الساخنة المتلاحقة في التلفزيون متشابهةً جداً، قررنا، ما دمنا سنظل نتابعها في كل الأحوال، أن نتفرّج عليها بإخفاء أصوات المذيعين والمذيعات والمحلّلين والمحلّلات والناطقين الرسميين وغير الرسميين باسم الأحزاب والحركات والجبهات والجيوش والعصابات والألوية والكتائب والمجالس والرؤساء والملوك والأمراء ووزراء الخارجية والطائرات والدبابات والمدافع والهاونات والرشاشات والبراميل المتفجرة وجرار الغاز الطائرة والسيارات المفخخة وسيارات الإسعاف والعويل والدعاء والهتاف. وقد راودتنا طبعاً فكرة إطفاء التلفزيون، أو التخلص منه نهائياً بتقديمه هدية لدار العجزة مثلاً، لكننا أمام هول ما يحدث يومياً، على الرغم من اعتيادنا السريع على صوره المتشابهة، كنا سنبدو مستهترين بمصير الحي الروسي على الأقل لو تمكّنا فعلاً من إطفاء التلفزيون؛ فوجدنا أن نكتفي بإخفاء صوت الأحداث، خاصة بعد أن أصبحنا نسمع لعلعتها بالأذن المجردة منذ حصار جيراننا في غوطة دمشق. وفي حقيقة الأمر لم يعد، قبل ظهور موستاش على سطحنا، سوى مشاهدين اثنين مثابرين على التلفزيون هما الزرافة وفيكتور إيفانيتش. كانت نونا قد وجدت ما يشغلها عن متابعة الصور الصامتة المتدفقة على الشاشة الصغيرة بميلها الجديد إلى حياكة الصوف. أصبحت، في الصباح وفي المساء، تُخرج كيس حياكتها لتصفن طويلاً في هواجسها، وهي تغرز، بسيخيها الحذرين المتردّدين، غرزات حائرات بطيئات في نسيج لم يشبه حتى الآن لا كنزة ولا لفحة ولا قبعة. وكنت، منذ اعتقال الأطفال في مدينة درعا

وتقليع أظافرهم في بداية أحداث التلفزيون، قد بدأتُ أشعر بعطالة مباشرة لم تعد تملؤها لي ترجمة مقالات العدد الدوري الجديد من مجلة الحائط في الحديقة. عبّرت لفيكتور إيفانيتش عن رغبتي بأن أترجم سلفاً كل المقالات التي سينشرها في العامين القادمين بالمجلة، ما دام يستقيها كلّها تقريباً من الصحف الروسية القديمة المكدّسة في مكتبه. ثم وجدت متسعاً من الوقت لأن أكثّف قراءاتي حول الأمراض التي يمكن أن تسري في يوم من الأيام بين الحيوانات التي تعيش عندنا. وطلبتُ من طبيبنا البيطري بشير غندورة أن يعطيني، كلما كشف على مريض من حيواناتنا، بعض الخلاصات العملية في هذا الموضوع. وفي غضون ذلك حرصت على أن أنفرد بطبخ الطعام لي ولنونا، وبغسل الأطباق، وتنظيف الغرفة، وشطف الدرج الصاعد إلينا من أرض الحديقة. ثم ظننت، ذات صباح، أن وقتي ما يزال يتّسع لمهام أخرى، وكانت نونا قد أرسلتني إلى السوق لأشتري لها كبّة صوف ذهبية اللون. غير أنني وجدت في طريق عودتي إليها أن وقتي، مع شعوري المتفاقم بالعطالة، سيكون دائماً أوسع من طاقتي على العمل مهما تفانيتُ. ثم انتبهتُ إلى كبّة الصوف الذهبية في يدي كما أنتبه إلى فكرة مضيئة فاتني أن ألاحظها، كما كان ينبغي لي أن أفعل، منذ خرجتُ بها من دكان الصوّاف، وربما قبل ذلك بكثير. واعتقدتُ، كحلّ مبدئيّ للتخلص من إحساسي بالعطالة، أنني سأظلّ أشعر بترهّل الوقت من حولي ما لم أملأه بصوف نونا تحديداً. وكان ذلك يعني، بالنسبة إليّ، أن أهتدي بحياكتها التي لم تفصح حتى الآن عن أيّ هدف واضح، وأُكيّف معها انشغالاتي اليومية المختلفة كلها. وهذا ما أقبلت عليه دون إبطاء. وفي غضون مدةٍ قصيرةٍ نسبياً أصبح

يطيب لي، حقاً، أن أفهم وأشعر وأظنّ أنني حين أترجم افتتاحيات فيكتور إيفانيتش والمقالات التي يختارها، أو حين أقرأ خلاصات بشير غندورة في الطب البيطري، أو حين أطهو عصيدة السميد بالحليب التي نحبها معاً أنا نونا ورئيسة بتروفنا، أو حين أحافظ، بقراءة الشعر العربي، على لياقة لغتي العربية الفصحى التي يحتاج إليها فيكتور إيفانيتش فقط، أو حتى حين أضع يديّ في جيبَيْ بنطلوني وأصفّر أغنيةً وأنظر إلى السماء، إنما أهدف عملياً من ذلك كلّه إلى شيء واحد هو أن لا تتوقف نونا عن الحياكة. ومع أننا جميعاً لم نكن نعرف ما الذي كانت تحوكه نونا بالضبط، فقد شعرتُ بعدئذٍ بأنها تحوكه على الأغلب عنها وعني وعن فيكتور إيفانيتش وعن رئيسة بتروفنا وعن كلّ حيواناتنا الأخرى في الحديقة، وأنها ذات يوم ستجعل منّا، بأصابعها المخلصة البطيئة الدؤوبة، أشخاصاً مفيدين لأشياء، وربما لقضايا كبرى سوف نتعاطف معها من كلّ قلوبنا، لكننا الآن لا نستطيع، وربما لا نريد، التعبيرَ عن هذه الأشياء أو القضايا الكبرى بدقّةٍ كافية. ثم أصبح يعجبني جداً حذر نونا الشديد بتوجيه سيخَيْ حياكتها في أثر الفكرة المنشودة الغائمة التي تتبعها، كأنما، في الظلام. كأن الخطأ المحتمل في كل غرزة بين يديها لن يكون قابلاً للإصلاح، أو أن أحداً من كائنات الحديقة سوف يدفع ثمنه بصورة من الصور. وقد كان لفكرة دمجنا بحياكتها على هذا النحو وقْعٌ حلوٌ في قلبي، فاستخلصتُ بسهولة وسرور أن حذرها من الوقوع في الخطأ إنما هو في الواقع طريقة مؤثّرة بالحرص الشديد علينا. نونا تحوك شيئاً صعباً وغالياً على قلبها يتعلّق على الأغلب بمستقبلنا جميعاً، قلتُ لنفسي. ثم شرحتُ لفيكتور إيفانيتش هذه

الفكرة العزيزة الغامضة جداً حتى بالنسبة إليّ، فاعتبر فوراً أن حياكة نونا لا شكّ جيدة وضرورية في كل الأحوال، لكنها غير كافية حتى الآن لأن تمنعه من النوم العميق مثلاً، أو أن تُقْنعه به على الأقل. "لقد أصبحتُ أنام كالقتيل سبعة عشرة ساعة في اليوم" شكى لي فيكتور إيفانيتش بمرارة، ثم خصص افتتاحية كاملة، في عددٍ جديدٍ من مجلة الحائط، لشعوره بالعار من حاجته المعيبة المتواصلة إلى النوم العميق. ثم طلب مني أن أضيف، في ترجمة النسخة العربية من افتتاحيته تلك، ما أراه مناسباً من أكثر الكلمات صراحةً وقسوةً للتعبير عن تقاعس ضميره في وقتٍ هو في أمسّ الحاجة إليه. "يؤسفني أن أعترف، بكل نزاهة، لقرائنا الأعزاء من روّاد حديقة الحيوانات، الصغار قبل الكبار، أنني لم أعد في هذه الأيام العصيبة قادراً على الشعور بمشاعري الإنسانية النبيلة التي تعرفونها جيداً، والتي حرصتُ دائماً على التغنّي بها أمامكم هنا في هذه المجلة الموقّرة منذ سنين طويلة. لقد أصبحتُ ببساطة كتلةً مؤسفة من الحجر البارد الأصم. لم يعد يؤثر في شيء من الفظائع التي تجري أمامي. لم يعد القتل رهيباً في عينيّ، بل مملاً لا أكثر. وأعترف بأنني أصبحت أملك من المناعة والقسوة وغياب الإيمان بأيّ مثل أعلى، ما يجعلني قادراً على النوم بكل جوارحي بعد مشاهدة مجزرة حيّة كاملة في التلفزيون. ولا أعرف في الحقيقة ما إذا كنت أنتظر ظهورنا جميعاً ذات يوم على شاشات التلفزيونات بين الأنقاض والجثث والحرائق لكي تتحرّك أخيراً مشاعري القديمة السامية النبيلة من جديد".

وكان فيكتور إيفانيتش قد بدأ يسهر معنا على السطح منذ التظاهرات الشعبية الأولى في التلفزيون. لكنّ وتيرة نومه الاعتيادية لم

تتأثّر إلا بعد أن بدأ القتلى من المتظاهرين يتساقطون أمامه على الشاشة يوماً بعد يوم، فصار، شيئاً فشيئاً، يزيد من ساعات استغراقه في النوم. غير أنه لم يفكر في التخلّي عن عادته الجديدة في مشاهدة التلفزيون، بل على العكس، فقد أصبحت مواظبته عليها تؤثّر في مشاغله الأخرى. لقد بدأ يغيب عن مكتبه في الصباح، ثم صار يستيقظ عند الغداء، ثم لم يعد ينهض من فراشه قبل حلول أول الظلام. وعندما ظهر على سطحنا البودول العجوز موستاش، منذ أيام، كان يوم فيكتور إيفانيتش موزّعاً عملياً بين عشرين ساعة متواصلة ينامها غارقاً في الفراش، وأربع ساعات من اليقظة تبدأ في التاسعة ليلاً وتنتهي في الواحدة بعد منتصف الليل. أصبح يخصّص القليل من وقته لتسيير ما علق من شؤون الحديقة في أثناء نومه، ولنبش بعض الصحف الروسية القديمة في مكتبه عن المقالات المناسبة لمجلة الحائط، ولوجبة طعامه الوحيدة مع رئيسة بتروفنا، وبعد ذلك يستلم كرسي القش على سطحنا، ويجلس أمام التلفزيون لينفق القسم الأكبر المتبقي من ساعات يقظته الأربع في مشاهدة الأحداث الصامتة التي تتلاحق على الشاشة، والتي تحقنه بجرعة جديدة كبيرة من الحاجة الملحّة إلى النوم المؤسف العميق. وخشية أن يأتي يوم لا يستيقظ فيه فيكتور إيفانيتش أبداً، بالنظر إلى تفاقم الأحداث الفظيعة يوماً بعد يوم، كان قد خطر ببالنا طبعاً، أنا ونونا، أن نحاول وضع حدٍّ، على الأقل، لنموّ ساعات نومه بتشتيت اهتمامه بأحداث التلفزيون. اقترحتُ عليه، ذات يوم، أن يُملي عليّ مذكراته. وفي يوم آخر أغريته بتناول كأس في حانة قريبة تتردّد إليها امرأة خمسينية وحيدة كان قد امتدح لي أخلاقها ذات يوم دون مناسبة. ولأنه يقدّر كثيراً

أنطون تشيخوف بادرتُ مرةً لأقرأ له قصة "العالة" التي كانت، قبل تفاقم الأحداث، تضحكه حتى الدموع كلما تذكّر بطلها النزق المتألم الجائع مع كلبه وحصانه. ولأنه يحب الشطرنج ويُسعده دائماً التغلب بالأحجار السوداء على بشير غندوره، اتفقت مع الأخير أن يمرّ به، كلما سنحت له الفرصة، ليلعب معه بالأحجار البيضاء ويخسّر نفسه بصورة مقنعة قدر الإمكان. ولكنْ عبثاً ذهبت كل محاولاتي في الحدّ من ساعات نومه.. حتى ظهر موستاش على سطح الحديقة.

كان من الصعب حقاً أن نستنتج بأيّ حال، برغم نظرته المفرّغة من أيّ استجابة ملائمة لما يحدث في تلفزيوننا، أنّ موستاش كان يعاني من تبلّد المشاعر، الذي أقرّ به فيكتور إيفانيتش، تجاه الأحداث الجارية. كما كان من المستبعد جداً أن يكون قد صادق رئيسة بتروفنا ليجد من يعترف له باعتياده المخزي على الفظائع التي تحدث أمامه في التلفزيون لا أكثر. ولا بدّ أن صاحبه أبو علي سليمان لم يجرؤ، مجاملةً لضميره المهني كمربٍّ للأجيال، على إخفاء صوت الأحداث في تلفزيونه، بل لعلّه، نظراً إلى سمعه الثقيل، حرص دائماً على رفعه إلى الآخر، فوجد موستاش نفسه في امتحان يوميّ عسير. غير أن ذلك لم يدفعه إلى الاستسلام، فالهيئة الذاهلة التي ظهر بها على سطحنا كانت تدلّ على أن الخواطر العميقة التي يتداولها في رأسه، الصغير إلى درجة لافتة، لم تخطر حتى الآن ببال فيكتور إيفانيتش ذي الرأس الكبير، ولا ببال أيٍّ منا في حديقة الحيوانات. لم يكن، كأنما، كافياً بالنسبة إلى موستاش أن يحتقر نفسه على ضميره المتحجّر، ولا مقنعاً له أن يغرق لساعات طويلة في النوم العميق بينما لا تزال في التلفزيون مناطق سليمة كاملة تقريباً لم تهدمها الطائرات بعد، وبشر

من لحم ودم ما يزالون حتى الآن على قيد الحياة بين الأنقاض وفوقها وتحتها وعلى مقربة منها في مناطق أخرى. كأن الحياة ما تزال في رأيه ممكنة برغم كل شيء، وتستحقّ من الحيّ الروسي، مهما كان هشّاً ومتوازناً على قدميه بصعوبة، أفكاراً أخرى غير الركون إلى الاستكانة الملغومة بقذائف الهاون القادمة من الغوطة وبجنازات القتلى المتتالية، وبالتشاغل الركيك عن حقيقة ما يجري من حولنا وانتظار الموت في طابور ممضّ ثقيل. ولا بدّ أن هذه الأفكار الأخرى، التي شعر موستاش بضرورتها وصار يبحث عنها، لم تكن واضحة تماماً في ذهنه. لكنه لم يجد ما يوحي بهذه الأفكار في منزل أبو علي سليمان ولا في دكانه، فخرج إلى الشارع ذات يوم واشتمّ رائحتها هناك. ثم ما لبث طبعاً أن فقد الرائحة وعثر عليها مرات كثيرة بين الذاهبين الآيبين المزدحمين أمامه على الرصيف في غضون عدة أيام. وعندما تمكّن من تحديد رئيسة بتروفنا كأقوى مصدر لرائحة الأفكار الجديدة الغامضة التي يبحث عنها بدأ، عندئذٍ على الأغلب، يتحيّن ظهورها مغامراً بحجمه الصغير في لفت نظرها. ولا بدّ أن رئيسة بتروفنا، التي حنّكتْها الأيام الطويلة، قد تجاهلته مرةً واثنتين وثلاث حتى نال إعجابها بصبره وإصراره على الأمل ربما، فمنحته أخيراً فرصة توطيد علاقته معها. وكان بديهياً بالتأكيد أن يكون موستاش مزهوّاً وسعيداً بإحرازه صديقةً من مجايليه بارتفاعها، الملحوظ جداً مقارنة بارتفاعه، والمعروفةِ بحسن سلوكها في الحي الروسي بين الكلاب والقطط والأطفال بصورة خاصة. لكنّ ما كان يبحث عنه موستاش، كما سنعرف بعد قليل، لم يكن موجوداً في رئيسة بتروفنا في واقع الأمر ولا ينتمي إليها بالذّات. ولعلّه أدرك ذلك رأساً منذ لقائهما الأول،

فما شدّه إليها بالدرجة الأولى لم تكن رائحتها الأصلية، اللطيفة بطبيعة الحال، بل كانت في الواقع رائحة الأفكار الغامضة الطازجة الجذابة القوية العالقة بها، التي كانت تتضوّع منها دون أن تدري، ومن ثمّ كان من الممكن أن تقوده إلى صاحبها الحقيقي حتماً في أقرب فرصة، كما يمكن أن يكون قد خطر بذهنه المتوقّد آنذاك. وهذا ما حصل فعلاً حين جاءت به رئيسة بتروفنا، في ذلك المساء، إلى سطحنا في حديقة الحيوانات. كانت الطائرات في تلك اللحظة، وكذلك مدافع مختلف الأمراء والجبهات والألوية والكتائب من الجهة الأخرى، تدمّر، من الداخل والخارج، باب الحديد وبانقوسا وجب القبة. وكان ظاهراً أن توتّر موستاش الذهنيّ كان أكبر من أن يجعله لبقاً أمامنا، فقد تجاهلنا جميعاً وتوقفت عيناه في نظرة مركّزةٍ قصيرة على شاشة التلفزيون من بعيد. ثم ما لبث، بعد قليل، أن تقدّم باتجاه الزرافة، ومحضها تلقائياً ما بدا لنا اهتماماً خاصاً، مع أنه كان يلتقيها لأول مرة. تريّث أمامها لحظةً بدت شاقّة جداً عليه، ثم رفع نظرةً حذرةً وسريعةً إلى رأسها الضخمة العالية بالنسبة إليه، ملقياً عليها بهذه الطريقة تحيةً متهافتةً في أغلب الظن، قبل أن يقعي إلى جانب عنقها أمام شاشة التلفزيون- صفن لحظات معدودات بالحرائق التي نشبت عندئذٍ في حارة مرعي باشا الملاح أمام عينيه. وكما لو أنه قد تمكّن، الآن فقط، من ترتيب مشاعره وخواطره التفت أخيراً إلى ما كان يبحث عنه، ووجده، كأنما، واضحاً تماماً لأول مرة في وجه الزرافة.

لم نكن طبعاً، لا نونا ولا أنا ولا فيكتور إيفانيتش أو رئيسة بتروفنا، في صورة تفاصيل المشاعر والخواطر التي رتّبها موستاش في

رأسه أمام النار والغبار والأحجار التي كانت تتشظّى في تلفزيوننا بصمت مطبق. كان عصيّاً علينا أن نحزر في ذلك المساء ما الذي وجده في ملامح الزرافة على وجه التحديد. غير أننا كنّا مستعدين، خاصة نونا وأنا، لأن نتعاطى معه كشيءٍ جدّي قابل للتحقيق مهما بدا معقّداً على حصافة المنطق وجفاف الواقع وفظاظته. كلّ ما كنا نعرفه بوضوح أن موستاش ظلّ مطمئناً إلى جانب الزرافة يشاهد التلفزيون، ويلتفت من وقت إلى آخر إلى وجهها، ليتأكّد، كأنما، من دقّة ما يصله الآن من أفكارها أولاً بأول حيال ما يتابعانه معاً، ومنتظراً منها، ربما، إشارةً ما زالت متردّدةً بإطلاقها حتى الآن لبدء عملٍ محدّد. كان ذيله القصير يرتعش أحياناً ارتعاشةً مفاجئة واحدة، أو اثنتين متتاليتين، في تعبير ربما عن انتظاره الحارّ لتلك الإشارة، أو عن امتنانه المسبق للزرافة وصبره الذي لن ينفد الآن مهما طال انتظاره. لكنّ الزرافة، كما تبيّن لنا، كانت تشعر بمعاناته ولم تتركه في حيرة الانتظار فترة طويلة. ففي واحدةٍ من التفاتاته المتكرّرة إليها فزّ فجأة على قوائمه، مُعبّراً كأنما عن جهوزيته الكاملة لتنفيذ إشارتها التي تلقّاها أخيراً في تلك اللحظة، دون أن نشعر طبعاً بكيف تمّ ذلك بالضبط، ثم انطلق خفيفاً، برغم تقدّمه بالسن، باتجاه الدرج وغاب في الظلام. وكانت رئيسة بتروفنا قد همّت باللحاق به، لكن تصرفه المفاجئ كان أسرع من استجابتها، فتلبّثت مشوّشةً عند أول الدرج. ثم توقعنا، لسبب ما، أن غيبته لن تطول، لكنه لم يعد في تلك الليلة، بل في التوقيت نفسه من الليلة التالية، وبصحبة أبو علي سليمان هذه المرة.

بدا لنا أبو علي سليمان كالمُحرَج من زيارته المفاجئة لنا، لكنه لم يبرّرها بغير ابتسامة عريضة دامت على شفتيه حتى استقرّ على

كرسي صغير إلى جانب فيكتور إيفانيتش أمـــام التلفزيـــون. ومـــع اضمحلال ابتسامته تماماً بدا أبو علي أكثـــر إرباكـــاً، فالتفـــت إلى موستاش وجعل يلومه بعينيه الواسعتين وتجاعيد وجهه العميقة، كما لو أنه اكتشف الآن فقط خطته الغريبة في استدراجه إلى ســـطحنا. وكان موستاش قد سبقه إلى شغل الحيّز الضيّق بين فيكتور إيفانيتش والزرافة أمام التلفزيون، بمباركة واضحة من رئيسة بتروفنا التي بدأت تحوم حوله وتتشممه من كل مكان كما لو كان جروها الوحيد. لم يخطر ببالنا طبعاً أن الأستاذ أبو علي جاء ليتفرج علـــى تلفزيوننـــا؛ فالأحداث البكماء التي تجري على شاشتنا الصغيرة هـــي الأحـــداث المدوّية نفسها التي تمر على شاشات تلفزيوناته الثلاثـــة الكـــبيرة في الدكان وفي منزلَيْ أم علي الكبرى وأم علي الصغرى، وبالتأكيد على شاشة رابعة يتابعها في غرفة المعلمين بالمدرسة في الفُرَص بين حِصص الدروس أيضاً. لقد حرص أبو علي سليمان، منذ البداية، على تجاهل الأحداث المتواصلة في تلفزيوننا. ظلّ، بعد أن أشبع موستاش بلومـــه الصامت، يراقب شيئاً في ظلام السماء العالي بين النجوم حتى شـــعر، كأنما، بأننا جميعاً ننظر إليه، فالتفتَ برأسه إلينا، أنا ونونا. ومن جديد توسّل ابتسامته العريضة المستعملة نفسها في ملء الفراغ الذي ما يزال يحدثه فينا ظهوره المفاجئ وصمتُه المُلغز حتى الآن. ثم كأنه لم يجـــد، مع ذلك، شيئاً مهمّاً يقوله لنا، فأراد على الأغلب أن يذهب بعينيـــه إلى جهة أخرى لا يجدنا فيها. ولعلّه ودّ لو يعتذر عن أنه لا يعـــرف فعلاً ما الذي دفعه إلى اللحاق بموستاش، لكنـــه تـــردّد في اللحظـــة الأخيرة، وقد احمرّ وجهه فجأة، ثم اعترف لنونا بصوت دافئ خجول خفيض وجرش:

- عصفورك جميل!

نظرت إليّ نونا تستفسر مندهشةً عن عصفورها الذي قصده أبو علي سليمان، ولم يكن لديّ طبعاً ما أشرحه لها، فعلى حدّ علمنا جميعاً لم يكن لديها أيّ عصفور. لكنّ ما حيّرني أن أبو علي، في تلك اللحظة، كان جاداً كعادته ومتأثّراً فعلاً بجمال عصفورها الذي يراه. وكان من المستبعد طبعاً أن يعكّر أبو علي سمعته الطيبة بين الناس، كمربّ للأجيال وتاجر ألبسة رجالية وزوج لامرأتين وأب لتسعة أولاد ورجل بلغ عامه التاسع والخمسين منذ أسابيع، بكلام لا أساس له من الصحة. ثم إنه، فوق ذلك كله، جارٌ ودودٌ مقرّب إليّ، منذ أيامي الأولى في الحي الروسي، ولا أذكر طوال معرفتي به أنه بالغ في شيء أو اختلقه أمامي لسبب من الأسباب. كان دائماً، باستثناء سوسته المُكلِفة بالسيارات القديمة، حنبلياً بواقعيته وبالتزامِه الحدودَ التي رسمها لنفسه في علاقته بالعالم، وكذلك مختلفَ الحدود التي وضعها العالم أمام حاجاته ورغباته وطموحاته. ثم زاد من حيرتي أن موستاش ما لبث أن أكّد فجأةً ما يراه صاحبه أبو علي بنبحة قصيرة فيها من الثقة والإيمان بقدر ما فيها من الرغبة في قول الحقيقة لوجه الله. وهنا وجدتني أصل تلقائياً بين خيوط الأمس وخيوط اليوم، فرجّحت بعد قليل أن يكون عصفور نونا من جملة الأشياء التي بحث عنها موستاش في الفترة الأخيرة ووجدها ليلة البارحة في وجه الزرافة. وكان ذلك يعني، بالنسبة إلي وإلى نونا على الأقل، أن نبحث عن العصفور ونعثر عليه، فأن لا ترى شيئاً لا يعني في نهاية المطاف عدمَ وجوده، خاصة إذا كان هذا الشيء فكرةً من أفكار الزرافة في ظرف شديد الخطورة والتعقيد يمرّ به الحي الروسي.

تلفتنا من حولنا، أنا ونونا، نبحث بعيوننا عن العصفور.

- العصفور في حضن نونا!

أكّد أبو علي بخفرٍ ونزاهة لافتة، فنهض فيكتور إيفانيتش من جانبه بهدوء شديد، وانتصبت أذنا رئيسة بتروفنا واقتربا معاً، كأنما على رؤوس أصابعهما، من الديوانة التي نجلس عليها، أنا ونونا، حتى توقفا أمامنا بحذرٍ وفضولِ من يتوقّع عصفوراً سيفرّ الآن من حضن نونا.

لم تكن نونا، في هذه الأثناء، تنظر إلى حضنها، بل إليّ، فقد جمّدتْها المفاجأةُ السعيدة التي يمكن أن تطير فعلاً من بين يديها في أي لحظة. وكان عليّ أن أتأكّد أنا من وجود العصفور، لأن أيّ حركة لا يتوقّعها منها يمكن أن تثير ريبته كأي عصفور في الدنيا، فيطير. وكان لا يفصلني عن نونا على الديوانة سوى كبّتي صوف خضراوين، فنظرتُ أدقّق على مهلي بين طيّات الصوف المشغول المتكوّم في حضنها والنازل من فوق ركبتيها و لم أجد شيئاً. التفتُّ إلى أبو علي وموستاش، فوجدهما ما يزالان مفتونين بالعصفور الذي يريانه معاً حتى الآن. وما كان ليخطر بـي طبعاً أن أنكره، فعدت بعينيّ، ببطء وحذر، إلى حضن نونا وفهمتُ في الحال أنني لن أعثر عليه ما دمتُ لا أراه، إلا إذا كان في صوف نونا.

- لقد حِكْتِ عصفوراً!

قلتُ، وقد خامرني إحساس ساحر بأن تكون نونا قد حاكت فعلاً فكرةً من أفكار الزرافة دون أن تدري. وكانت الآن قد رفعت يديها بسيخي حياكتها ثم نهضت، فانسدل شغلُها على طولها أمامنا وبدا لنا قطعةً كبيرةً مشغولةً على شكل مستطيل بأضلاع مستقيمة

بصعوبة. وكان لا بدّ للعصفور، لكي يراه أحدنا على الأقل، من سماء يحلّق فيها، أو غصنٍ أو مزراب أو حبل غسيل يقف عليه، فتمكّنا، كأنما معاً، من اعتبار اللون الأزرق الغالب سماء زرقاء فيها غيوم خضراء هنا وهناك، ثم حصّلنا نقاطاً ذهبية منثورة كالكواكب. لكننا لم نر العصفور ولم نيأس منه. لفَتَ نظرَنا، عندئذٍ، أن النور ضعيف، فنهضتُ أنا الآخر. بسطتْ نونا شغلها على الديوانة في أقرب مكان من لمبة سطحنا. وتجمّعنا، أنا ونونا وفيكتور إيفانيتش ورئيسة بتروفنا، في الجهة التي لا تُسقط ظلالنا الداكنة على الصوف المشغول، وظللنا نبحث عن العصفور حتى وجدناه بين غيمتين خضراوين.

عند ذلك فقط عبّر موستاش دون مواربة عن رضاه عن نفسه ببنحة مفاجئة مقتضبة ظافرة، وهو ينظر مزهوّاً إلى الزرافة. إن حَيْرَتَه الممضّة وجهودَه الغامضة في الفترة القريبة الماضية لم تكن عبثاً إذاً، فقد أفضت أخيراً إلى لفت أنظار الجميع إلى فكرة الزرافة المهمّة الموجودة، بهيئة عصفور، في حياكة نونا. وكان أبو علي سليمان، الذي التقط بحكم العشرة الطويلة على الأغلب إشارةَ موستاش فحزر العصفور، قد بدأ الآن ينظر إلى كلبه العزيز بعينين فخورتين معتذرتين عن سوء فهمه. ثم كان واضحاً لنا في تلك اللحظة أن أبو علي قد تخلّص تماماً من شعوره المربك بأنه مُقحَم علينا، فبدا واحداً من عائلتنا في حديقة الحيوانات. ولم تكن رئيسة بتروفنا بأقلّ فخراً من أبو علي سليمان بصديقها الجديد موستاش، فكانت الآن تتنقل بين الجميع، وهي تهمرتم مع نفسها من شدة السعادة. أما فيكتور إيفانيتش فكان، في هذه الأثناء، يزمّ شفتيه المرتعشتين ويوصْوِص عينيه الرامشتين دون توقّف، محاولاً دون جدوى إخفاءَ مشاعره السعيدة التي افتقدناها منذ مدة طويلة.

لقد أصبح مفهوماً، من الخفّة التي تملّكتنا الآن جميعاً، أن عصفور نونا قد منحنا شيئاً لم نكن قادرين على تحديده إنما متأكّدين فقط من حاجتنا الماسّة إليه، فنحن الآن أفضل بما لا يقاس مما كنا عليه قبل دقائق. وكما لو أن صمتنا وحده كان كفيلاً بإطالة احتفائنا بالعصفور جلسنا، كل في مكانه، وصمتنا هانئين. ثم انتبهنا فجأةً، نونا وأنا ورئيسة بتروفنا وفيكتور إيفانيتش وأبو علي سليمان، إلى أن موستاش عاد يتابع مع الزرافة أحداث تلفزيوننا، فانضممنا إليهما، كأنما من باب تمتين الرابطة العزيزة الغضّة التي نشأت بيننا جميعاً قبل قليل. كانت الطائرات والدبابات والمدافع الثقيلة وراجمات الصواريخ تتابع الآن على شاشتنا الصغيرة الصامتة تهديم حمص القديمة في نقلٍ حيّ على الهواء مباشرةً، بينما كان الأب فرنسيس يفتح أمامنا باب ديره هناك للنازحين تحت الطائرات المغيرة نفسها، ثم يتلقّى من أحد الزائرين الملثّمين زخّة رصاص. وكان مفاجئاً لنا، في هذه الأثناء، أننا الآن لم نعد نشعر تقريباً بالتشابه الذي حقّقته الأحداث في تلفزيوننا منذ فترة طويلة، بل بالألم والخوف معاً- الألم الصريح الموجع المعروف الذي، كما تبيّن لنا الآن فقط، لم يتقرّن بعدُ في أرواحنا، والخوفِ الرهيب الذي حمَلَنا، كأنما فجأةً، إلى قلب التلفزيون في حمص القديمة، فرأينا كيف سقط الأب فرنسيس مضرّجاً بدمه على باب الدير بين جموع اللاجئين إليه وشعرنا بالسقوف كيف بدأت تتهاوى فوق رؤوسنا نحن أيضاً، وصرنا، كأنما، نخرج من تحت الأنقاض مع الخارجين أمامنا الآن على الشاشة، مُعفّرين بالتراب والدم والذهول.

- لا بدّ من الخوف!

همست نونا، كأنما لنفسها.

وكنا جميعاً نتبادل النظرات الخجولة كالسعداء باكتشاف خوفنا وألمنا الحيّين اللذين ينبعثان فينا الآن مع تواصل الخرائب تحت القصف أمام أعيننا، كأننا لم نشعر قط بالعار البــارد أمــام التلفزيــون، ولم نتدرّب قِط في جحور أنفسنا العميقة على موتنا المُحــتّم القريــب، فبدونا الآن كما لو أننا نأمل بشيء. من يخفْ حقاً يأمــلْ، لا بــدّ، بشيء. شيء ضروري مختلف سيحدث قريباً ربما أمامنا في التلفزيون، وقد يحدث معنا هنا، في الحي الروسي. وربما سنفعله نحن بأنفسنا. لا نعرف. لا نعرف. لا يمكن أن نعرف. إن عصفور نونا في نهاية الأمر فكرة غنية واعدة لا أكثر، والفكرة بطبيعتها تظلّ محفوفةً بــالغموض والاحتمالات غير المنتظرة قبل أن تتحقق. كلّ ما كنا نعتقد أننا نعرفه في تلك اللحظات هو أننا أصبحنا نتــابع الأحــداث في تلفزيوننــا الصغير، كما لو أننا ما اعتدنا عليها ولا حفظْنا حرائقَها على ظهــور قلوبنا حتى الآن، وأننا، في غضون ذلك، كنا نخاف حقاً، ونتألم حقاً، وننتظر حقاً بكل طاقتنا شيئاً جديداً جديداً سيحدث من أجلنا قريباً، وربما قريباً جداً.

في الصباح

I

بدت الساعات الأولى من صباح اليوم التالي اعتيادية بالنسبة إلى غيرنا من سكان الحي الروسي. فضجيج المدافع والراجمات والهاونات والطائرات، مع لغط الوزراء والرؤساء والملوك والمندوبين الدائمين في مجلس الأمن ولجان التحقيق بالجرائم ضد الإنسانية في سورية، كان يتدفّق كالعادة إلى الشوارع والأزقة من نشرات الأخبار المتواصلة المتسرّبة من صالونات البيوت، ومن مطابخ الأمهات المنشغلات بإعداد موائد الفطور، ومن غرف نوم المستيقظين لتوّهم الذابلين المتثائبين ما زالوا بين الوسائد، والنائمين المتأخرين الغاطسين حتى الآن في دفء أسرّهم أو على ديواناهم أو في مقاعدهم غير المريحة أمام تلفزيوناهم الشغّالة طوال الليل، ومن قلب الأقبية المعتمة والسقائف المموّهة المعدّة لاستخدامها عند الضرورة لاختباء المتخلّفين عن الخدمة العسكرية والمطلوبين للاحتياط من شباب الحي الروسي، الذين لم يتمكّنوا من الهرب خارج البلاد في الوقت المناسب، وكذلك من أعماق المخابز الموقدة ومن مطاعم الفول والمسبّحة والسحلب والمامونية والرز بحليب والهريسة والمعجنات، ومن نوافذ السرافيس والسيارات وشاحنات السوزوكي الصغيرة والبوزينكات، من الراديوهات الملعلعة أمام السائقين النشطين والركاب الذين ما زالوا

يغالبون سلطان النعاس في مقاعدهم المتقلقلة تحتهم على طول الشوارع التي حفرتها، وما تزال، جنازير الدبابات وعربات البي إم بي في طريقها إلى حدود جيراننا في غوطة دمشق.

لكنّ تلك الساعات من ذلك الصباح بالذات لم تكن اعتياديةً بالنسبة إلينا، نحن الزرافة وفيكتور إيفانيتش ورئيسة بتروفنا وموستاش وأبو علي سليمان ونونا وأنا.

- رأيت مناماً.

قالت لي نونا عندما استيقظنا في الصباح الباكر، فانتظرتُ أن ترويه لي قبل أن ننهض من الفراش، غير أنها كشفت، بعد ذلك مباشرةً، الغطاءَ عن نفسها فقط، ونزلت من السرير، فتبعتها. فتحتْ باب الغرفة وخرجتْ قبلي إلى فسحة سطحنا. كانت الزرافة ما تزال في مكانها تتابع الأحداث الصامتة في التلفزيون منذ ليلة أمس، كما لو أن شيئاً استثنائياً لن يحدث بعد قليل. إلا أنها، وعلى غير عادتها في مثل ذلك الوقت المبكّر، لم تقطع مشاهدتها لتلتفت إلينا وتشجعنا على الاقتراب منها فتتلقّى مداعباتنا وبربراتنا الصباحية الاعتيادية معها.

الزرافة لا تتجاهلنا، قالت نونا. لا يمكن أن تتجاهلنا، استدركتْ. إنها تداري عنّا قلقها بهذه الطريقة لا أكثر. لعلّها تراجع حساباتها الدقيقة للمرة الأخيرة بعد المشاعر الجديدة الواعدة التي بعثها فينا العصفور مساء البارحة. من يدري. أو أنها، بعد تأمّل عميق طوال الليل، بدأتْ تخشى علينا فعلاً من حماستنا المفرطة لأفكارها المنيرة. لا بدّ أنها تدرك، أكثر بكثير مما ندرك، أن وقتنا المعقّد المتفجّر الآن قد لا يحتمل تعطّشنا المتهوّر المفاجئ إلى الأمل.. أيّ أمل.

لم تقترب نونا من الزرافة، ولا أنا طبعاً. تلبّثنا عند باب الغرفة صامتين متوجّسين ننظر إليها. إلا أنني ما أردت أن أيأس من التفاتتها الصباحية، فظللتُ أنتظرها برغم استغراقها في التفكير، بينما كانت نونا تراقبها بشغفٍ مختلفٍ مستقلٍ كأنما عنّي- كأنها كانت تتحقق من فكرةٍ ملحّةٍ لا أعرفها، أو من إحساسٍ غامض راودها، ربما، عندما نهضتْ فجأة من الفراش قبل قليل.

ظهرت رئيسة بتروفنا، في هذه الأثناء، على السطح المقابل وقفزت إلى سطحنا، كعادتها في كلّ صباح. ودون أن تنتبه إلى انشغال الزرافة اقتربتْ منها ووقفت أمامها تهمهم بنبحاتها القصيرة المستعطفة، إنما المتعجّلة هذه المرّة. لم تخذلها الزرافة برغم استغراقها بالتفكير. أغمضت لها عينيها الواسعتين وانحنت برأسها إليها حتى صار بوسع رئيسة بتروفنا أن تزيل، بلسانها الرشيق الحار، آثار الليلة الفائتة عن ملامح وجهها المخمليّة المتفكّرة. لاحظت نونا سرعة رئيسة بتروفنا اليوم في إنهاء عملها الصباحيّ المحبّب هذا، لكنها بدت لنا راضية عن نفسها كما لو أنها قامت بواجبها على أحسن صورة. وكانت نونا الآن قد مدّت يدها إليها، فاقتربت منها برشاقة لافتة. ثم أقعت على قائمتيها الخلفيتين أمامنا، باضطراب ظاهر، وقد رفعت رأسها نحونا- كانت عيناها تأتلقان بسعادةٍ طازجةٍ لا توصف. ثم ما لبثت أن نبحت فجأة نبحةً احتفاليةً عالية، وهي تلفت نظرنا إلى السطح المقابل. التفتنا وإذا بفيكتور إيفانيتش، الذي لم يستيقظ في مثل هذا الوقت منذ مدةٍ طويلة، يفتح باب غرفته ويخرج، حليق الذقن، مسرّح الشعر، ومهندماً ببذلته الرمادية التي يرتديها عادةً في المناسبات.

- تستطيع رئيسة بتروفنا أن تتناول معكم طعام الإفطار.

قال فيكتور إيفانيتش بنبرته حين يكون ذاهباً إلى أداء عمل ضروري مستعجل، ثم نزل الدرج إلى أرض الحديقة بخطواتٍ واثقةٍ خفيفةٍ لا يمكن أن تكون لرجل يقترب من السبعين من العمر. وكما عرفنا بعدئذٍ، عندما طلبني إليه، فقد نزل فيكتور إيفانيتش إلى مكتبه ليكتب افتتاحيةً جديدةً لمجلة الحائط، وكان عليّ ترجمتها بالسرعة الممكنة القصوى، كما قال، لتُنشر في عددٍ استثنائي سيصدر قبل الموعد الشهريّ المعهود.

تحدّث فيكتور إيفانيتش في بداية الافتتاحية عن أفكار الزرافات التي يمكن العثور عليها في الهواء الذي نتنفسه، وفي صميم أعمالنا الاعتيادية التي نقوم بها، وفي أشيائنا اليومية التي نرتديها ونجلس عليها ونسكب فيها طعامنا ونجفف بها وجوهنا ونخبّئ فيها أسرارنا. كما لم يستبعد أن تحلّق أفكار الزرافة أحياناً في رؤوسنا أيضاً، بين أفكارنا وخواطرنا الخاصة دون أن نشعر أو نظن. ثم تطرّق إلى نباهة الكلاب عموماً، وكلاب البودول خصوصاً، في التقاط أفكار الزرافات وتمييزها عن غيرها. وأكّد ضرورة التعاون بيننا وبين الكلاب في تفسير هذه الأفكار النيّرة وهضمها وترجمتها على أرض الواقع بالوسائل المتاحة كافة وعلى أكمل وجه ممكن. بعد ذلك أفرد فيكتور إيفانيتش عدّة سطور لفوائد حياكة الصوف في حدائق الحيوانات، خاصة في الظروف الصعبة التي يمكن أن يمر بها الإنسان والحيوان والطبيعة. ثم أشار إلى الدور الفعّال الذي يمكن أن تلعبه جهود الزرافات والكلاب وحياكة الصوف معاً في التخلّص من النوم الزائد، ومن الفكرة المتعالية الخاطئة التي تقول إن العالم أكبر بكثير من

أن يلتفت إلى حياتك الصغيرة التي لا تعنيه في شيء، وأنه معك أو بدونك سوف يمضي إلى غاياته المحضّرة سلفاً بغضّ النظر عن درجة اختلاف، أو تطابق، غاياتك مع غاياته. ثم ختم فيكتور إيفانيتش افتتاحيته الاستثنائية بأهمّية هذه الجهود مجتمعةً في تعليم الشجاعة في مواجهة الذات، واسترداد القدرة على الألم والخوف والانتظارِ المثمر والصبرِ المحدودِ القابل للنفاد عند الضرورة، مهما شعر الإنسان بالوحدة أو بالقلّة أو بالعبث. ثم طالبني فيكتور إيفانيتش، في نهاية كلامه معي في مكتبه، أن أضع بين هذه الأفكار، في النسخة العربية المترجمة من الافتتاحية، بعض المُحسِّنات التقليدية المحلّية، التي يمكن أن تزوّد القراء بالحماسة والثقة بالنفس والمعنى، كالدبكات الشعبية والأغاني الفلكلورية والهناهين والتهاويد ورشّ الرزّ في الأعراس، ولا بأس من بعض القصائد الفصيحة غير المتعالية على فهم الصغار والكبار، وإذا كنت سأتطرّق، ولا بدّ، إلى أهمية الفودكا في تسليك هذه الأفكار غير المعهودة في بعض العقول اليابسة بسلاسة وأمان، فسوف يكون من المناسب جداً أن تكون الأنخاب، التي يمكن أن تُرفع في نهاية الافتتاحية مثلاً، رشيقة ومتقنة وذات مغزى حيويّ عميق وفعّال.

II

ابتلعت رئيسة بتروفنا، على مائدة فطورنا، قطع المرتديلا، التي هرّمتها لها نونا، بسرعة كبيرة، وانصرفت بالخفّة والثقة والمشاعر التي انصرف بهما فيكتور إيفانيتش إلى عمله. غير أنها لم تتبعه لتكمل نومها في مكتبه كما كانت تفعل غالباً بعد تناولهما الفطور في أصباحهما القديمة المبكرة. لست متأكّداً طبعاً من أنها قد مرّت به، هذا الصباح، مروراً سريعاً قبل وصولي إلى مكتبه حين سلّمني افتتاحية العدد الجديد، لكنني لم أجد لها أثراً في الحديقة أيضاً عندما خرجتُ من مكتبه.

فكرنا، نونا وأنا، بعد عودتي إلى غرفتنا على السطح، أن خروج رئيسة بتروفنا، على غير العادة في هذا الوقت، متعلّقٌ على الأغلب بمساعي موستاش الحميدة التي تمخّضت عن عصفور نونا مساء البارحة. لعلّها اشتمّت أثراً واهياً من خواطر بنّاءةٍ أخرى كانت تعتمل في رأسه المجتهد الصغير في اللحظة الأخيرة قبل أن يعود، وأبو علي سليمان، إلى منزلهما في ساعة متأخرة من ليلة أمس. ولعلّ ضيق الوقت عندئذٍ، وربما ثقل الشيخوخة، قد حال دون أن تلحق به لاستجلاء هذه الخواطر منه مباشرةً وأولاً بأول، فظلّت في بالها حتى الصباح. غير أننا، مع ذلك، لم نكن نملك في الواقع من القرائن القاطعة لنربط، بوضوح كافٍ، خروجَها المبكّر وحدها من الحديقة بنشاط موستاش دون غيره في هذا الصباح. لقد كان علينا أن ننتظر حتى المساء لنعرف، مِنَ الذين التقوها في أماكن مختلفة بالحي الروسي في ذلك اليوم، أن رئيسة بتروفنا قد خرجت فعلاً تبحث عن صديقها موستاش.

كان مفهوماً طبعاً أن تبحث رئيسة بتروفنا عن موستاش في بيت أبو علي سليمان وحول دكانه أولاً. لكنها، كما فهمنا بعدئذٍ، لم تجده لا هنا ولا هناك، فانطلقت بمشاعرها الفيّاضة الجديدة تبحث عنه في شوارع وزواريب الحي الروسي. وقد كان من الوارد جداً، بالنظر إلى خبرتها الطويلة بأبناء جنسها من الكلاب الأهلية، أن تتوقع رئيسة بتروفنا وجود موستاش في المدارس الابتدائية أو في رياض الأطفال قبل أيّ أمكنة أخرى، برغم الطبيعة المركّبة التي اكتسبتها اهتماماتُ موستاش الاجتماعية في الأيام الأخيرة. لقد اعتبرتْ، على الأغلب، أن الكائن الحي، خاصة إذا كان كلباً له اسم وأسرة وحيّ ينتمي إليه، لا يمكن أن يفرّط في علاقته المبدئية بالأطفال مهما تعقّدت وتنوعت اهتماماته الاجتماعية الأخرى. وكان بديهياً أن تفكّر رئيسة بتروفنا بهذه الطريقة المتحيّزة، فقد وفّر لها موقعها المهني، ككلبة محترفة مُتاحة للعب خارج الأقفاص في حديقة الحيوانات، أن تنشئ، على مدى سنوات، علاقات صداقة عميقة ومميزة مع أطفال الحي الروسي. لكنها، ويا للأسف، لم تلمح موستاش في باحات المدارس ورياض الأطفال ولا في كوريدوراتها ولا في صفوفها ولا قرب أسيجتها حيث شاهدها كثير من الأطفال والمعلمين والأذنة وبائعي الفرّارات والعرانيس والبوشار وشعر البنات. وكان وقتُها، كما بدا للجميع، أضيقَ من أن يسمح لها باللعب مع أعزائها الأطفال الذين صادفتهم في هذا اليوم. لكنها، مع ذلك، لم تخيّب بعض الأصابع الصغيرة المتحمّسة التي وصلت إليها في هذه العجالة، فمكّنتْها، قدر الإمكان، من المرور السريع على جسدها الحار المفعم بالحماسة والقلق. ثم شوهدت، بعد ذلك، في محطة القطار، وفي

شارع الملاهي، وفي أول البساتين المقفرة المزروعة بالألغام التي تفصل بيننا وبين بقية بلدات الغوطة. وحين وصلت إلى ساحة السرايا القديمة، صعدت الدرجات القليلة على باب المقهى المجاور، تجوّلت بين الطاولات والكراسي الشاغرة في مثل هذا الوقت من الصباح إلا من بعض الزبائن، ثم عادت إلى الساحة لتمدّ رأسها، دون أن تدخل، في مكتبة بور سعيد. انتبهت هنا، للحظات، إلى ما يجري في تلفزيون صغير محشور بين الكتب والدفاتر المدرسية، ثم دقّقت تحت طاولة ضيقة طويلة وبين أقدام رجُلين واقفين صافنين دون اهتمام بأغلفة المجلات والجرائد المحلّية. لكنْ دون جدوى، فلا أثر لموستاش. ولسبب ما لم تتابع رئيسة بتروفنا، بعد ذلك، طريقها إلى طلعة شارعٍ المنصور، بل إلى نزلة السرايا. ثم انعطفت دون تردّد في تتمّة السوق الشرقي باتجاه الغرب. وقبل أن تصل إلى سينما غرناطة بعدّة دكاكين توقفتْ، فجأةً، أمام الواجهة الزجاجية لدكان الساعاتي القدير والممثل المسرحي المعروف عبد الجليل حجازي.

III

كان عبد الجليل حجازي مشغولاً في تلك اللحظة بذبابة. ذبابة ضخمة خضراء من تلك الذبابات البرّاقة التي ترتع عادةً فوق القطائس والجثث. لم ينتبه إليها حين تسللت إلى دكانه ليحول دون دخولها في الوقت المناسب. سمع طنينها، بعد فوات الأوان، حين كانت تحلّق حول لمبتَيْ نيون في السقف العالي، وها هي الآن تحطّ فوق أحد المنبّهات المعدنيّة المتراصفة في رتلٍ مستقيم على رفٍّ إلى يمينه. كان عبد الجليل حجازي يحرص دائماً على نظافته الشخصية ونظافة دكانه، فلم يفهم مناسبة رائحة اللحم المتفسّخ التي بدأت تنبعث من حوله مع ظهور الذبابة. ومع نهوضه من وراء طاولته طارت الذبابة من على المنبّه، فسارع إلى إطفاء الإنارة في الدكان ليستدرجها إلى ضوء النهار الساطع في الخارج. غير أنّها لم تلتفت إلى النور المبهر في الخارج، بل حامت قليلاً فوق شعر رأسه الرماديّ الخفيف، ثم لجأت إلى الضوء المنبعث من التلفزيون وحطّت عليه. وكان عبد الجليل حجازي لا يريد إطفاء التلفزيون، ولا يفضّل من ناحية أخرى أن يهرس، بلطّاشتهِ التي لا تخطئ، ذبابةً بهذا الحجم فوق الأحداث العنيفة المتواصلة والجثث المتراكمة والخرائب المتفشّية المتعاقبة على شاشته النظيفة اللامعة. حار بأمره في وسط الدكان حتى لمح رئيسة بتروفنا واقفة أمام واجهة ساعاته، فخرج إليها. وما إن وقف أمامها على الرصيف حتى شعر فجأة بذلك الإحساس الفريد الذي يتحسّر عليه منذ مدة طويلة، والذي ينتابه عادةً عندما يكون على خشبة المسرح فقط. ومع أن رئيسة بتروفنا كانت، في الواقع،

تبحث عن موستاش كما سبق وأشرتُ، غير أن مشاعرها الجديدة قد جعلتها، في الظاهر، تبدو في عينيْ عبد الجليل حجازي الآن، كما لو أنها تنظر إليه بوصفه ممثلاً مسرحياً وليس ساعاتياً. وكان دائماً يقدّر من يُحسِن التمييز بين مهاراته كساعاتي يكسب لقمة عيشه في الدكان وبين مهاراته كممثل مسرحيّ يكسب نفسه على الخشبة. ومن شدة سعادته بحسن ظنّ رئيسة بتروفنا به أصبح مستعداً لأن يؤدي أمامها الآن مونولوجاً عزيزاً عليه من **عطيل**، مسرحيتِه الأخيرة التي توقف عرضها بسبب الظرف المعقد في الحي الروسي وما حوله. لكنّ رئيسة بتروفنا بدأت تتململ أمامه، فقدّر أن بالها مشغول، وأنها تريّثت أمام دكانه لتذكّره فقط، كصديق عزيز لها ولفيكتور إيفانيتش ولي ولحيوانات الحديقة الأخرى، بأنه ممثل مسرحي مرموق قبل أي شيء آخر، وأن عليه أن يفعل، على وجه السرعة، شيئاً مفيداً آخر غير الإنصات إلى الساعات المتكتكة من حوله عبثاً طوال النهار. وكانت رئيسة بتروفنا على حق، اعترف عبد الجليل حجازي لنا في المساء، فودّ، عندئذٍ، لو يغلق دكانه فعلاً على الساعات المملة والذبابة الضخمة الخضراء ورائحة اللحم المتفسّخ والتلفزيون الشغّال، ويرافق رئيسة بتروفنا إلى حديقة الحيوانات. لم يكن في وارده طبعاً أن يبرّر تقاعسه المسرحيّ أمامها كصديقة مقرّبة، فقد أراد، في واقع الأمر، أن يدقق معها على مهله بعض المشكلات المتعلقة بطبيعة فن التمثيل. إن الممثل، يا صديقتي رئيسة بتروفنا، ليس شاعراً ولا رسّاماً، ولا حتى كاتباً مسرحياً، لكي يحدّد وحده، ووحده فقط، متى وأين يمارس فنّه العزيز. التمثيل كان وسيبقى دائماً جزءاً من عمل جماعي يشترك فيه فنانون لا يُحصَون من اختصاصات مختلفة. وعلى عكس

فنون أخرى، لا تقل عنه أهميةً، فإنه يحتاج دائماً إلى ممولين متأكّدين حق العظم من الجدوى الاقتصادية من استثمار أموالهم الجبانة بطبيعتها. ولا أعتقد، كما لا بد أنك تعرفين وتقدّرين، أن أحداً سوف يُقنع الآن هؤلاء المموّلين الشكّاكين الشكّائين باستثمار ليرة سورية واحدة على خشبة مسرح يقع عملياً تحت لعلعة المدافع ودويّ الطائرات وبين هدير جنازير الدبّابات وعويل سيارات الإسعاف. ثم إن الإنسان يا عزيزتي رئيسة بتروفنا، خاصة إذا كان ممثلاً جيداً، ليس ساعة جدار ولا حتى ساعة يد ليكون قادراً على التكتكة الحيادية المتواصلة بالإيقاع المعدنيّ الرنان نفسه في كل الأوقات والظروف. إنه في النهاية لا يستطيع، مهما طمر نفسه بالمسوّغات المنيعة، أن يتجاهل تماماً ما يجري من حوله من كوارث. غير أني، إذا أردتِ الحقيقة من ناحية ثانية، أقصد يا عزيزتي من الناحية التي تخصّني وحدي دون سواي، وبغضّ النظر عن المموّلين الجبناء والمدافع والدبابات والطائرات وسيارات الإسعاف وعن حساسيّتي الإنسانية أيضاً التي ادّعيتها أمامك الآن، بغضّ النظر عن كل ذلك الهراء المقزّز المتكرّر أعترف لكِ بكل جوارحي بأنك على حق. سوف أكون بلا ذمّة ولا ضمير إذا أنكرتُ لك الآن انتظاري، على أحرّ من الجمر، الساعةَ التي أجد نفسي فيها من جديد شخصاً آخر بلباس آخر ووجه آخر وهموم أخرى متجوّلاً في عالم آخر تحت حزمات الإضاءة المتحركة معي بين قطع ديكور وإكسسوارات خشبة المسرح. إن كل شيء في الأوقات البائسة الراهنة يضطرني، للأسف، إلى أن أظهر فقط بشخصيتي الفقيرة القديمة اليتيمة المملّة التي يعرفها الجميع والتي أحفظها عن ظهر قلب وأكرّرها مع ذلك بكل صفاقة وبلادة كما

هي يومياً دون زيادة ولا نقصان. لقد ولدت بهذه الشخصية وكبرتُ معها، وأنحبس فيها الآن غصباً عنّي منذ مدة مضنية لا أعرف متى ستنتهي وكيف. كلّ الشخصيات التي عشتها على الخشبة يا عزيزتي رئيسة بتروفنا كانت أفضل مني وأعمق وأدقّ وأشجع وأنبل وأطيب وأجبن وأنذل، وهي كلّها، كلّها، إنما تحتاج إليّ الآن كما أحتاج إليها، فهي، من دوني كممثّل، تظل حبراً على ورق كما تعلمين، وأنا من دونها أظل، كما ترين، مجرّد رجل ضجران باهت في الخامسة والخمسين من عمره، أو في أحسن الأحوال مجرّد ساعاتي قدير وممل.

غير أن رئيسة بتروفنا لم تمهل عبد الجليل حجازي ما يكفي من الوقت ليحزم أمره بإغلاق الدكان، فقد تركته فجأةً وتابعت طريقها باتجاه الغرب. كأنها قالت كلمتها، فكّر عبد الجليل حجازي، ولا تريد مناقشتها معه، وعليه هو أن يختار الآن بين أن يستمر في كش الذباب الأخضر بين ساعاته المتفسّخة أمام التلفزيون، أو أن يحاول العودة إلى خشبة المسرح برغم كل شيء. ثم لم يفهم عبد الجليل حجازي ما الذي جعل رئيسة بتروفنا تقف أمام سينما غرناطة التي قصَرت عروض أفلامها المتواصلة في الليل والنهار على النازحين الذين اضطروا، بسبب غلاء أجرة البيوت وامتلاء هياكل البنايات غير المكسوّة وملعب كرة القدم والصالة الرياضية بهم، أن يحجزوا كلّ مواعيد الحفلات على مدار اليوم مقابل تخفيض ملموس بأسعار التذاكر. لم يعرف عبد الجليل حجازي طبعاً أن رئيسة بتروفنا كانت تبحث عن موستاش إلا في المساء، مع أن الأفكار المهمة التي بدأت تشغل بال موستاش منذ أيام ما كانت لتسمح له طبعاً بترف مشاهدة فيلم سينمائي طويل في ذلك الصباح. ثم ألفى عبد الجليل حجازي

نفسه مدفوعاً، تلقائياً، للّحاق برئيسة بتروفنا التي قفزت إلى مـــدخل السينما. كان قلبه قد بدأ يخفق بشدّة، وقد تملّك كيانه كلّه اضطرابٌ حلوٌ غير متوقّع. على خشبة مسرح سينما غرناطة بالذّات كان عبد الجليل حجازي قد مثّل الكثير من الشخصيات التي يتحرّق إليها الآن بعد أن فتّحتْ رئيسة بتروفنا جروحه القديمة قبل قليل. لمح ذيلها في اللحظة الأخيرة قبل أن تختفي في باب يفضي إلى صالة العـــروض في عمق المدخل بعد صعود بضع درجاتٍ كثيراً ما صعدها، هو نفســـه، في الماضي. كان قاطع التذاكر البدين نائماً على ساعديه في كابينـــه الصغير الخانق. و لم يكن ثمة أحد من العاملين على باب الـــدخول في هذا الوقت من الصباح، فانسل عبد الجليل حجازي، هو الآخر، إلى قلب الصالة، إنما برهبةٍ لذيذةٍ طالما رافقته هنا، كممثل مســـرحي، في اللحظات الأخيرة قبل ظهوره على الخشبة.

في ظلام الصالة المطبق لم ير عبد الجليل حجازي رئيسة بتروفنا، بل نابليون بونابرت واقفاً أمامه دون قبعته الشهيرة، إنمـــا بالبـــالطو الرمادي السميك المعروف الذي ينزل إلى تحت ركبتيه. كانت القاعة التي يقف فيها الامبراطور كبيرة جداً وفارغة إلا من مجموعـــة قـــادة عسكريين كبار متجهّمين صامتين ينظرون إلى نابليون، الصامت هو الآخر، والواقف قرب موقد كبير في الجدار. وكانت روسيا، قبـــل ذلك بسنتين فقط، قد طردت الامبراطور الفرنسي مـــن موســـكو وطاردته حتى جبال الألب. ثم اجتمعت عليه جيوش النمسا وبروسيا وإنكلترا، بالإضافة إلى روسيا طبعاً، ولاحقت فلول جيوشـــه حـــتى دخلت باريس قبل بداية الفيلم المعروض بقليل. وها هم الآن قـــادة جيشه الكبار قد توجهوا إليه في قصر فونتين بلو يطالبونه، مع دخول

عبد الجليل حجازي إلى صالة السينما، بالتنازل عن العرش. كان النازحون النائمون، في هذا الوقت من الصباح الباكر، يمزّقون، ببراءة وعمق وحياد تامّ، الصمتَ المرير الملغوم في القاعة الكبيرة، بشخيرهم الجماعي المتواصل المتلاطم بكلّ أنواعه المحتملة. لكنّ أحداً، في قاعة قصر فونتين بلو، لم يعرهم طبعاً أدنى اهتمام، حتى غطّى على جلبة غطيطهم، وهزّ جدران الصالة في الظلام المطبق حول عبد الجليل حجازي، صراخُ نابليون:

- لن أتنازل!

استيقظ طفل رضيع مفزوعاً من صراخ نابليون المفاجئ في الصالة الدامسة وانفجر بالبكاء.

حاول عبد الجليل حجازي أن يتجاهل الطفل المرعوب، فلا يشتت تركيزه على آلام نابليون التي بدأ يشعر بها بقوة. لكنه فوجئ، في تلك اللحظة أيضاً، برئيسة بتروفنا تقف الآن في أسفل الشاشة، بالقرب من موقد جدار قصر فونتين بلو، وقد انطبعت على فروها مربعات بلاط القاعة الكبيرة. كانت تنظر، هي الأخرى، باتجاه نابليون، لكنْ دون أن يبدو على ذيلها ما يوحي بالإرباك الذي أحدثه صراخه، قبل قليل، على وجوه القادة الفرنسيين الكبار في القاعة. ومع اقتراب نابليون البطيء من مقعد وحيد أمام الموقد، وجلوسه عليه، تحرّكت زاوية الكاميرا، بالبطء نفسه، فانزلق الموقد شيئاً فشيئاً إلى يمين الشاشة وأسفلها، حيث تقف رئيسة بتروفنا، وصارت ألسنة اللهب الخاملة أمام نابليون تتلوّى الآن فوق جسدها. كانت ما تزال تنظر باتجاه نابليون ببرود قريب جداً من اللامبالاة، وربما بشيء من الاستخفاف. ولو كان عندها المعلومات التاريخية

الكافية في تلك اللحظة، فكّرتُ عندما سمعتُ كل ذلك في المساء، للامته ربما لوماً صريحاً على عبقريته العسكرية التي جعلته يعبث بأوروبا طوال خمسة عشر عاماً، ولربما لن تكون راضيةً أيضاً عن اختزاله شعارات الثورة الفرنسية على مقاس قبعته الشراعية الضيقة حتى على رأسه المدعبل. لكن عبد الجليل حجازي عزا فوراً استخفاف رئيسة بتروفنا بنابليون بونابرت إما إلى معرفتها المجزوءة به، فأنت في النهاية لن تطالب كلبة محترفة في حديقة حيوانات بمعارف المؤرخين، أو إلى سوء تقديره هو بسبب المسافة البعيدة التي تفصله عنها. وقد ظلّ يغلي، بأمانة وسعادة تامّتين، بآلام نابليون الخرساء في الصالة المظلمة، ويشعر، في الوقت نفسه، بالضيق الشديد من الأم النازحة النائمة التي لم يوقظها حتى الآن بكاء رضيعها الصاخب في لحظة مصيريّة من حياة فاتح أوروبا الجاحدة. لم تكن، على كل حال، مثل هذه المنغّصات جديدة على خبرة عبد الجليل حجازي المسرحية، فالمشاهدون لا يكونون مثاليين دائماً. لقد عرف، في عروض سابقة كثيرة على هذه الخشبة بالذّات، كيف يمتصّ مفاجآتهم البغيضة دون أن يخرج من مشاعر البطل الذي يؤدّيه. ثم إنه يعرف ما سيحدث مع نابليون الآن، فقد شاهد هذا الفيلم مرات عديدة. ولن ينجح مشاهد صغير جداً، مهما فحّم من البكاء ومهما غرقتْ أمه البقرة المستهترة في النوم، في أن ينتزعه من الآلام المدهشة التي توحّده الآن، هو وليس رود ستايغر، مع نابليون بونابرت. لقد أحب عبد الجليل حجازي رود ستايغر ذات يوم من أجل هذا الدور، وبكلمة أدق من أجل هذه الدقائق المعدودة التي يراها الآن، والدقائق القليلة التي ستليها من الفيلم. لكنه اليوم، في هذا العرض الصباحي

المبكر جداً في سينما غرناطة، لم يشعر، لأول مرة، بـــالآلام الفنيـــة الجميلة التي رتّبها وعانى منها رود ستايغر عندما صوّر هذه الـــدقائق المذهلة قبل أكثر من أربعين عاماً، بل كان يشعر بآلام نابليون نفسه دون أيّ وسيط. وكنت، بالمناسبة، قد شاهدت فـيلم "واترلـــو" في موسكو، ووجدتُ، حين أشار لنا عبد الجليل حجازي إلى أهمية تلك الدقائق القليلة من الفيلم، أنه على حق. فالغالبية العظمى من وقـــت الشريط كان قد هدرها المخرج سيرغي بوندراتشـــوك باســـتعراض قدرته على تحريك آلاف الأفراد في معارك طويلة مضجرة متشابهة لا أكثر. وكان عبد الجليل حجازي، في تلك اللحظات الحاسمة المؤلمة في سينما غرناطة يعرف، تماماً كنابليون، أن رفضه التنازل عن العـــرش كان بسبب مراهنته على الفرقة التي يقودها الماريشال مـــارنو، الـــتي كانت ما تزال تدافع عن باريس كما كان يظن. لكـــن نـــابليون لم يكن يعرف، في هذه اللحظات الحرجة، أن الضابط الكـــبير الـــذي سيدخل بعد قليل إلى القاعة، إنما سيحمل له خبر استســـلام هـــذه الفرقة للنمساويين، الأمر الذي كان يعرفه جيداً عبد الجليل حجازي من مشاهداته السابقة للفيلم. وكان عليه أن يتجاهل معرفته هذه قبل دخول الضابط الكبير، لكي لا تفسد عليه مشاعر الذلّ المدهشة التي سيشعر بها مع نابليون عندما سيضطر إلى توقيع تنازله عـــن العـــرش وقبولِه النفي إلى جزيرة ألبا. وهذا ما حصل فعلاً بعد قليل مع نابليون بونابرت وعبد الجليل حجازي في وقت واحد. لكن عبـــد الجليـــل حجازي لم يتوقّع، في اللقطة الخارجية التالية، أن تضـــيء الشـــمس الساطعة في ساحة قصر فونتين بلو صالةَ المتفرّجين في سينما غرناطة. كان نابليون يتقدّم متثاقلاً مثل سبع جريح ليودع جنوده القـــدامى،

الذين رافقوه في كل المعارك، والمنتصبين الآن كالسيوف المسلولة نسقاً وراء نسق بكل بنودهم ونياشينهم وبيارقهم في منتصف ساحة القصر. ما كان ينبغي لعبد الجليل حجازي، في هذه اللحظات المؤلمة التي يعيشها كنابليون بونابرت، أن يلاحظ النازحين المكشوفين الآن، تحت شمس ساحة قصر فونتين بلو، شيوخاً وأطفالاً ونساءً غارقين في نومهم العميق، متراكمين لا على التعيين كالقتلى فوق كل المقاعد من حوله في الصالة وفي الممرات وفوق سطح الخشبة. كان عليه أن ينظّف حواسه منهم تماماً لكي يزيل كل الفروق المحتملة بين ما يمكن أن يدور في رأسه في الصالة وبين ما يمكن أن يدور في رأس نابليون على الشاشة. عندئذٍ فقط سوف يعيش مشهد الوداع الرهيب كما يليق به كممثل بارع، وسوف يتمكّن، تماماً كنابليون في ساحة قصر فونتين بلو، من الشعور بنفسه كما لو كان فرنسا تودّع جنودها الذين بذلوا أرواحهم دائماً في سبيلها، والذين ستغادرهم، ذليلةً مرغمةً، إلى منفاها في جزيرة ألبا بعد قليل.

- أيها الجنود، لقد سقطت فرنسا!

صاح نابليون مُتعالياً فوق آلامه.

وكان الطفل الرضيع المرعوب ما يزال يبكي بكل طاقته في الصالة.

- بعد سنين طويلة من وجودكم إلى جانبي جئت الآن أودعكم. إنني أحبكم جميعاً، لكنني لا أستطيع الآن أن أحضنكم جميعاً.

تابع نابليون، ثم تقدم بضع خطوات إلى الأمام حتى وقف قريباً جداً من سارية علم كبير لفرنسا. رفع رأسه، ونظر إليه، مذنباً كأنما

بعد كل حروبه العبثية الطويلة، ومعتذراً في الوقت نفسه، وأعـــزل، فوق ذلك، من أيّ أمل يقدمه إلى فرنساهُ الذليلة المنهكة الجريحـــة. ثم ما لبث أن مدّ أصابع يده إلى العلم المنسدل القريب حتى إذا أمســك بطرفه حنى رأسه أمامه، وقبّله.

- هذه القبلة تذكّروني أيها الجنود!

قال نابليون بصوت صارخ مخنوق، وقد سالت على خدّه دمعة وحيدة. وكانت هذه الدمعة فاصلةً بالنسبة إلى عبد الجليل حجـــازي الذي لم يعد قادراً على التحكّم بكلّ مشاعر القهر والمهانة والغضب التي كظمها نابليون أمام جنوده حتى الآن، فانفجر هو بكل جوارحه بنوبة بكاء مسرحيّ عالٍ ومتقن.

- تذكّروني يا أولادي!

تحشرج صوت نابليون في ندائه الأخير، فيما أدرك عبد الجليـــل حجازي أن بكاءه الصارخ المرير بدأ، لسببٍ ما، يخرج مـــن تحـــت سيطرته كممثلٍ محترف، فألفى نفسه يمعن به، كما يسقط في فخٍ غاوٍ مبتذلٍ عميق. وكان نابليون قد انفصل عنه وغـــاب الآن في عربـــة جرّتها الخيول بعيداً، حتى إذا اضمحلّ أثره في الأفق تماماً التفت عبـــد الجليل حجازي إلى صالة المتفرجين في سينما غرناطة. كان النازحون المنتشرون في كل مكان قد بدؤوا الآن يستيقظون على صوت نحيبـــه العالي المتواصل فوق رؤوسهم، وهم يتلفّتون من حولهم، مـــذهولين مرعوبين، بملامح مُغَضَّنة لم تتخلّص بعدُ من آثار النوم. فهـــم عبـــد الجليل حجازي طبعاً أن فارقاً جوهريّاً قد تنامى بقوة بـــين شـــعوره وشعور رود ستايغر بآلام نابليون في الدقيقتين العزيزتين الأخيرتـــين، فما كان يفعله هو، في واقع الأمر، ليس إلا انقياداً عاطفياً أعمى وراء

تلك الآلام، بينما لم يسمح رود ستايغر لنابليون بونابرت بغير دمعة وحيدة سالت على خدّه كأنما دون قصد. وكان مؤلماً لعبد الجليل حجازي أن تفتقر مشاعره العاصفةَ الآن إلى الحرفة والإيقاع والحدّ، فلم يعرف كيف يخرج، بثقافة الممثّل الرهيفة، من وحول النحيب النافل الذي صار يتخبّط فيه بكل قواه. ثم زاد من ألمه وحرجه أن بعض النازحين، الذين لا تنقصهم الكوابيس طبعاً، بدوا في عينيه كالممتنّين له على دموعه الصاخبة التي يذرفها من أجلهم. وكان مستحيلاً طبعاً أن يلفّق في ذهنه رابطةً، من أي نوع، بين تراكمهم التعسّفيّ بعضهم فوق بعض في صالة السينما وبين محاولته الركيكة في التملّص من شخصيته المملة القديمة في بضع دقائق فريدة تنازلَ فيها نابليون عن عرشه وغادر إلى جزيرة ألبا. كما كان من غير المعقول أيضاً أن يشرح للنازحين نصف النائمين الباعث الحقيقي لدموعه، فخرج من الصالة ناشجاً بها، كأنما بلا هدف. لم يجد ما يقوله لقاطع التذاكر الذي انتشله هو الآخر من أعماق نومه في كابينه الخانق. جعل ينظر إليه من كوّته الزجاجية المدوّرة بعينين زائغتين منفّختين مستفهمتين. أشاح عنه عبد الجليل حجازي، وتقدّم مشتّتاً في المدخل باتجاه باب السينما. نزل إلى رصيف الشارع، ونظر إلى السماء في الحال، فقد طغى على نشيجه فجأةً هدير طائرة أفرغت حمولتها المدوّية في مكان قريب من الغوطة المجاورة. لم يرها في الزرقة الواسعة الصافية، غير أن هديرها، المُتخافت المبتعد، قد نظّف رأسه تماماً من أيّ أثر لنابليون بونابرت. كأنه عاد الآن إلى حبْسِهِ القديم في شخصية الساعاتي القدير عبد الجليل حجازي، فلم يعد، نظرياً على الأقل، أيّ محتوى مباشر ملموس لبكائه المتواصل حتى الآن. تلفّت

من حوله. بدا له الشارع مقفراً تماماً، كما لم يره قطّ في حياتــه في مثل هذا الوقت من الصباح. ثم ظهرت أمامه فجأةً رئيســة بتروفنــا واقفةً أمام صيدلية الرشيد المغلقة على الرصيف المقابل تنظــر إليــه، فشعر، الآن فقط، بأنه ما يزال يبكي من الخوف لا أكثر. ثم خيّل إليه أن رئيسة بتروفنا راضية عنه الآن برغم كل شيء. قطع الشارع إليها كما يتهافت إلى أملٍ غامضٍ مباغت. غير أنها سرعان مــا تابعــت طريقها في الدخلة الصاعدة بمحاذاة عيادة الــدكتور عبــد الســلام العجيلي السابقة، فوقف على الرصيف يتابعها حتى غابت عن عينيه. وإذ التفت أخيراً نحو دكانه انتبه إلى أن الشارع لم يكن مقفراً كمــا خيّل إليه قبل قليل. لقد كان هنالك مارّة قليلــون متنــاثرون هنــا وهناك، لكنّ نساء ورجالاً وأطفالاً كثيرين آخرين كــانوا يقفــون متراصّين واجمين في طابور طويل أمام سيخ شاورما ضخم جــداً في محل مجاور- كان قد افتتح منذ أيام، وقيل إنه يفتح في الليــل والنــهار ويحضّر ألذّ شاورما ليس فقط في الحي الروسي، بــل في العاصــمة القديمة كلّها على الإطلاق. تقدّم عبد الجليل حجازي مــن النــاس الواقفين كمن يمشي في نومه، وقد بدأ بكاؤه يتخافت شــيئاً فشــيئاً حتى توقف تماماً عندما أخذ مكانه في نهاية الطابور.

IV

لابدّ أن رئيسة بتروفنا قد سلكتْ شبكةً من الأزقة المتعرّجة الضيقة حتى وجدتْ نفسها في الشارع العريض المنحدر إلى المركز الثقافي. ترددت قليلاً أمام المدخل، كما قال شرطي سير كان يراقبها من جزيرته الصغيرة بين المفارق الأربعة، ثم دخلت. تجاوزت، في فسحة المدخل الصغيرة، درجاً داخلياً يصعد إلى صالة المسرح، ثم وجدت نفسها أمام حديقة مستطيلة داخلية تفصلها حواجز زجاجية عن أربعة كوريدورات تحيط بها. انعطفت إلى اليمين في كوريدور طويل. ما كان يمكن رئيسة بتروفنا أن تصادف أحداً هنا، فباب المدير مغلق كالعادة، كما قال لنا الأستاذ معين أمين مكتبة المركز الثقافي عندما جاء إلى الحديقة، وكذلك بابُ إدارة محو الأمية نظراً إلى غياب الأسباب الملحّة التي يمكن أن تدعو الأمّيين إلى محو أمّيتهم في الظرف الحرج الراهن، وكذلك كان باب الفنون الشعبية للسبب ذاته. وكان الأستاذ معين قد لمح رئيسة بتروفنا من كوة الاستعارة في المكتبة حين انعطفت في الكوريدور الثاني إلى اليسار. لكنها لم تلاحظه في عمق الكوّة، بل تابعت بعينيها، من وراء الزجاج، ستائرَ قاعة المطالعة المسدلة إلى يمينها، حتى إذا وصلت إلى بابها الموارب تسلّلت إلى داخلها. طبعاً لا يمكن أن تجد أحداً هنا أيضاً. ثلاث مرواح سقفية شغّالة. طاولة مستطيلة ضخمة تتوسط القاعة تحيط بها مجموعة كبيرة من كراسي الخيزران، وعلى سطحها صحف كثيرة وجرائد ترفرف بعض صفحاتها بهواء المراوح. وعلى رفٍّ في صدر القاعة تلفزيون يلعلع لنفسه عادةً، منذ مدة طويلة، بالانفجارات

والخرائب واجتماعات مجلس الأمن والفيتو الروسي والصيني ونتـــائج رحلات موفد الأمين العام للأمم المتحدة الخاص بالمشكلة الســـورية. ولعلّ رئيسة بتروفنا دارت حول الطاولة، في محاولةٍ أخيرةٍ ربما، للعثور بين أرجل الكراسي الشاغرة على أثر كائنٍ حيّ عجوز صغير الحجم تبحث عنه منذ أول الصباح. وإذ لم تجده خرجت من القاعة. عندئذٍ فقط لاحظت في نهاية الكوريدور كوّة الاستعارة المفتوحة أمامهـــا. اتّجهت إليها، ثم وقفت على قائمتيها الخلفيتين، واستندت بقائمتيها الأماميتين إلى حرفها الخشبـــي المصقول. أصبح بوسعها الآن أن ترى أخيراً الأستاذ معين أمين المكتبة. كان جالساً وراء مكتبه الحديـــدي الصغير، يكاد لا يُرى، بين صفّين طويلين عاليين من الكتب. حيّتـــه رئيسة بتروفنا بنبحة خافتة ودودة. لا بد أنها قد عرفته، إذ ليس مـــن المستبعد أبداً أن تكون قد صادفته معي أو مع أبو علي سليمان وترك لديها انطباعاً حسناً بهدوئه ودماثته وصوته الخفيض. لكنها لم تفهـــم الآن ما الذي جعله ينهض من وراء مكتبه ويغيـــب بـــين الكتـــب، فصارت عيناها ترمشان بفضول. ثم سرعان ما عرفتْ، عندما ظهـــر أمامها في الكوريدور من بابٍ إلى جوار كوّة الاستعارة، أنه يدعوها للدخول إلى المكتبة، فدخلت. وكان الأستاذ معين لم ير قارئاً منـــذ مدة طويلة، فكان ظهور رئيسة بتروفنا فرصة لم يتوقّعها لبعث الحياة بين الكتب المكدّسة من حوله. انطلقت رئيسة بتروفنا في الممـــرات الضيقة الطويلة تمشي بين صـــفوف الكتـــب العاليـــة كالجـــدران، وتتصفح، بسرعة واهتمام، العناوين المتعاقبة أمام عينيها من الجانبين. اعتقد الأستاذ معين، الذي كان يتبعها، أنها كانت تتريث أحياناً أمام بعض المجلدات، وتمدّ خطمها إليها، كما لو أنها تشتمّ بين صـــفحاتها

المطبقة ألعاباً مسلّية، أو أصنافاً شهية لا تعرفها من الطعام، أو أفكاراً جديرةً بالانتباه، أو أحداثاً نبشها المؤلفون من الماضي البعيد من أجل الكائنات الموجودة على قيد الحياة حتى الآن، وخصوصاً لمن بلغ سنّ الرشد من الكلاب والبشر وبقية الحيوانات الأخرى، ليستخلصوا منها الدروس والعبر. غير أن الأستاذ معين كان يُفاجَأ، وهو يمضي وراء رئيسة بتروفنا، بالغبار السميك المتراكم على سطوح الكتب المتراصّة الواقفة وعلى حروف الرفوف. وعندما استوقفتْها ثلاثُ كراتين مغبرّة مختومة، وتشمّمتها من أماكن مختلفة، ثم نظرت إليه تستطلع، كأنما، رأيه بها، شعر الأستاذ معين بما يشبه الحرج الشديد. ثم أجابها بعد صمت ثقيل قصير، بصوت مذنب تقريباً، بأنها كتب جديدة لم يُدخلها، للأسف، في جداول الكتب المتداولة؛ لأنه لم يُحضّر بعدُ بطاقات التعريف بها، فظلّت، كما ترين، بعيدة حتى الآن عن أيدي القراء. وكان يستطيع طبعاً أن يبرّر لها تقصيره هذا بغياب القراء شبه الكلّي عن المكتبة منذ فترة طويلة. لكنه أمام الإخلاص، الذي كانت تستعرض به رئيسة بتروفنا صفوف الكتب ومحتوياتها المختلفة، اعترف لها بأن القراء، بالنسبة إليّ، يجب أن يكونوا طبعاً محتملين في أي لحظة، مهما أكلوا وشربوا واستحموا وثرثروا وتكاثروا وناموا أمام التلفزيونات. ثم إنني، في الواقع، أستطيع، إذا شئتُ، أن أرسل شاحنتَيْ المركز المغلقتين كمكتبتين متنقّلتين إلى شوارع الحي. وهذا ما ينبغي عليّ أن أقوم به، وسوف أقوم به حتماً في أقرب فرصة على أيّ حال. إن القارئ عندنا، كما تعرفين، قد سلّم منذ مدة طويلة بأنه مشروع ضحية قادمة لا أكثر، ومن ثم فقد عملياً أي اهتمام آخر بغير الإقبال الأعمى على الطعام والشراب

والتناسل الروتيني بِشَكلَيْه الشرعي وغير الشرعي على حــدّ ســواء. لكن ذلك لا ينبغي أن يعني لنا، في مكتبة المركز الثقافي، إعفاء أنفسنا من الاستمرار في عملنا- في أن نكون وسطاء صبورين بين القــارئ وبين الكتاب مهما باعدت بينهما الظروف والأيــام الســوداء. ثم استغرب الأستاذ معين من أن هذه الأفكار العملية لم تخطر بباله قبــل زيارة رئيسة بتروفنا، فشكرها على حضورها المثمر والموحي. ومــع اقترابها من الباب، في نهاية جولتها بين الكتب، فهم الأستاذ معــين، من عينيها القلقتين، أنه لن يتمكّن من استبقائها أكثر من ذلــك في المكتبة. بيد أنه تمكّن قبل أن يفتح لها الباب من أن يتمنى عليها بحرارة أن تكثّف ظهورها، ما أمكنها، في المركز الثقافي عموماً، وفي المكتبة على وجه الخصوص. وإذ أصبحت رئيسة بتروفنا في فرجــة البــاب همهمت لنفسها بنبحة خفيضة غير مكتملة، معبّرةً على الأغلب عــن خيبتها من عدم عثورها على موستاش العجــوز حــتى الآن. لكــن الأستاذ معين فهم همهمتها تلك تعبيراً صريحاً وواضحاً ليس فقط عن قبولها دعوته المفتوحة لزيارة المكتبة متى شاءت، بــل عــن رضــاها وسعادتها بأفكاره العملية، خاصة تلك المتعلّقة بالمكتبات المتنقّلة، وأنها سوف تشعر بسعادة أكبر يا أستاذ معين إذا وجدتْ هــذه الأفكــار الحيويّة في الزيارة القريبة القادمة مترجمــةً إلى أرض الواقــع. وبعــد خروجها مرة أخرى إلى الكوريدور، لمحت رئيسة بتروفنا، من خلال حواجز الزجاج التي تحيط بالحديقة الداخلية، بابَ المركز الخــارجي الذي أدخلها، فاتجهت إليه. لكنها، عندما وصلت إلى فسحة المدخل الصغيرة، انتبهت الآن إلى الدرج الداخلي الذي يفضي إلى المسرح في الأعلى، فصعدت إليه. لا بدّ أنها تعشّمت بلقاء موستاش هنــاك مــا

دامت لن تيأس من العثور عليه في كل الأحوال. ولعلّها كانت على درايةٍ كلبيةٍ ما بفنّ التمثيل، فلم تستبعد مثلاً أن تكون لدى موستاش، هو الآخر، درايةٌ كلبيّةٌ أعمق من درايتها وأكثر دقّةً بهذا الفن بالنظر إلى نباهته وفضوله الشديدين. ثم لم تكمل طريقها، بعد نهاية الدرج اللولبيّ، في الممرّ الملتوي الضيّق الذي يفضي إلى صالة المتفرجين. لا بد أنها انتبهت بعد بضع خطوات فقط إلى درج آخر، خشبي قصير هذه المرة، أخذها إلى كواليس المسرح شبه المعتمة. صادفتها هنا أشياء توقعتها ربما- بقايا ديكورات قديمة كساها الغبار، كراسي خيزران سليمة وأخرى مُخلّعة، طاولات، أشجار مصبوغة ذات قواعد خشبية تثبّتها على الأرض، ملابس متنوّعة مكوّمة فوق صندوق عالٍ ذي أدراج كبيرة مفتوحة، أخشاب غير مفهومة مبعثرة هنا وهناك، وأقنعة ولحى مستعارة وطرابيش وعمائم وسيوف وبنادق قديمة معلّقة حول مرآة مغبّشة كبيرة. ولعل رئيسة بتروفنا قد تمشّت قليلاً بمحاذاة الستائر السود المسدلة من السقف قبل أن تتسلل من بينها لتظهر على الخشبة. هل كانت رئيسة بتروفنا تتوقع إطلالتها الآن على صالة المتفرّجين الكبيرة؟ ربما. غير أنها تريّثتْ في مكانها مبهورةً حتماً بمئات المقاعد الفارغة المتوجّهة إليها وحدها، والمصطفّة بانتظام مذهل، صفاً وراء صف وراء صف، دون أيّ وهسٍ أو حسّ. وكما يمضي ممثلٌ إلى مكانه المحدّد بعد رفع الستارة مباشرةً تابعت رئيسة بتروفنا تقدّمها إلى الأمام لتؤدّي دورها، كأنما، بمزيجٍ من الرهبة والفتنة والشجاعة. وإذ وصلت أخيراً إلى مقدمة الخشبة شمخت برأسها إلى الأعلى، وانفجرت بنبحةٍ قوية.

ضاعف الفراغ الهائل والسكون المطبق في الصالة من وقع

نبحتها المجلجلة المهيبة.

انتظرتْ رئيسة بتروفنا في مكانها تترقّب بانفعالٍ شديد، متوقّعةً كأنما إجابةً واضحة محددة على نبحتها الواضحة المحددة.

لم يجب أحد طبعاً.

غير أنها ميّزت فجأة شخصاً ينهض بصعوبة من مقعدٍ منـــزوٍ في الصالة، فزامت عليه فوراً بنبحةٍ متوعّدةٍ أطلقتها باتجاهه مـــن وقـــع المفاجأة لا أكثر، ثم سرعان ما أتبعتها بنبحة مُرَحّبة، إذ عرفته حـــين أقبل عليها بخطواته البطيئة في الممر بين المقاعد. قفزت من الخشبة إلى أرض الصالة واتجهت دون تردّد إلى أصابع يده التي بدأت في الحـــال تعبث بفروة رأسها بمودةٍ وخمول.

V

أركادي كوزْمِيتش كاتب روسي مغمور عاش في موسكو مع زوجته خمسة وثلاثين عاماً، ولم يعتقد في يوم من الأيام أنه يحبّها حباً شديداً، كما روى مراراً لي ولنونا ولفيكتور إيفانيتش ولرئيسة بتروفنا في حديقة الحيوانات. لم يكن ينفر من زوجته طبعاً، ولا تمنى، حتى في أحلك أحلام يقظته، أن يتخلّص من رؤيتها إلى جانبه في الصباح وفي المساء وطوال الليل. كان في الواقع لا ينزعج منها كثيراً حتى حين تتبرع له، بعد كأس من النبيذ على العشاء، بآرائها في الفن والأدب والسياسة، مع أن مؤهلاتها الضيقة، كمحاسبة في مطعم شعبي يخبز المعجنات، لا تسمح لها بذلك. كان عموماً لا يشغل نفسه بمساوئها ولو برهنت عليها عن سابق عمد، كأن تنسى مفتاح الشقة، الخاص بها، على طاولة الطعام في المطبخ، لكي تُلْزِمه، إذا كان سيخرج، أن يلحقها به إلى مكان وجودها، أو أن ينحبس في الشقة ريثما تعود. وقد صادف أنه اشتاق إليها مرةً واحدةً بوضوح شديد. كان ذلك عندما سافرت من دونه إلى البحر الأسود ذات صيف، وصار، من شدة خوفه عليها، يخترع لها في بالِهِ المصيبةَ تلو المصيبة حتى عادت إلى المنزل بسلام. صحيح أن هذا الشوق الفريد لم يتكرّر قطّ بهذه الحدّة، وأنه هو نفسه قد اعتبره في اليوم التالي نوعاً من مبالغة المشاعر في التعبير عن الوحدة، وربما عن الكبت الجنسي في حدوده السطحيّة الرصينة طبعاً. غير أن شوقه غير المألوف ذاك كان، كما ثبت له بعد فوات الأوان، إشارةً بليغة، من الأقدار ربما، لم يفها حقها من الانتباه الكافي في الوقت المناسب. لكنّ أركادي كوزْمِيتش، برغم كل

مآخذه التي لا تُحصى على زوجته طوال حياتهما المشتركة، كان دائماً يُكْبِر فيها أنها تتعايش بسلام مع سلوكه، في البيت وأمام الأصدقاء المُقرّبين، ليس كأستاذ مدرسة، بل ككاتب لم تسنح له الفرصة، بعدُ، ليؤكّد موهبته الكبيرة بكتاب مطبوع يحصد له شهرته الواسعة المتوقعة التي يستحقها. ومن ناحيتها لم تكن زوجته تُظهِر له، ولا لغيره، أنها تأكل وتشرب وتنام مع عبقري محتمل في أي لحظة. لم يكن أركادي كوزْمِيتش يعرف حقاً ما إذا كانت زوجته مؤمنة بموهبته، أو بجدارة أيٍّ من الأوراق التي كان يحبّرها يومياً أمامها بأي قيمة جدية. وكان يقدّر لها أنها لا تسأله عن مدى إيمانه، هو، بما يكتب. في كل مرة كانت تراه يستلم من البريد المضمون مخطوطة له مرفقة برسالة اعتذار عن عدم نشرها من إحدى دور النشر، كانت تتابع غسيلها إذا كانت تغسل، وتكمل تحريك الطعام أمامها إذا كانت تطبخ، وتمضي في طريقها إلى الحمّام إذا كانت متوجّهة إلى هناك، كما لو أن شيئاً استثنائياً يستحق الاهتمام أو التعليق أو التساؤل لم يحدث ولا يمكن أن يحدث. وحين كان، في كل مرة، يقرأ عليها الأسباب غير المقنعة والظالمة التي يتذرع بها الناشرون عادةً لرفض أعماله كانت تصغي إليه بحياد إيجابي عفوي، تماماً كما تصغي إلى معدلات رطوبة الهواء في نشرة أحوال طقس الأيام القليلة القادمة من إذاعة ماياك. حتى عندما كان يمرض كانت تقوم بكل ما يمكن أن يحتاج إليه مرضه من الرعاية باعتبار ذلك نوعاً من عمل إضافي اعتيادي يقع على عاتقها من فترة إلى أخرى، وليس تعبيراً عن عمق المشاعر الطيبة الممكنة مثلاً مع صاحب المرض. وكان أركادي كوزميتش نفسه يعتبر مثل تلك الرعاية، وغيرها من الخدمات المشابهة

التي يمكن أن يتبادلاها بتلقائية خالصة، من جملة البداهات الأسرية التي تفقد حرارتها مع الوقت، وإن كانت لا تخسر كلّ فعاليتها في منع تحول العلاقة الزوجية إلى علاقة عدوانية صريحة.

باختصار، لم يصدّق أركادي كوزميتش أنه كان يحب زوجته حباً شديداً إلا في الأيام القليلة التي أعقبت وفاتها المفاجئة. كل شيء في الشقة أصبح بعد غيابها، بدءاً من نسختها من مفتاح الباب وانتهاءً بأصغر صحن في المطبخ، يذكّره بها ويلومه على أشياء كان قد فعلها في حياتها فسرّعتْ، ربما، بنهايتها المفاجئة، وعلى أشياء لم يفعلها كان يمكن أن تُبعد عنها هذه النهاية المأسوية ولو لبضعة شهور. وقد لاحظ أركادي كوزميتش أنه يظل ساكتاً في هذه الأثناء، كما لو أنه يقرّ بذنوبه المحتملة فعلاً بحقّها أمام السرير المتجهّم الذي طالما جمعهما معاً دون تنغيص، والخزانة المتبرّمة التي طالما احتوت ألبستهما معاً دون تمييز، والكراسي التي طالما جلسا عليها معاً بسلام، والصحون والملاعق والكؤوس والممالح التي طالما استخدماها معاً دون أن يشعرا بها. ثم فهم أركادي كوزميتش أن أيامه، على هذا المنوال، ستكون معدودة على الأغلب بعد رحيل زوجته، وأنه، في كل الأحوال، سيبقى مذنباً للأبد أمام كلّ قطع الأثاث وأواني المطبخ وحوض الحمام وصندوق الأحذية في الموزّع ومسكات النوافذ وأبواب الشقق المجاورة والجيران وأطفالهم وكلابهم ودماهم ومصعد البناية وبابها ورصيف الشارع وصفّ أشجار الزيزفون بمحاذاة سور المدرسة المقابلة والمقعد الأخضر الذي أصبح يستريح عليه وحده في نزهة المساء. وما زاد من صعوبة التعامل بينه وبين الأشياء والأحياء من حوله أن إحالته من وظيفته، كأستاذ مدرسة، إلى التقاعد قد تزامنت،

في تلك الفترة، مع الأيام العاصفة في مطلع تسعينيات القرن الماضي عندما لم يعد الروبل يشتري له نصف كيلو غرام من اللحم، بل علبة ثقاب لا أكثر. وإذ التفت إلى الخمسة عشر ألفاً من الروبلات التي صمّدها أولا بأول على مدى سنوات طويلة، فوجئ بأنها لم تتحمل تكاليف طعامه المتوازن المتواضع لأكثر من شهر ونصف، بينما كانت ذات يوم تشتري له سيارة لادا جديدة. وجد نفسه بعد ذلك وجهاً لوجه أمام راتبه التقاعدي المنهك الذي لم يعد يقيته يومياً بأكثر من صمونة خبز واحدة وعلبة حليب. وكان مفهوماً، والحال هذه، أن يتذكّر الكلمة التي وضعتها في أذنه ابنتُه المتزوجة عندنا في الحي الروسي عشية عودتها إلى بيتها بعد دفن أمها، ومفادها أن زوجها لا يمانع، بل يصر على انتقالك الآن إلى دمشق. قدّر أركادي كوزميتش لابنته وزوجها دعوتهما في ذلك الحين، واعتذر عن عدم تلبيتها، متعللاً بأنه لا يريد أن يبتعد كثيراً عن قبر زوجته. لكنه، بعد كل المستجدّات القاسية التي حصلت في حياته مؤخراً، اقترب ذات مساء من جهاز الهاتف وأجرى اتصالاً مع ابنته في عاصمتنا القديمة. سألها أسئلة متلاحقة عن أحوالها وأحوال أسرتها، ثم سكت حين سألته عن أحواله. وهنا تذكّرت ابنته دعوتها القديمة إليه، فأعادتها عليه الآن بإلحاحٍ جديد. وكان قد ضغط سمّاعة الهاتف على أذنه ليصغي إليها بانتباهٍ شديد، ويتأكّد من نبرة صوتها أنها وزوجها ما يزالان مهتمّين حقاً بانتقاله إلى دمشق. أخبرها بعد ذلك باستعداده لأن ينفق أيامه المتبقية إلى جانبها في الحي الروسي. ثم صفّى أموره بموسكو في غضون فترة قصيرة. وفي عشية رحيله اشترى ثلاث وردات حمراء وذهب إلى المقبرة. وضع الوردات على قبر زوجته الحبيبة وقرفص

أمامها. شرح لها، بصوت خافت، راتبَه التقاعدي بالتفصيل، وكذلك الجفاء الضاري الذي تُبديه الأشياءُ له من بعدها في كل مكان عرفاه معاً في الماضي. ثم في ظهيرة اليوم التالي، عندما حلّقت به الطائرة في السماء، تمنّى لو يلقي من النافذة نظرة أخيرة من الأعالي إلى عشرات السنين التي عاشها في مدينة ربما لن يراها بعد الآن إلا في أحلامه القليلة. غير أن ثلاثة من المسافرين الجالسين إلى يمينه كانوا يفصلونه عن نافذة الطائرة، فشعر بأن مدينة عمرِه تضمحلّ الآن تحته إلى الأبد، فيما كان ينظر إلى النافذة الصغيرة، من مكانه، ويشاهد جبالاً هشةً من رغوةِ غيمٍ أبيض على مدى النظر لا أكثر.

VI

في تمام الساعة السابعة من صباح هذا اليوم، بالحي الروسي، استيقظ أركادي كوزميتش على رائحة شواء تتسرب مع ضوء الشمس إلى غرفته من النافذة المغلقة. جلس على حافة السرير ولمح على الأرض إلى جوار الكومودينو رسالةً قديمة. التقطها وقلّبها بين يديه. كانت مرسلة إليه منذ سنوات، من دار نشر في مدينة خاركوف، مع الاعتذار المعهود عن عدم نشر رواية كان أرسلها إليها في ذلك الحين. لا بد أن الرسالة سقطت من بين مخطوطاته، حين أخرجها ليلة البارحة من قلب الكومودينو وقرأ مقتطفات لا على التعيين من هنا وهناك، كما اعتاد أن يفعل كلّما شعر بحاجة إلى مُحَفِّز جديد إلى الكتابة. وكان منذ مدة طويلة قد تخلّص من الشعور بالغبن بعد كل رسالة مؤسفة من هذا القبيل، وما عاد يجد رغبة في نفسه لقراءة أيّ من هذه الرسائل أكثر من مرة سريعة واحدة قبل أن يلقي بها في سلة المهملات دون تردد ولا ندم. ما الذي جعله، إذاً، يحتفظ بهذه الرسالة بين مخطوطاته حتى الآن؟ لم يفهم. نهض من الفراش وفتح النافذة، ثم عاد إلى الرسالة. فتحها وقرأ الكلمات نفسها التي لا تختلف، إلا بالترتيب وبعض الفواصل، عن تلك التي طالما قرأها في رسائل الاعتذار الشبيهة الأخرى على مدى سنين طويلة. لكنّ أركادي كوزميتش لم يرمِ هذه الرسالة في سلّة المهملات الآن أيضاً. وضعها على ظهر الكومودينو، ثم شغّل التلفزيون وذهب إلى المطبخ. عمل لنفسه فنجان قهوة وعاد إلى غرفته. وضع الفنجان على حرف النافذة، ثم قرّب كرسياً إليها وجلس أمام شجرة نخيل تشرف على

غرفته من حديقة عامة مجاورة. لم ينظر إلى الرسالة التي كانت ترعاه الآن مثل جرح قديم تحت قميصه الداخلي. انتبه إلى عذوق النخلة الجميلة العالية، وإلى رائحة الشواء التي أيقظته قبل قليل، وقد امتزجت الآن برائحة بلاستيك يحترق ودويّ طائرات. ثم ما لبث أن تحسّس من بعيد رابطةً محدّدة بين الطائرات ورائحة الشواء والرسالة على ظهر الكومودينو عندما ارتجّ زجاج النافذة وباب الغرفة مع انفجار قويّ قريب. الطائرات، كالعادة منذ مدة طويلة، تقصف جيراننا في الغوطة، قدّر أركادي كوزميتش. وخلف ظهره كانت الطائرات نفسها تقصف في تلفزيونه مكاناً أبعد من الغوطة لا يعرفه على الأغلب. أخذ رشفة من القهوة، وقد ميّز الآن رائحة بارود مشتعل تندمج شيئاً فشيئاً مع رائحتَيْ الشواء والبلاستيك المحروق ودويّ الطائرات. في الرواية، المتعلقة بالرسالة المستلقية على ظهر الكومودينو، توجد رائحة شواء مشابهة وطائرة أيضاً، إنما ألمانية. لم تكن الرواية عن الحرب، بل عن الحب. كان أركادي كوزميتش، وما يزال، لا يحب الحرب ولا الحديث أو الكتابة عنها، ولا يرى فيها إلا عملاً إجرامياً وجنونياً أياً كانت أسبابها، ومهما جمّلوها بالغايات الوطنية النبيلة أو الرسالات السامية. غير أنّه اضطر، كمؤلف، إلى استخدام الحرب العالمية الثانية في مطلع الرواية لكي يموت ساشا تلميذ الصف التاسع بطائرة ألمانية تسبّبت بحريق ضخم في مدرسته أثناء الدوام. وقد مكّن أركادي كوزميتش تلك الطائرةَ من أن تفعل ذلك بسرعة لافتة، إذ لم يستغرق تحليقها في روايته أكثر من ثلاثة سطور من ذكريات بطلته تانيا، تلميذة الصف التاسع، التي نجت من الحريق. أما رائحة اللحم المشوي المتصاعد من أنقاض ومحتويات المدرسة الملتهبة فقد سبّبتْ لبطلته

مشكلةً مزمنةً كادت تطيح زواجها بعد سنوات؛ لأن ساشا، الـــذي استهدفه المؤلف في أول الرواية بالطائرة الألمانية، كان حبيبـــها الأول، بينما كان زوجها فاديم يحب حفلات الشواء في الهـــواء الطلـــق ولا يستغني عنها بمناسبة أو بدون مناسبة. لم ينتبه أركادي كوزميتش وقتها إلى رائحة البارود، التي كان من الطبيعي أن تشمّها تانيا عندما كتـــب الرواية، تماماً كما يشعر بها الآن في الحي الروسي مع رائحتَيْ الشـــواء والبلاستيك المحروق ودوّي الطائرات. رشف أركـــادي كـــوزميتش رشفة قصيرة أخرى من فنجانه وفكّر بالبلاستيك. مـــن أيـــن جـــاء البلاستيك؟ خطرت بباله الأحذية البلاستيكية الرخيصة، ومعملٌ، ربما، ينتجها الآن هناك في الغوطة تحت الطائرات مباشرةً. ثم مـــا لبـــث أن مرّر، ذهنياً على الأقل، فكرة أن تنبعث رائحة البلاستيك المحروق مـــن تلفزيونه الذي يدوّي هو الآخر وراء ظهـــره، أو حـــتى مـــن قلـــب الكومودينو، من المخطوط نفسه الذي أعادوه إليه ذات يـــوم بالبريـــد المضمون من خاركوف. ثم بدا له الاحتمال الأخير ممكناً وضـــرورياً. لقد فاته فعلاً أن يشير ليس فقط إلى رائحة البارود المشـــتعل، بـــل إلى رائحة البلاستيك المحروق أيضاً في المدرسة التي تخيلها في أول الروايـــة وجعل الطائرة الألمانية تضرم فيها النار ذات صباح. لقد تأكّـــد الآن، بفضل الخبرة الواقعية التي يكتسبها في هذه اللحظات في الحي الروسي، أن رائحة البارود ورائحة البلاستيك المحروق متلازمتان حقاً مع رائحة شواء اللحم في أيّ حريق هائل يمكن أن ينشب فجـــأةً قبـــل ســـاعة الانصراف في أيّ معمل بلاستيك يقع الآن في غوطة دمشق، أو في أيّ مدرسةٍ محتملةٍ جداً تحت الطائرات المغيرة نفسها هناك. البارود مفهوم حتماً ودائماً في مثل هذه الأحوال، وكذلك الشواء لا غبار عليه هنا،

أما البلاستيك، الذي حيّر أركادي كوزميتش قبل قليل، فلا يمكـــن أن تخلو منه المدارس في كل مكان- شنطات التلاميذ، المماحي، المساطر، البرّايات، الأقلام الناشفة، شكّالات الشـــعر في رؤوس التلميـــذات، الأساور حول معاصمهن، الخواتم الملونـــة حـــول أصـــابعهن، أزرار صداريهن وقمصانهن، ياقاتهن المدرسيّة المخرّمـــة البيضـــاء، مطّـــاط سراويلهن وجواربهن، الدمى الصـــغيرة الممكنـــة دائمـــاً في الأدراج، سبّورات الصفوف، سلال المهملات، أصص النباتـــات في الممـــرات، الكراسي البيضاء في غرفة المعلمات، أحزمتـــهن، حقائبـــهن، علـــب المكياج فيها، الأمشاط، أقلام الحمرة ومحـــافظ النقـــود، ثم علاقـــات الملابس، مآخذ الكهرباء، أسلاكها الملبّسة بالبلاستيك، كرات السلة، البينغ بونغ، الريشات الطائرة، الكرات الأرضية في دروس الجغرافيـــا، والهياكل العظمية في دروس العلوم. لا شيء يمنع أركادي كـــوزميتش طبعاً من استدراك هذا النقص الآن بعد كل هذه السنين؛ فالرواية مـــا زالت مخطوطاً لحسن الحظ، ويمكنه، في أيّ لحظة، إضافة بضع كلمات ضرورية جديدة إلى تلك الحرب القديمة التي اضطرّ إلى أن يفتتح بهـــا الفصل الأول من روايته لأسباب فنّيةٍ محضة. لم يكن إذاً دون جـــدوى الاحتفاظ بهذه الرسالة بالذّات حتى الآن. الرسالة في الواقـــع دعـــوة صريحة، في الوقت المناسب، بضرورة العودة إلى الروايـــة وتصـــحيح الحريق في ذاكرة بطلته تانيا. لكن أركادي كوزميتش لن ينكـــبّ الآن على ذلك. إن خبرته الواقعية بهذا النوع الخاص من الحرائق يمكـــن أن تتعمّق، في أيّ لحظة، بالطائرات نفسها التي ما تزال تدوّي في الســـماء الآن، وبما يمكن أن تخلّفه وراءها من التفاصيل الحيّة التي لا غنى عنها في جعل الفظاعة، التي لا تُصدّق، ممكنةً ليس في الواقع فقط، بـــل علـــى

الورق أيضاً. ثم إن انشغاله الآن مباشرةً بالرواية سوف يعني امتناعه اليوم عن الذهاب إلى طلابه في معهد اللغة الروسية لدى المركز الثقافي في الحي الروسي، الأمر الذي لم يغامر به قطّ تحت وطأة أيّ ظرفٍ طارئ أو أيّ سبب قاهر. إنّ دروس اللغة الروسية، التي يحرص كل الحرص على إعطائها في مواعيدها الدقيقة، تعاني أصلاً من صعوبات جدّية لا يمكنه تجاهلها بأيّ حال. لقد أصبح عدد الطلاب، في المعهد عموماً، يقل شيئاً فشيئاً منذ بدأت الدبابات والمدافع الثقيلة وراجمات الصواريخ وناقلات الجنود تخترق شوارع الحي الروسي إلى حدوده مع الغوطة. وفي واقع الأمر لم يعد يرى أحداً من طلابه في الصف سوى سركيس الحلاق وطبّال الكباريه عزّ الدين، وفي أحيان نادرة تظهر معهما، ظهوراً لا يُعوّل عليه، الطالبة العجوز أم سعيد الشهيرة بتمسيد الأطفال المبروقين. وهنا انتبه أركادي كوزميتش فجأةً إلى المنبّه فوق مكتبه، فشرب رشفة القهوة الأخيرة من فنجانه، وتأكّد، بنظرةٍ سريعةٍ إلى ساعة يده، من أن الوقت قد حان لحمّامه وحلاقة ذقنه قبل أن يتوجه على مهله إلى المركز الثقافي. لم يلتفت حين خرج من الحمام إلى الرسالة فوق الكومودينو، ولا شعر، وهو يرتدي ملابسه، بروائح البارود والشواء والبلاستيك. غير أنه حين نزل إلى الشارع ورأى على باب البناية قطةً نافقة، تذكّر الطائرة في روايته ونظر إلى السماء. لا طائرات الآن. سماء صافية وغيوم بيضاء صغيرة متفرقة لا أكثر. مع ذلك لا شيء يُطَمْئِن أبداً في سماءٍ مشتركةٍ بين الغوطة والحي الروسي، قال لنفسه بصوت خافت. ثم تابع طريقه، وهو يفكّر في شيئين: أهمية اللغة الروسية في حياة البشر حتى في أحلك الظروف، وأهميته بالذات كمعلّم منذ مطلع شبابه حتى الآن. إنه لا ينكر طبعاً فضل زملائه

القديرين في الحي الروسي، وعلى رأسهم المعلمة ناتيلا لفوفنا التي سبقته إلى هنا وذاع صيتها منذ سنوات طويلة. غير أن ما قدّمه هو، وما يزال يقدمه، في هذا المجال لا يرقى إلى أهميته، برأيه، إلا تأسيس معهد اللغة الروسية لدى المركز الثقافي في الحي الروسي على يدي الأستاذ الجليل المرحوم عثمان أصلانيتش. نعم لقد تعلّم الطلاب- الباعةُ والتجار والمتبطلون الميسورون والعشاق ورجال الأعمال والقوادون والعاهرات غير الروسيات وضحايا السياسة والأدب والفن وسوء الطالع، أولئك الذين لا تربطهم أواصر قربى أو دراسة أو معرفة قديمة مع آلاف الروس والروسيات هنا- تعلموا كيف يتفاهمون بالروسية عند الحاجة بأقصر الطرق الصحيحة، لكنهم لم يتعلموا كيف يتكلمون الروسية ويستمتعون بكلامهم بها إلا بعد مجيئه هو أركادي كوزميتش المعلم المحترف والكاتب المتخفّي الذي يدرك سحر الكلام. وكان اقتناعه بالأهمية الاستثنائية للغة الروسية مع أهمّيته كمعلم يزداد رسوخاً في باله هذا الصباح مع تدفّق خطواته الحثيثة باتجاه المركز الثقافي. ولذلك لم يصدّق عينيه، عندما وصل وفتح باب صفّه هناك، أن يكون الطبّال عز الدّين وسركيس الحلاق قد امتنعا معاً عن المجيء إلى درس اللغة الروسية هذا اليوم. كان الصف فارغاً تماماً. ذهب إلى غرفة المدير وتأكّد هناك من أن أياً من الطالبين لم يبرّر غيابه باتصال هاتفي بمدير المركز الثقافي مثلاً، كما يمكن أن يفعل طالب حريص على استمرار صورته الحسنة لدى أستاذه على الأقل. كان أركادي كوزميتش يأمل، دون أيّ أساسٍ طبعاً، بأن يكون لغيابهما أسباب شخصية محضة لا علاقة لها بما يجري في الحي الروسي وما حوله، فبدا أمام مدير المركز في تلك اللحظات كالمتأكّد من قدوم طالبيه الأخيرين

إلى الدرس القادم. ثم كاد يبتسم دون اكتراث، وهو ينظر إلى قلم رصاص مستلقٍ على سطح الطاولة قرب أصابع المدير. دعاه المدير الحصيف إلى فنجان قهوة بتعاطف زائد عن الحد، وكان ينظر إليه مباشرة، وقد بدا كالخبير المتأسّف على خسارةٍ محققة. عرف أركادي كوزميتش عندئذٍ أنه، إذا بقي أكثر من ذلك في الغرفة، فسوف يقترح على المدير، بنزاهة وإحباط، أن يعفيه من تعليم اللغة الروسية إذا كان متأكّداً فعلاً من أن أحداً من التلاميذ لن يحضر بعد الآن. وكان ذلك أكبر من طاقته على التحمّل في تلك اللحظة على الأقل، فظل ينظر إلى قلم الرصاص المستلقي على سطح الطاولة كأنه لم ينتبه إلى التعاطف الزائد الذي يُحاط به من قبل المدير. ثم سمع نفسه يعتذر من المدير ويعده، بصوت واقعي خافت وخائب، بأنه سوف يشرب عنده القهوة غداً، أو بعد غد على الأغلب، لتسوية بعض الأمور التي لا بد أخيراً من تسويتها. ثم خرج من الغرفة، وألفى نفسه وحيداً في الكوريدور. فكّر أن رجلاً عجوزاً محترماً مثله، ما زال يتمتّع بكامل طاقاته الذهنية وغير القليل من إمكاناته الجسدية المتماسكة حتى الآن، لا يمكن أن يشكّل عبئاً على أحد في كل الأحوال. سوف يعرف حتماً، بالصبر والفطنة وهدوء الأعصاب، كيف يكون مفيداً في المكان المناسب. ثم شعر كأنما بالتعب، ووّد لو يجلس على العشب في الحديقة الداخلية المستطيلة التي تطل عليها الكوريدورات عبر ألواح الزجاج من كل جانب. غير أنه انتبه، في تلك اللحظة فقط، إلى أن روائح الشواء والبارود والبلاستيك قد ازدادت كثافةً من حوله في المركز الثقافي، فتجدّدت قواه فجأةً، كما لو أنه لم يتكبّد خسارة مؤلمة قبل قليل. ثم ما أراد أن يبدّد وقته عبثاً هنا وهناك. مضى فوراً إلى نهاية الكوريدور

بخفّة رجلٍ يقوم بعملٍ لا غنى عنه ولا بديل. ثم انعطف إلى الدرج اللولبي عند مدخل المركز. صعد إلى صالة المسرح كأقرب نقطة إلى موضوع الحرائق الذي انخرط به أصلاً منذ الصباح الباكر. كانت نوافذ الصالة لا تبعد، كخط نظر، أكثر من ثلاثمئة متر عن حدود الحي الروسي مع البساتين التي تفصل بينه وبين الغوطة. فتحها كلها من تلك الجهة، وجلس على مقعدٍ قدّر أنه الأكثر تلقياً لتيارات الهواء القادمة من هناك، ثم أغمض عينيه. انفرد كلّياً بحواسّه ومعارِفه المشحوذة المترصّدة حتى تناهى إلى سمعه الرهيف ما يشبه وهس خطوات خفيفة مقتربة على لوح خشب قديم. فتح عينيه، ورأى رئيسة بتروفنا واقفةً أمامه على خشبة المسرح، وقد شمخت بخطمها إلى الأعلى. وحين نبحت نبحتها المعبّرة القوية ارتعد في مكانه من شدّة التأثّر، وفهم أن يومه مليء بالرموز. ودون أن يحتاج إلى ما يكفي من المسوغات المنطقية الملموسة وجد نفسه مدفوعاً لأن يعتبر ظهور رئيسة بتروفنا في هذه اللحظات مرتّباً من الأقدار نفسها التي رتّبت شوقه الحاد إلى زوجته، ذات صيف، دون أن يولي تلك الإشارة ما تستحق من الاهتمام. لكنه، في هذه المرة، لن يهمل إشارة الأقدار التي تجلّت، برأيه، بوضوح رهيب في نبحة رئيسة بتروفنا. لقد استنهضتْ، في واقع الأمر، مثلها مثل أيّ خطيب وطنيّ مُفوّه غيور، الحشدَ الهائل من الناس اليائسين الذين تصورّتْهم جالسين على المقاعد الشاغرة، فكّر أركادي كوزميتش وقد شعر بكلّ هؤلاء البشر الذين افترضتهم رئيسة بتروفنا من حوله في الصالة. وكانت روائح البارود والشواء والبلاستيك المحروق، التي تتبعه منذ الصباح الباكر من حريق المدرسة في قلب الكومودينو، تهبّ عليه الآن بقوة من نوافذ الصالة، فنهض من مقعده

في الحال. سار بين صفوف المقاعد الفارغة باتجاه رئيسة بتروفنا الـــتي قفزت من على الخشبة ودسّت خطمها الرطب في راحة يده. مشى إلى جانبها، وقد بدأت أصابع يده الفاترة تداعب رأسها، كما لـــو أنـــه يتابع، بهذه الطريقة، خواطره الجديدة في فروها الطويل. خرجا معاً من باب الصالة وتوقفا على قرص الدرج في ضوء النهار الساطع. اشرأبّت رئيسة بتروفنا بعنقها تنظر إليه. قرفص أمامها وأمسك برأســـها بيـــده الثانية أيضاً. كان الآن على يقين من أن لديها ما تخبره به شخصـــياً. جعل يدقّق في عينيها طويلاً، كأنه يبحث في بريقهما الحيوي الواعـــد الأسود عن الخطوة التالية في يومه غير الاعتيادي الذي بـــدأ برائحـــة شواء ورسالة قديمة كان يُفترض أن تكون ممزقـــة منـــذ ســـنوات. ثم تسارعت أنفاس أركادي كوزميتش إذ أدرك الآن أن عليه أن يتوجّـــه اليوم، من كل بد، إلى حديقة الحيوانات ليلتقيني دون إبطاء، فهـــو لا يخطئني، ولا يمكن أن يشبّهني بأي شخص آخر في الحي الروسي. لقد كان متأكّداً ببساطة من أنه رآني، دون غيري، أظهرُ أمامه في نسختين متماثلتين في عينَيْ رئيسة بتروفنا، فأفلت رأسها من بين راحتيه، وهبّ واقفاً على قدميه. وبهيئة الغارق حتى أذنيه بالأشغال المثمرة الهادفة تَابع نزوله الخفيف المتسارع المسؤول على الدرج.

وكانت رئيسة بتروفنا قد سبقته بالنزول، وتابعت طريقها مـــن دونه، فقد كان عليها أن تكمل يومها الطويل حتى تعثر على صديقها العجوز موستاش.

VII

لم ينتبه أبو علي سليمان، على عكس رئيسة بتروفنا، إلى غياب موستاش عندما استيقظ في الصباح الباكر. وربما لم يولِ أهمية كبيرة إلى غيابه إلاّ في وقت متأخر، كما قال لنا في المساء. إن إحساسه المتنامي بأن شيئاً مهماً يوشك أن يحدث اليوم في الحي الروسي، أو غداً على أبعد تقدير، كان يشغل باله منذ نهوضه من الفراش. وقد شعرت أم علي الصغرى، التي بات عندها في تلك الليلة، بالمشاعر الجديدة التي استيقظ بها زوجها- لم تفهم حرصه في هذا الصباح على أن يستيقظ قبلها على غير العادة، وأن يحضّر فوق ذلك طعامَ الإفطار لكل أفراد العائلة كما لم يفعل قط. ثم إن تجهّمه الصباحيّ المعتاد كان غائباً تماماً عن ملامح وجهه المجعّدة، ما شجّع الأولاد على الصخب المبكّر والضحك العالي والشجار بحضوره دون أيّ تبعات تربويّة صارمة. ثم ودّ أبو علي، قبل أن يخرج، لو كان بوسعه أن لا يترك أم علي الصغرى في حيرة من أمره. أراد أن يشرح لها أسباب انشراحه المبكّر، ولم يجد الكلمات الدقيقة المناسبة. لم يكن، في الحقيقة، يعرف على وجه التحديد ما هي طبيعة الأشياء التي يمكن أن تحدث اليوم أو غداً لكي يشرحها لها. لكنه لاحظ، عند مغادرته المنزل، أن مشاعره الجديدة قد انتقلت، بصورة من الصور، إلى مشاعر أم علي الصغرى دون أن تُحيجه إلى أيّ كلمة. لقد تبعته هذا الصباح حتى باب المنزل، كما لا تفعل عادة، ثم ظلّت واقفة تنظر إليه وهو ينزل الدرج كما لو أنه لن يذهب الآن كعادته إلى المدرسة، بل إلى عملٍ آخر، أهمّ وأصعب ولا ينبغي التصريح به، ولا حتى الإشارة

إليه. تابع أبو علي نزوله، وقد بدت له زوجته، بعينيها الصغيرتين الذكيّتين المعبّرتين، أنها تعرف أكثر مما يعرف عن ما جعل هذا الصباح مختلفاً عن كل صباح مضى. ثم في اللحظة الأخيرة كاد أبو علي يبتسم لها ابتسامته الدافئة العريضة النادرة لولا دربزين الدرج الذي حجبها عن عينيه فجأةً.

في طريقه إلى المدرسة الإعدادية، التي يعلّم فيها اللغة الفرنسية، شعر أبو علي سليمان بأن مشاعره الجديدة تفيض أيضاً على الناس والأشياء في الشارعين والأزقة الثلاثة التي يسلكها عادة في مثل هذا الوقت من الصباح. ومن بين كل الناس الذين لفتتهم رائحة المشاعر الجديدة التي كان يمشي بها الأستاذ أبو علي وجدت الحاجّة الأرملة سعاد ما تطيل به تحيته الصباحيّة القصيرة المعتادة، فدعته، عند مروره بشباك شقتها الأرضية، إلى فنجانٍ من قهوتها المبكرة الجاهزة في تلك اللحظة بالمصادفة. كان أبو علي أكثر حياء وشهامة من أن يُخيّبها، ما دام لن يتأخر عن تلاميذه في كل الأحوال، فهو يحتاط عادةً بربع ساعة على الأقل ينفقها على المجاملات الاجتماعية التي يضطر غالباً إلى مراعاتها في طريقه إلى المدرسة مع آباء وأمهات تلاميذه أو مع زبائن محلّه "المحترم". وقف الآن إلى جانب نافذة الحاجة سعاد على الرصيف وتناول الفنجان من يدها، وهو يشكرها على لفتتها الكريمة غير المتوقّعة. وكان معروفاً لدى الجميع أن للحاجّة سعاد ولداً وحيداً خرج ذات صباح من البيت إلى صالون حلاقة نسائية كان يعمل فيه بالعاصمة ولم يعد. وقد طرقت الحاجّة سعاد ومعارفها أبواباً كثيرة لتعرف شيئاً من أخباره لكن دون جدوى. وعندما رأته في التلفزيون، بعد سنة وشهرين من غيابه، عارياً ومُرَقّماً على جبينه ومغمضاً عينيه

وفاتحاً فمه في معرض جرى في باريس لصور مسرّبة لضحايا قضوا تحت التعذيب، قررت الحاجة سعاد عندئذٍ أن تزوجه. وصارت، منذ ذلك اليوم، ترتدي أجمل ملابسها وتتكحّل وتتحمّر وتدور على البيوت، تبحث عن بنت حلال مناسبة لتخطبها له ريثما يصل من باريس. لم يعجبها أحد حتى الآن، ليس لأن الفتيات اللواتي رأتهن كنّ قبيحات أو بائرات أو عائبات لا سمح الله، بل لأن الزواج في النهاية قسمة ونصيب يا أبو علي! ثم إنها لا تخاف على ابنها، فهو في أول شبابه، ويستطيع أن يصبر حتى ينال من تستحقه من بنات الأصول. وكلما جاع أكثر أكل أطيب كما يقولون، فلا داعي للعجلة، والولد نفسه لا يلحّ على الزواج، لكنّه وحيد قلبها وتريد أن تربّي أولاده بين يديها قبل أن تموت. ثم سألت الحاجة سعاد أبو علي عمّا إذا كانت عنده بنت للخطبة، فأكّد لها، بصراحته المعهودة، أن كل أولاده ذكور والحمد لله. لكنّ الحاجة سعاد لم تصدّقه، ولامته على إخفاء الحقيقة؛ لأنها تعتبره أخاها الكبير ولأنه في النهاية لن يجد لبناته عريساً أفضل من ابنها. شرق أبو علي عندئذٍ بالقهوة وكاد يدلقها على قميصه الأبيض، غير أن الحاجة سعاد أكّدت له، مع ذلك، أن أحداً لم يخبرها، بل رأته منذ يومين بعينها، التي سيأكلها الدود، يمشي مع بنت سمينة وبيضاء وحلوة. قال لها أبو علي هذه أم علي الكبرى، عمرها خمسون سنة وعندها مني ستة أولاد. ثم أرادت الحاجة سعاد، كأنما، أن تعبّر من جديد عن ريبتها بكلامه، لكنّ مشاعر أبو علي الجديدة كانت قد غمرتها الآن من مسافة قريبة جداً، فصمتت أمامه فجأةً، استندت بمرفقيها إلى حافّة النافذة، وأغمضت عينيها مستسلمة لها بكل جوارحها. وإذ سمعت صوت أبو علي

يستأذنها في متابعة طريقه إلى المدرسة فتحتْ ووجدته يبتعد فعلاً عن نافذها. لم تعرف كأنما كيف تستبقيه قريباً منها أكثر مـــن ذلـــك، فظلّت تشيّعه بنظراها، كما كان يتوقع، حتى اختفى أثره بين المـــارّة تماماً. ومع وصوله إلى المدرسة تابعت مشـــاعره الفيّاضـــة الجديـــدة انتشارها في كل الصفوف التي ألقى فيها دروسه، وفي غرفة المعلمين في الاستراحات بين الحصص، حتى وصـــلت رائحتـــها الزكيّـــة إلى مكتب الأستاذ سمير البدري مدير المدرسة- الشهير أيضـــاً كبـــائع متجول بعد الدوام الرسمي للساعات السويسرية المستعملة في شوارع الحي الروسي وزواريبه. ولأن أم علي الصغرى كانت قد فتحت أمام أبو علي، على سفرة الفطور، سيرة المقانق المقلية فقد غيّـــر طريـــق عودته إلى البيت، ونشر رائحة مشاعره الجديدة في شارعين إضافيين وسوق مسقوف شديد الضيق ريثما وصل إلى ملحمة رضا، واشترى ما يكفي لصندويشة مقانق صغيرة لكل فرد من أفراد أســـرتَيْه الأولى والثانية. ثم بعد انتهاء قيلولته القصيرة، عند أم علي الكبرى، وخروجه إلى دكّان "المحترم" الصغير تمكّن أيضاً معظم جيرانه وزبائنه من التشبّع بمشاعره الطازجة الجديدة حتى حلول المساء.

في المساء

I

بعد مغادرة رئيسة بتروفنا حديقةَ الحيوانات، وانصرافِ الزرافة إلى استقبال زوّارها الأوائل، روتْ لي نونا منامها الذي ألحتْ إليه في الصباح الباكر قبل أن تنهض من السرير.

قالت رأيتُ عصام.

كان مختلفاً جداً عن كلّ المرات التي رأته فيها من قبل، ولا تظنّ أن أحداً رآه بالصورة التي رأتْه فيها ليلة البارحة لا في الواقـــع ولا في كلّ المنامات التي طالما سمعتْها من الناس حوله في الحي الروسي. كان أطول وأضخم بكثير من عصام الذي يعرفه الجميع. جلـــس أمامهـــا وقال لها شيئاً مهمّاً ما عادت تذكره الآن، لكنها تذكر أنه نظـــر إلى الحياكة المتكوّمة في حضنها، قبل أن يذهب، وابتسم ربما للعصفور.

ثم رجّحتْ نونا، بعد صمتٍ مُركّزٍ قليل، أن عصام، الذي رأتْه في المنام، قد يكون في الواقع فكرةَ الزرافة الثانية بعد العصفور الـــذي ظهر البارحة بين يديها أيضاً. وإذا كان الأمر كذلك، ولعلّه كذلك، فإن هذا قد يعني، برأيها، أن الزرافة قد اختارتها دون غيرها في حديقة الحيوانات، لتُظهر أفكارها عن طريقها من الآن فصاعداً.

وكنت منذ مدّة طويلة، كما سبق وأشرت، لا أُخضع تصوّرات نونّا عن الأشياء، وخصوصاً عن الزرافة وما يتعلّق بها، لأي تساؤلات

منطقية جاهزة، بل اعتدت أن أدمجها مباشرة بانطباعاتي الحارّة الأولى، غير المبوّبة وغير المُسبّبة، عن كلّ ما أتلقّاه بحواسّي من حولنا. وقد ثبت لي، بخبرة الحياة في حديقة الحيوانات مع نونا، أنني بهذه الطريقة إنما أنجو معها من حقائق الأشياء الأكيدة الراسخة، الجامدة عملياً بالقياس إلى تصوراتنا المرنة عنها، والتي لم أعد أشعر بأنها ستلزمني في يوم من الأيام بصورتها المبتذلة الدارجة.

ولكي لا يفوتنا شيء من أفكار الزرافة الجديدة، التي يمكن أن تظهر في أيّ لحظة، رأتْ نونا، ورأيتُ بعدها مباشرةً، أن لا أكتفي، في الأيام القريبة المقبلة على الأقل، بتركيز انتباهي على ما يمكن أن يظهر من هذه الأفكار في حياكة الصوف بين يديها، بل أن أدقّق النظر أيضاً بكل الأشياء الأخرى التي تخصّها، والتي يمكن أن تهتمّ بها أو تستعملها في حياتنا اليومية. كما ينبغي لي، إلى ذلك، أن لا أفلت من ملاحظتي شيئاً مما قد يطرأ فجأةً عليها، هي نفسها، حين تمشي أمامي، وحين تجلس إلى جانبي، وحين تأكل معي وتتحدث، وحتى حين تستلقي إلى جواري وتنام. إنني، بطبيعة الحال، أرى نونا دائماً بشكل أوضح مما ترى نفسها في المرآة. أنا أفْضَل من المرآة وأكثر دقّةً عندما أنظر إليها، قالت نونا، لأنني لا أتقيّد كثيراً بما أراه، وهذا لا غنى عنه للرؤية الصحيحة. ومن ثم لا داعي فعلاً لأن ترسل الزرافة موستاش إلى أبو علي سليمان، في كل مرة، لكي يأتي ويكتشف أفكارها المقبلة الجديدة في نونا وأشيائها. ستعرف الزرافة، على أيّ حال، كيف ستفيد من نباهة موستاش وفطنة أبو علي سليمان في مهمّات أكثر تعقيداً ربما. وفي كل الأحوال فإن أبو علي سليمان لن يتمكّن من الإحاطة دائماً بكلّ أفكار الزرافة التي يمكن أن

تظهر على نونا، فهو لا يعيش معها في نهاية الأمر. ثم إن من غير المعقول فعلاً أن تستعرض أمامه، من باب اللياقة والتهذيب في بعض الأحيان، كافّةَ تفاصيل حياتها الحميمة الخاصة في الليل والنهار، بينما تستطيع ببساطة أن تفعل أمامي ما تشاء متى تشاء وكيف تشاء. أعني أنها ليست مضطرةً، مثلاً، لأن تبحث عن أيّ مناسبةٍ لكي تستحمّ أمامي أو معي، بينما ستحتاج، ربما، إلى سببٍ وجيه واحد على الأقل لكي تفعل ذلك أمام أبو علي أو معه. فضلاً عن أنه لن يكون قادراً على ملاحظة أيّ فكرةٍ من أفكار الزرافة إذا ظهرتْ في منامات نونا، كما حدث في ليلة أمس عندما ظهرتْ لها فكرتُها الثانية بصورة عصام الجديدة. وهنا شعرتْ نونا بالأسف لأنني، أنا أيضاً، مثلي مثل أبو علي سليمان، لا أستطيع أن أرى معها مناماتها حتى الآن، وهي من دوني قد تفوّت دائماً أشياء لا ينبغي، ربما، تفويتها- ألم تنس البارحة ما قاله لها عصام؟ مع أن عصام، بحجمه الجديد، فكرة موحية ومكتملة تقريباً أليس كذلك؟ سألتْني. يجب أن لا أيأس على كل حال، استدركتْ، من أن أتمكّن، ربما في يوم قريب جداً، من رؤية مناماتها معها بدليل أنها تخلط أحياناً بين الأشياء التي كنّا فعلناها في الواقع، وتلك التي رأتنا نقوم بها معاً في مناماتها. ثم إن كل شيء يقول إن أحوالنا في هذه الأيام ستتعقّد وتتداخل بعضها في بعض، وعاجلاً أو آجلاً سوف تبدو يقظة نونا ضيّقةً، جداً ربما، على أفكار الزرافة. لا يمكن أن تتسع يقظة أيّ إنسان مهما كانت واسعة إلا لعدد ضئيل جداً من الأحداث والأشياء والأمكنة والأوقات. ولربما تُضطرّ الزرافة، لكي تُظهر أفكارها المحتملة القريبة القادمة، إلى الاعتماد على أحلام نونا أكثر فأكثر. الأحلام لا حجم لها ولا وزن،

ولا يمكن أن تضيق رأسُ النائم بمحتوياتها منها مهما كانت كثيرة وثقيلة وضخمة وعميقة. وسوف يكون بوسعنا، إذا تمكّنّا من رؤية أحلام نونا معاً، أن لا نُفوّت منها شيئاً على الإطلاق؛ لأننا سنتذكّرها معاً ونتمعّن بها أولاً بأول قبل أن ننهض من السرير في صباح اليوم التالي، تابعتْ. وربما كان مفيداً جداً لنا الآن أن نزيل قدر الإمكان، أو ننسى على الأقل، أو نهمل ما أمكننا، الحدودَ القديمة المتراكمة التي تفصل عادةً بين ما نريد أن نفعله وبين ما نتمكّن من فعله في الواقع، وكذلك الحدودَ بين الأمكنة التي نراها بأعيننا وبين الأمكنة التي نراها بقلوبنا أو بعقولنا. سوف يكون نافلاً ومُحبطاً أن نلحظ، في هذا الوقت العصيب، الفروقَ الملموسة الممكنة دائماً بين الأشياء وبين رؤانا عنها وحاجاتنا منها. البشر فقط، من بين كل الكائنات الأخرى، احتاجوا دائماً إلى ترسيم هذه الحدود، ففصّلوها على قياس خبراتهم الواقعية واستنتاجاتهم الدقيقة عن العالم الذي وجدوا أنفسهم فيه، لينشئوا ربما العلوم، وربما الفلسفة، وربما لكي يفهموا، أو يبرّروا، قبحَهم حين يكونون قبيحين، وعجزَهم حين يكونون عاجزين. الزرافة لا تحتاج إلى هذه الحدود، ولا تشعر بها أصلاً، فلم تميّز مثلاً بين نوم نونا ويقظتها حين أرادت أن تعبّر عن أفكارها الخاصة، فأظهرتْ فكرتها الأولى في حياكتها وفكرتها الثانية في حلمها، كما لو أنها لم تقفز أبداً من عالم إلى عالم مختلف آخر. لابد أن الزرافة تتدفّق بالتفكير دون عقبات منطقية دارجة تحول في ذهنها بين مختلف الأمكنة والمفاهيم والحوادث والأشياء والطيور والحيوانات والبشر والحشرات، كما لو أنهم جميعاً، بالنسبة إليها، لا يعنون في كل مرة المعاني نفسها. وحين سنخفّف، نحن أيضاً، من

أعباء هذه الحدود على أرواحنا، لا بدّ أننا سنقترب شيئاً فشيئاً من طلاقة الزرافة بالتفكير. مبدئياً لا شيء يضطرنا مثلاً إلى البحث عن غايات محدّدة مفهومة، تماماً ودائماً، لسلوك الكائنات والأشياء وحركتها من حولنا، فلا ننظر إليها تبعاً لخبراتنا بها فقط؛ لأنها من دوننا ستظل تملك، ويجب أن تملك، حياتها الضرورية الغامضة العصيّة على الإحاطة بها أو على تحديدها بدقّة موضوعية مُنفّرة. إن كلاً منا يعيش في حياة الآخر، نعم هذا صحيح، لكنّ أياً منا لا يطبّق في حياته ما يتوقعه منه الآخرون حرفياً دون زيادة أو نقصان. إن ذلك مستحيل ببساطة إلاّ في أذهان المؤمنين جداً بقوة معتقداتهم المطلقة. ونحن، بالمناسبة، لا نقيّد الأشياء بأيّ إيمان مُسبَقٍ راسخٍ بها، ونتوقّع، دائماً وبقوة، من أيّ شيء أن يفاجئنا، في أيام الشدّة على وجه الخصوص، بمظاهر مختلفة عن مظاهره القديمة التي حفظناها عن ظهر قلب. إن الصفات المُحكَمة البائتة والنواميس المعروفة الخانقة التي تقفز فوراً إلى رأس اللسان، والتي اعتدنا أن نسجن فيها الأشياء والأحياء يجب أن نتخلّى عنها في هذه الأيام الصعبة. على كل حال إيماننا، أنا ونونا، ضعيف بكل شيء. وهذا أمر مفيد وضروري، خاصة في وقتنا المضطرب المشوّش. ما نريد قوله، نونا ثم أنا، هو أننا حين نعيش على حافة الدمار يصبح سهلاً علينا، وضرورياً أيضاً، تعديلُ وتبديلُ، وربما حذفُ، كلّ معتقداتنا الراسخة التي ازدهرت في خمول السلم الملغوم والاعتياد والتظاهر واللامبالاة. لقد اقتنعنا البارحة مثلاً دون مواربة ولا مكابرة بأننا، نعم، كائنات هشّة جداً تشهد الدمار بعيونها وتعيش على حافته المتداعية دون توقّف. وهذا شيء مفيد أيضاً لأننا لم نعد نخاف كما لو أننا نخاف، ولا نتألّم كما لو

أننا نتألّم، ولا نأمل كما لو أننا مسلّحون بالأمل. لقد أصبحنا نخاف حقاً ونتألّم حقاً ونأمل حقاً. إن يأسنا، كما تبيّن لنا بفضل الزرافة، لم يكن كلّياً حتى الآن لحسن الحظ، فنحن الآن ننتظر، حقاً أيضاً، ما سيجري من أجلنا في الحي الروسي في القريب العاجل. ولأننا لا نعرف بالضبط ما الذي سيجري، ومن الممكن جداً أن نشارك نحن أيضاً بهذا الذي سيجري، كنّا نونّا وأنا مستعدّين الآن لأن نعتبر المشاعر الجديدة التي سادت على سطحنا منذ عصفور البارحة، والتي تجدّدت اليوم برؤية عصام بحجمه الجديد في منام نونا، مقدّمةً ضرورية للتطورات المهمّة في الأيام، وربما الساعات، المعدودة القادمة. وقد أكّد هواجسَنا الحارّةَ حول هذه التطورات في هذا اليوم بالذات أصدقاءٌ وجيرانٌ لم ننتظرهم، وأناس لا نعرفهم إلا بالوجه أو المهنة أو مكان الإقامة وآخرون لم نلتقيهم قطّ من الرجال والنساء والأطفال، بدؤوا يظهرون على سطحنا في المساء دون دعوة مسبقة أو أيّ مناسبة معلنة.

II

ظهر على سطحنا في البداية أبو علي سليمان مع زوجته وأولاده الصغار، مصطحباً الأستاذ سمير البدري مدير المدرسة التي يعلّم فيها، ومجموعة من زبائن دكّانه المحترمين، وثلاث طالبات راسبات للمرة الثالثة في البكالوريا يعطيهنّ دروساً خصوصية باللغة الفرنسية مع أمهاتهن، بالإضافة إلى الأرملة الحاجة سعاد ورضا القصاب. ثم جاء الطبّال عز الدين مع مهرج سيرك وراقصة مصرية شابة وثلاث عاهرات روسيات مسنّات من كباريه إشبيلية في شارع الملاهي. ثم ظهر الأستاذ معين أمين مكتبة المركز الثقافي مع سائقَيْ سيارتَي المركز المغلقتين وبستاني يشرف على نموّ النباتات في حديقة المركز بالإضافة إلى شرطي سير. بعد ذلك صعد إلى سطحنا عبد الجليل حجازي مع مجموعة من الممثلين والممثلات العاطلين عن العمل. ثم وصل أركادي كوزميتش مع حفيدته راما وابنته طبيبة الأطفال صوفيا أركادفنا وزوجها الدكتور عزيز، الشيوعي السابق الذي فصلته جماعة يوسف فيصل وشهّرت به في "العمّالي" و"حنا كعده" و"العندليب" و"نضال الشعب" و"مقصف الجامعة المركزي" بعد أن ظهرت عليه أعراض مرض اليساريّة الطفولي. بالإضافة إلى أشخاص كثيرين لم نرهم من قبل لا في حديقة الحيوانات، ولا في شوارع الحي الروسي التي نطرقها عادة في حركتنا اليومية. وكان اللافت لنا، أنا ونونا وفيكتور إيفانيتش، أن الجميع على الإطلاق لم يظهروا على سطحنا بمظهر الغرباء المحرَجين من وجودهم عندنا في هذا الوقت من المساء، كما لو أنهم كانوا واثقين بأننا كنا نترقّب

حضورهم ونحرص عليه. وما كنا، أنا ونونا على الأقل، لنشعر بغير ذلك، كأننا، مع كل وافدٍ جديد، كنّا نتأكّد من أن ما ننتظره في الحي الروسي قد بدأتْ بشائرُه تظهر في هذه اللحظات على سطحنا في حديقة الحيوانات. وكان سطحنا، في الأحوال الطبيعية، أضيق بكثير من أن يتّسع لكل هؤلاء الناس، فبدا استيعابه لهم، في أعيننا، جزءاً من خروج الأشياء من حولنا على صفاتها المعروفة المبتذلة. جلسوا في أنساق طويلة متراصّة على الأرض، وعلى كراس صغيرة جلبوها معهم، نسقاً وراء نسق أمام التلفزيون وخلفه حتى الحافة المطلّة على الشارع المجاور، وأمام الديوانة وخلفها حتى أول الدرج النازل إلى أرض الحديقة. كانت وجوههم طافحة بانتظار حارّ لجوج لما يوشك الآن أن يحدث بين لحظة وأخرى، لكنّ أحداً منهم لم ينبس بكلمة واحدة. كأنهم كانوا جميعاً على علم مسبق بعصفور نونا بوصفه فكرة من أفكار الزرافة، ويعرفون، فوق ذلك، مقاييس عصام الجديدة إما لأنهم رأوا عصام، هم أيضاً، كلٌّ في منامه الخاص ليلة البارحة أو لأنهم كانوا موجودين في منام نونا عندما رأت عصام. وكانوا لا ينفكّون يتابعون الآن، مع الزرافة، الأحداثَ العنيفة الخرساء في تلفزيوننا الصغير كأن شيئاً استثنائياً لا يلفت الانتباه في تقرّبهم منها- كانوا أحياناً يسترقون النظر إليها، وهم يموّهون بصعوبة واضحة لهفةَ أكتافهم وأكواعهم ورؤوس أصابعهم إلى التمسّح بعنقها المرقّطة الجميلة المجاورة. وفي أحيان أخرى كانوا يشردون، لِلَحظات، بأشياء قريبة من نونا على الديوانة، ثم ينزلقون خلسةً، كما لو عفواً، إلى حياكتها، يجوسون، بنظراتهم المتكتّمة الخاطفة، السماءَ الصوفيّة الزرقاء المتكوّمة في حضنها، بنجومها الذهبية وغيومها المغضّنة

الخضراء، حتى إذا لمحوا العصفور قفزوا بنظراتهم الحذرة إلى أي شيء سواه على سطحنا. كأنهم كانوا يتستّرون على ما يعرفونه، وما يشعرون به، خشيةً عليه من التلف أو الضياع أو سوء الفهم أو التداول الرخيص الطائش. لكنهم، مع ذلك، ما كانوا في كل الأحوال ليصبروا طويلاً على مغالبة حماستهم المكتومة، فبدوا مستعدّين أيضاً لأن يتأكّدوا، في أيّ لحظة، من هواجسهم الجديدة بالكلمات، وأنّ أيّاً منهم كان يمكن أن يعبّر، ببساطة ووضوح، عمّا يضطرم في نفوسهم جميعاً.

- الرجال في عائلتنا لا يُعمّرون..

قال فجأة أركادي كوزميتش وهو ينظر إليّ، وقد نهض من مكانه واقترب من الديوانة، التي نشغلها أنا ونونا وفيكتور إيفانيتش، وحشر نفسه إلى جانبي.

انشدّ الجميع إلى أركادي كوزميتش، غير أنهم لم يدركوا، كأنما، مناسبةَ الخيبة التي ظهرت على وجهه، فقد بدا كما لو أنه أراد، في الحقيقة، أن يقول شيئاً آخر. وكان سهلاً عليهم طبعاً أن يعتقدوا، كما دلّت وجوههم المشدودة إليه، أن الفكرة التي خذلته، التي ما زالت تقف على رأس لسانه على الأغلب، سوف يتمكّن، لا بدّ، من استدراجها الآن من أجلهم، وسوف تُوضّح لهم، ربما بصورة أفضل من رجال عائلته الذين لا يعمّرون، ما يجول في صدورهم من المشاعر والخواطر وربما الأفكار.

- جدّي مات في الخمسين، وأبي مات في الثالثة والخمسين، وعمي كان في التاسعة والثلاثين حين دهسته عربة ترام في داغستان.

أردف أركادي كوزميتش، وقد أكّد لي بلمسةٍ خفيفةٍ من رؤوس أصابعه على ركبتي أنه إنما يوجّه كلامه إلي بالذّات. وكانت خيبته قد تحولت الآن إلى ما يشبه المرارة. كأنه لم يفلح، مرةً أخرى، في قول ما جاء خصيصاً ليُخبرني به. ثم صار يلومني بتجاعيد وجهه وعينيه المصوّبتين عليّ بإصرار. لم أكن أعرف طبعاً ما الذي كان يريده مني أركادي كوزميتش، إلا أنه صار يوحي لي بأنه على يقين من أنني أعرف تماماً الغاية التي يهدف إليها من كلامه، لكنني أتجاهلها لأمرٍ ما، وربما أستبعدها وأزدريها. وما كنت، في كل الأحوال، لأستوضح شيئاً منه في تلك اللحظات، فقد كنت مأخوذاً تماماً بالهواجس الجديدة الصاخبة الغاوية التي تعصف بي وبمن حولي. وكان عسيراً فعلاً على الجميع أن يستسلموا الآن لمرارة أركادي كوزميتش التي لم يفهموها، ولا أعتقد أنهم كانوا مهتمّين بفهمها أياً كان سببها، فظلّوا، بعيونهم الآملة المترصّدة المنشدّة إليه وبإنصاتهم العنيد المطبق، يشجّعونه، كأنما، على متابعة كلامه فقط.

- الرجل الوحيد الذي بلغ الخامسة والستين في عائلتنا ولم يمت حتى الآن هو أنا.

قال أركادي كوزميتش بالمرارة نفسها، لكن بشيء من التعجّب هذه المرّة من أنه ما يزال يلوك، كأنما رغماً عنه، سيرةً نافلةً لا تهمّ أحداً من الحاضرين ولا حتى خطرت بباله، هو نفسه، في يوم من الأيام.

ثم أصبح مفهوماً بعد ذلك، من خمود أركادي كوزميتش واستسلامه الصريح للأسف البالغ الذي عمّق غضون وجهه أمام أعين الجميع، أنه لن يضيف شيئاً آخر. ولعلّهم في ظرف مختلف

كانوا سيبادرون جميعاً، خاصة طلابه السابقين الكثيرين الموجـــودين بيننا من الرجال والنساء والأولاد، إلى جبر خاطره المكسور، كمـــا ينبغي لتلاميذ وأولاد حيٍّ واحدٍ أن يفعلوا، حتى وإن كانوا لا يعرفون ما الذي كان يأسف عليه بالضبط. غير أنهم، في غمرة الحماسة الـــتي كانوا يعيشونها الآن، ظلّوا يتجاهلون مرارتـــه الظـــاهرة بفظاظـــة وإصرار. كانوا، كأنما، منقادين إلى النظر في كلامـــه كمـــا لـــو أن الأقدار قد أجرتها على لسانه، في هذا الوقت بالذّات، علـــى ســـطح حديقة الحيوانات بحضور الزرافة وتحت إشرافها. لم يكن سهلاً على أيّ منهم، بطبيعة الحال، أن يربط تلقائياً بين الأحداث الفاصلة القريبة التي ننتظرها جميعاً بفارغ الصبر وبين رجال عائلة أركادي كوزميتش الذين لا يعمّرون. لكنّ قاعدة الموت العائلية المتوارثة الـــتي كســـرها ببلوغه الخامسة والستين قد استرعت، كأنما، انتباه الجميع لســـببٍ لم يدركه أحدٌ في البداية. كان أركادي كوزميتش يستطيع، تبعاً لتلـــك القاعدة، أن يموت قبل عشر سنوات على الأقل، لكنه ظلّ حياً حـــتى الآن، فلماذا لم يمت يا ترى؟ سؤالٌ كان يمكن أن يتبادر إلى أذهاننـــا جميعاً، دون عناء، تحت وطأة بحثنا المشترك الحارّ عن المعنى الحقيقـــي الذي يخصّنا في كلامه- لماذا لم يمت أركادي كوزميتش حـــتى الآن؟ لماذا لم يمت أركادي كوزميتش حتى الآن؟ لماذا لم يمـــت أركـــادي كوزميتش حتى الآن؟ يا إلهي! لماذا لم يمت أركادي كوزميتش حـــتى الآن؟ إن الموت يزدهر في الحي الروسي وما حوله منـــذ ســـنوات. العشرات، والمئات أحياناً، يموتون يومياً على شاشات تلفزيوناتنـــا في أقبية السجون الرسمية وغير الرسمية وعلى جبهات القتال المختلفة وفي شوارع المدن والبلدات تحت براميل الطائرات وجرار الغاز وبنـــادق

القنّاصين. ثم قدّرتُ، تماماً كما يمكن أن يقدّر أيّ شخص آخر من حولي، أن أيّ قذيفة هاون قادمة إلينا من الغوطة، كتلك التي سقطت منذ يومين فوق روضة أطفال مثلاً، كان يمكن أن تسقط فوق رأس أركادي كوزميتش وهو في طريقه إلى دروسه الصباحيّة في المركز الثقافي. ثم خطر بي أنه لو مات قبل عشر سنوات لكان مات موتاً شخصياً متوقّعاً أسوةً برجال عائلته الذين لا يعمرون لا أكثر. أعني أن موته عندئذٍ ما كان ليحمل أيّ معنى عامّ مثمرٍ قد يخصّ الآخرين. أما إذا كان سيموت في هذه الليلة، أو في صباح الغد على أبعد تقدير، فلا بدّ لسبب مختلفٍ عميقٍ متعلّقٍ ربما بأحداثنا العزيزة المجهولة الموشكة التي ننتظرها نحن المتحلّقين حوله هنا على سطح حديقة الحيوانات. ثم اعتقدتُ أن معظم الحاضرين، وربما كلّهم على الإطلاق، كانوا مفتونين حقاً، كما لو دون قصد، بغنائية الموت الفوريّ المفاجئ الذي يمكن أن يموته رجل مثل أركادي كوزميتش على غرار الأبطال التراجيديين المحبّبين إلى القلب. وإذا كان سيفعلها فعلاً ويموت بعد خمس دقائق على سبيل المثال، فلا بدّ سيتبوّأ في نفوسهم فوراً مكانة رجل عظيم وسيعتبرون موته، بلا ريب، موتاً استثنائياً لا غنى عنه في هذه اللحظة الفاصلة من تاريخ حياتهم في الحي الروسي.

لا أعتقد، طبعاً، أن أحداً منهم كان ليجرؤ على التسليم، دون شكوك مؤلمة، بهذه الفكرة الفاتنة الرهيبة حتى وإن كان أركادي كوزميتش نفسه مَنْ أوحى بها إلينا. وسرعان ما وجدتني، بسببها، أشعر بحرجٍ ممضٍّ ثقيلٍ تجاهه كرجلٍ ودودٍ حرص دائماً على طيب العلاقة مع الناس من حوله أياً كانوا. كما لم أستبعد أن يكون

الآخرون أيضاً قد ساورهم الحرج الممضّ نفسه- لقد كان صعباً فعلاً، وربما ظالماً ومُعيباً، على أيّ شخص من بيننا أن يربط، بسهولة ودون حياء، بين موت هذا المعلم الحصيف العارف المسالم المستقيم وبين أفكار الزرافة. وربما لن يكون مفهوماً لأحد بالسرعة الكافية، ولا حتى من أصول اللباقة وحسن المعشر، أن تتوقف على موت هذا الرجل كلّ طموحاتنا الفردية الضيقة وصغائرنا الشخصية المعطّلة الغالية على قلوبنا، كأن يستأنف فيكتور إيفانيتش عادته القديمة في الاستيقاظ المبكر مثلاً، أو أن يتمكّن أبو علي سليمان من العودة إلى تجارته الخاسرة في شراء وبيع السيارات المنهكة من شدة الاستعمال، أو أن يطلّق صفوان أورفلي، عازف الكمان في كباريه المعلم أرتين، زوجته الراقصة أسرار ليتزوجها عازف العود سالم نجار في كباريه قرطبة، أو أن يتمكّن رضا القصاب من شراء دكان جاره بيدروس الحدّاد ليحقق أخيراً حلمه القديم في تحويلها إلى فرن مختصّ بعشّ البلبل واللحم بعجين، أو أن يستمر التيار الكهربائي ما يكفي لإنجاز وجبة غسيل واحدة على الأقل في الغسالات الأوتوماتيكية، أو أن تستعيد سيدات الحيّ الروسي جلسات القهوة وقراءة الفناجين وممارسة النميمة الصباحية الآمنة على شرفات المنازل دون تنغيص من أصوات الطائرات والدبابات والمدافع والراجمات وقذائف الهاون وسيارات الإسعاف وجنازات القتلى المتدفّقين من الجبهات، مع كل ما يرافق ذلك من لعلعة الرصاص وقطع الشوارع في الحي الروسي. باختصار لقد كان من الظلم والعيب وسوء الخلق أن نعلّق على موت أركادي كوزميتش كلّ آمالنا بممارسة حياتنا اليومية العادية المبتذلة بسلام.

- هناك أشياء جدية كثيرة عليّ أن أنتهي منها حتماً قبل أن أموت.

قال أركادي كوزميتش فجأةً، وقد شعر كأنما بكلّ ما همجس به.

كان من البديهيّ طبعاً أن لا يكون لدى الحاضرين أيّ دليل ملموس على فرادة وأهميّة موت أركادي كوزميتش في هذه الليلة سوى حماستهم الغامضة الجديدة إلى مستقبل آمن قريب محتمل في الحي الروسي. غير أن "الأشياء الجدية الكثيرة"، التي ذكرها الآن، والتي سينتهي منها "حتماً" قبل أن يموت، قد أغاظت كأنما الجميع، فشعروا بما يشبه الخديعة، كما لو أنه قد قرّر فجأةً أن يماطل ويساوم على شيء مُتوافَقٍ عليه سابقاً. وهكذا لم يعد مستبعداً أبداً، كما بدا لي عندئذٍ، أن تدفع "أشياؤه الجدّية" الكثيرين منهم إلى التخلّص من مشاعر الحرج الممضّة الصادقة التي شعروا بها إزاءه قبل قليل. ولعلّي اعتقدتُ، في لحظة من اللحظات، بأنهم قد يتسلّحون بسوء النية، إذا اقتضت الضرورة، فيبدو موت أركادي كوزميتش في أعينهم تمهيداً ضرورياً للأحداث العزيزة التي ينتظرونها. كأنّ رغبتهم الفضّاحة بالحياة قد أصبحت فجأةً، أو كادت تصبح، أقوى من التربية الحسنة والذوق الرفيع. ولربما أصبح الآن بمقدور أيّ خللٍ صغير، أو هفوةٍ لا على التعيين أو زلةِ لسان، أن يجعلهم يرتجلون فوراً مع أركادي كوزميتش سلوكاً سريعاً حاسماً أحمق سوف يندمون عليه حتماً، لكن بعد فوات الأوان.

يا إلهي ما أسهل ما ينقلب المرء إلى شخصٍ آخر ظنّ دائماً أنه لا يمكن أن يكونه!

فكّرتُ، ثم خفتُ كثيراً من الاحتمالات القاسية المتشظّية التي كنت أُقلّبها في نفسي في تلك اللحظة.

كأنهم خافوا، هم أيضاً، من أنفسهم.

"لابد من الخوف" همست نونا إلى جانبي على الديوانة.

لقد كان مرعباً حقاً وموحلاً ولا يصدّق ولا يطاق أن يُحوَّل أركادي كوزميتش من ميتٍ محتملٍ إلى ضحيةٍ أكيدة بأيدي طلابه وأصدقائه ومعارفه المتلهّفين الآن إلى الحياة الممكنة الآمنة.

كأن إحساساً عميقاً بالذنب والحيرة والضيق والنزق الشديد الملجوم قد تملّك الجميع، فرزحوا في صمتٍ شائكٍ مربِكٍ ثقيلٍ وعطالةٍ مضنية، كأنهم كانوا متأكّدين من أنهم لن يقطعوا صمتهم وعطالتهم إلا بالجري الصريح الفجّ المُخزي وراء نفوسهم الطموحة المحصورة الهائجة الحالمة.

ظلّوا صامتين.

مكبّلين.

مذنبين.

كانت عيونهم وحدها تشخص إلى أركادي كوزميتش بحنقٍ عميقٍ خجول.

غير أن نباحاً قريباً ودوداً احتفالياً مباغتاً حرّرهم فجأةً من غواية موت أركادي كوزميتش وفظاعته.

عادوا فجأةً إلى طلاقة مشاعرهم الفياضة المنيرة الجديدة، فالتفتوا بكل جوارحهم، كأنما إلى جهة أحداثهم الصحيحة، إلى ما كان يمكن أن يسوس نفوسهم الطائشة وينظّمها، إلى ذلك الدرج الصاعد إلى سطحنا من أرض الحديقة، من حيث تناهى إلينا النباح.

كان على الجميع أن ينتظروا عدة ثوانٍ طويلة قبل أن يظهر من قلب الدرج العجوزُ موستاش.

كانت هيئته تنمّ، كالعادة، عن انشغالٍ ظاهر بأفكاره العميقة الخاصة.

لم يلتفت إلى أحد، ولا دلّ ذيلُه الملتوي القصير الواثق على أيّ اهتمام بوجود أحد.

وقف على رأس الدرج بمسؤوليةٍ، كأنما كبيرة، ثم نبح باتجاه الأسفل نبحتين قصيرتين مُرحّبتين. ظهرت بعد قليل رئيسة بتروفنا متثاقلةً وهي تتطلّع إليه بمودّة وفخر وبشيء من القلق أيضاً. غير أن موستاش لم يكن، كأنما، يخصّها باحتفائه المتواصل حتى الآن. ظلّ واقفاً في مكانه ينظر إلى أسفل الدرج ويهمهم، بسعادةٍ مُصمَّمةٍ بدقّة، إلى أن ظهرت على السطح أشهرُ قطةٍ في الحي الروسي:

غزال!

كاد الجميع يهتفون باسمها، فقد بدا ظهورها المفاجئ الآن علامةً بليغةً ساطعةً على صواب وضرورة وجودهم معاً على سطحنا في حديقة الحيوانات هذا المساء.

ثم كان ساحراً ومدوّياً في نفوس الجميع ظهورُ عصام نفسه صاعداً على الدرج وراء قطّته غزال، فهبّوا في استقباله واقفين.

III

لم يصعد عصام قط إلى سطحنا في حديقـــة الحيوانـــات. ولا أذكر، منذ بدأت العيش هنا، أنه زار الحديقة في يوم من الأيام. كان يمر أحياناً عابراً، ككل العابرين، على الرصيف المحاذي للمدخل. وفي أحيان نادرة أخرى كان يلتفت إلى البوابة، كأنما دون قصد، فيرمـــي سلاماً مختزلاً بيده من بعيد إذا صادف أحداً من العاملين.

استوى أمامنا الآن على السطح بتيشـــرته الأبـــيض الناصـــع وبنطلونه الجينز وحذائه الرياضيّ الأبيض النظيف، وقد بدا، في عينيّ، بمقاييسه الجديدة التي رأته بها نونا في منامها البارحة. وكمـــا لـــو أن فيكتور إيفانيتش وأركادي كوزميتش قد شعرا، هما أيضـــاً، بحجـــم عصام الجديد، فابتعدا معي تلقائياً عن الديوانة ليتمكّن من الجلـــوس وحده إلى جانب نونا.

لكنّ عصام ظلّ واقفاً عند الدرج، متحرّجاً كأنما من ظهـــوره المباغت بين كل هؤلاء الناس الواقفين باستقباله على سطحنا.

كانت الزرافة قد قطعت مشـــاهدتها الأحـــداثَ الصـــامتة في التلفزيون، والتفتت نحو عصام، فكرتها الثانية المهمة، تتملّى به بانتباه شديد، لتتأكّد، كأنما، من تمام معناه الذي هدفتْ إليه وهي تـــرمش بأهدابها الطويلة الفاحمة.

تردّدت غزال حائرةً، في هذه الأثناء، بين حذاء عصـــام وبـــين موستاش المحفول بها، فكانت اللحظة مناسبة لأن يخصّها بنبحةٍ خافتةٍ ودافئة، وهو يقودها بحنكة وسلاسة وعطف إلى كفّ نونا المفتوحـــة لها على بعد خطوات قليلة.

قفزت غزال إلى يدَيْ نونا، وجلست بين ذراعيها فوق كومة الصوف المشغول في حضنها.

ابتسم عصام ابتسامة قصيرة وخجولة لقطّته، ثم تبعها وجلس على مقربة منها على الديوانة إلى جانب نونا، فجلس الجميع.

ظل عصام صامتاً ينظر إلى أصابع يديه الضخمتين المشبوكتين فوق ركبتيه فترةً بدت لي طويلة جداً. كان واضحاً أنه يشعر بكلّ عيون الناس المصوّبة إليه. وربما كان يدرك أنهم في أمسّ الحاجة الآن إلى أن يؤكّد لهم أنهم ليسوا مخدوعين، وأنهم مختلفون اليوم عمّا كانوا عليه بالأمس القريب، وأنهم، إذا شاء، مستعدّون ليجترحوا معه، في هذه الليلة، ما لم يخطر أبداً ببالِ أيّ واحد منهم. وقد وددتُ كثيراً أن يكون، هو الآخر، مستعداً لأن يعتبر وجوده، مع كلّ هؤلاء الناس في هذه اللحظات، تتمّة طبيعية لكل ما حدث ويحدث في الحيّ الروسي وما حوله منذ سنوات. ولعلّه قد فهم، منذ أول ظهوره، أن اجتماعه الآن معهم على سطحنا بحضور الزرافة ليس عبثاً، ولا كان عبثاً عثورنا ليلة البارحة على عصفور نونا، ولا كذلك مقاييسه الجديدة التي يجلس بها أمام أعيننا على الديوانة إلى جوار نونا. لا بدّ أن الزمن المحنّك العجوز قد تمكّن أخيراً، بيديه الخبيرتين المعروقتين الخفيّتين، من لملمة خيوط حكاية الحي الروسي التي طالما قطّعتْها الأحداثُ الفظيعة بين أصابعه، فحدّد هذه الليلة موعداً أكيداً ليوم عصام المجيد. اليوم الذي ظلّ الناس ينتظرونه منذ أصبح أول وآخر رجلٍ تحدّى سلطة بوريا في الحي الروسي. ولعلّهم قد أدركوا، الآن فقط، لماذا خافوا عليه من لقاء بوريا في ليلة الثلج المشهودة أمام حديقة الحيوانات. كأنهم حدسوا بالفطرة، آنذاك، أن أيامهم الصعبة

لم تأت بعد، وأن حميرهم وذخيرهم عصام كان سيجترح يومه المجيد في توقيت خاطئ لو أنه اشتبك مع بوريا في تلك الليلة البعيـــدة. إن بوريا، في نهاية الأمر، كان، ولا يزال، لصاً قويّاً منظّماً يحاصص الناس بأرزاقهم لا أكثر من ذلك ولا أقل. أمّا الآن، وقد بدأ الحي الروسي ينزلق، بسرعةٍ مرعبة، في قلب الهاوية، فلا بدّ أن عصام قد أيقن أخيراً أن الأوان قد حان فعلاً ليومه المنتظَر، وأنه قد جاء إلينا في هذا المساء الفاصل ليبدأ بنفسه حكايته التي نشعر بأحداثها الغامضة منذ الأمس. وكان الوقت الآن أضيق من تبذيره بالصمت الطويل، فانتظرتُ منـــه أن يبادر حالاً، وقبل أيّ شيء آخر، إلى شرح طبيعة هذه الأحــداث التي ستحدث ربما بعد قليل. وأن يوضّح لنا، على وجـــه الســـرعة، ببضع كلمات بسيطة ومفهومة للجميع، ما إذا كنا سنشارك بهـــا أم إننا سنراها، كغيرها من الأحداث، في التلفزيونات فقط. وفي حـــال مشاركتنا بها فسوف يترتب عليه أيضاً أن يوجهنا من كلّ بـــد، وأن يوزّع علينا ما يشاء من المهامّ التي تناسبنا نحن بالذات. فالمهم بالنسبة إلينا، كما لا بدّ أنه يعرف جيداً مثل غالبية الناس في الحي الروســـي، هو أن لا يدفعنا أحدٌ إلى القتال في سبيل أيّ شيء من الأشياء الـــتي يُقتل الناس من أجلها في كل مكان. وما كنت لأعتقـــد أصـــلاً أن سكان الحي الروسي عموماً سوف يقبلون الآن بأن يموتوا، طواعيةً، على طريقة القتلى المتدفّقين من كل الجهات إلى كـــل الجهـــات في بلادنا منذ سنوات. ولا أذكر أنهم كانوا مؤمنين، يوماً، بالموت أسوةً بالقرابين الأبرار الشائعين كثيراً في نشـــرات الأخبـــار المحلّيـــة وفي خطابات الرؤساء المنتخبين مدى الحياة وزعماء الطوائف و..

- اليوم.. كان موستاش عندنا في البيت من الصبح..

قال عصام فجأةً، مقاطعاً تداعياتي الداخلية، فيما كان لا يـــزال ينظر إلى أصابع يديه الضخمتين المشبوكتين فوق ركبتيه.

- وقبل الظهر جاءت رئيسة.. لعبوا مع غـــزال.. موســـتاش ورئيسة..

أردف بصوت متقطّع، ثم زفر بضيق مباغتٍ لم يعرف كيـــف يخفيه عنّا، ففكّ يديه المشبوكتين، وجعل ينظر إلى أظـــافر أصـــابعه بوجوم وقلق ظاهرين.

- بعد الظهر نامت غزال تحت التخت..

تابع مثل مضطرٍ لاعتراف.

- لحقها موستاش..

أضاف برغبةٍ أقلّ.

- ورئيسة دخلت بالزّور.. تحت التخت.. وناموا كلّهم..

تابع، بعد تريّث قصير، بلهجة من يختم كلامه، وقد رفع عينيه إلى الجالسين من حوله أخيراً. بدأ يستطلع وجوههم المشدودة إليـــه كمن يتعرفّ إليهم ويتذكّر ربما بعض أسمائهم، لكن بتعثّـــرٍ وكلـــلٍ واضحين. ولا بدّ أنه قد فهم، بعد لحظات عصيبةٍ عليه وعلى النـــاس من حوله، أن ما قاله حتى الآن ليس كافياً، ولا شافياً لأحد. وإذ عاد ينظر إلى أصابع يديه بدا مثل خائبٍ من الوجوه التي رآهـــا أو مـــن فكرةٍ وحيدةٍ في رأسه تَبَيّنَ له الآن أنها لم تكن أبداً على مقـــاس مـــا يريد كلّ هؤلاء الناس منه في هذه الليلة. ثم ما لبثـــتْ أن تحرّكـــتْ أنظارُ الجميع المشدوهة المُسَدَّدة كلّها الآن باتّجاه يده التي مدّها ببطء إلى حضن نونا- تناول غزال برفق شديد كما لو كانت نائمة. وكما لم يتوقّع أحدٌ منهم نهض عصام فجأةً من علـــى الديوانـــة، وكـــان

واضحاً أنه قد نهض ليخرج. وما كانوا، الآن، ليفهموا بأي حال أنه سيتركهم حقاً ويذهب. أربكَهم الذهول، فلم يجدوا ما يقولونه، ولا عرف أيّ منهم كيف ينهض في الحال ليفعل شيئاً، أيّ شيء. غير أن عصام سرعان ما تسمّر فجأةً في مكانه، وقد ضمّ غزال إلى صدره يحميها بين ذراعيه، حين انفجر فوق الجميع دويٌّ متطاول فظيع لقذيفةٍ مختلفة عن كلّ قذائف الدبابات والمدافع الثقيلة وراجمات الصواريخ التي انطلقت من بساتين الحي الروسي باتجاه الغوطة طوال الحصار.

كأن كتلة عملاقة من حديد انزلقت انزلاقاً شاقاً وعنيداً فوق سطحٍ حديديّ هائلٍ، وهي تعول عويلاً معدنياً رهيباً ظل يتعاظم في عظامهم حتى انقطع فجأةً، فانقطعت معه أنفاسهم وجمدوا. وبعد لحظةٍ طويلةٍ مضنيةٍ اهتزّت الأرض تحت أقدامهم، فانقطعت الكهرباء في كل مكان، وتحطّم زجاج النوافذ والأبواب والشرفات والفترينات في الشارع المجاور الذي يطلّ عليه سطحنا. كأنّ الكتلة الحديدية العملاقة السابحة في الهواء قد ارتطمت، في تلك اللحظة، بكتلة حديدية عملاقة أخرى جاثمة هناك، عند جيرانهم في الغوطة، فارتجّ كل شيء هنا، كما لم يعهدوا قطّ في الحيّ الروسي. وكما لم يشعر أحد منهم قطّ، منذ زخّات الرصاص الأولى في صدور المتظاهرين الذين رأوهم في التلفزيون حتى مختلف القذائف التي سمعوها بالأذن المجردة على مدى سنوات، كان رعبهم الآن رعباً جديداً يستحيل احتماله والاعتياد عليه كما فعلوا دائماً في الماضي.

وكان الناس، مع لحظة الانفجار، قد فزّوا جميعاً من أماكنهم والتحموا تلقائيّاً، بعضهم ببعض، قطيعاً ضخماً متراصّاً من اللحم

الآدمي الحار المرتجف حول عصام. ومع بقايا ألواح زجاج متساقطة في مكان قريب، وعويل امرأة رفيع صعد كأنما إلى السماء، شقَّ عصام طريقه من بين الأجساد، المرتعدة المتلاحمة في الظلام، باتجاه رأس الدرج. وقد كان على أحدٍ منّا أن يلحق به برغم كل شيء، فوجدتني ونونا نخرج وراءه، تلقائياً، من قلب اللحم الآدمي الذاهل المتداخل. تمكّنا من تمييزه في الظلام على الدرجات الأخيرة قبل أن يبلغ أرض الحديقة، فنزلنا في أثره دون إبطاء. ثم قدّرتُ أنه سينعطف، بعد خروجه من البوابة، إلى اليمين- إلى حيث يتقاطع شارع الحديقة مع شارع الملاهي الذي يمكن أن يأخذه إلى كباريه المعلّم أرتين، وكذلك مع الزقاق الذي يفضي به إلى بيته، لكنه انعطف في الجهة المعاكسة. كان شارع الحديقة الآن خالياً تماماً من الناس، ولم يكن ثمة أثر لشمعةٍ أو لضوء شاحنٍ أو لأيّ حسٍّ في نوافذ المنازل وشرفاها المطلّة من الجانبين. غير أنني انتبهت، بعد قليل، إلى وهس خطوات تتبعنا من بعيد، فالتفتّ- كان موستاش، على ضوء قمر خافت بين غيوم صيفية عالية، يمضي في أثرنا وقد تقدّم رئيسة بتروفنا ببضع خطوات. ثم بدا واضحاً أنه كان يترك بيننا وبينه مسافة لا يريد أن يتجاوزها، كما لو كان يفوّضنا وحدنا، نونا وأنا، بمهمّة اللحاق بعصام ومفاتحته، وجهاً لوجه، بما ينتظره منه الناس هذه الليلةَ في الحي الروسي.

ظلّ عصام يسعى أمامنا، في شارع الحديقة، بخطوات طويلة موزونة وحثيثة حتى انسلّ فجأةً في شارع فرعيّ إلى اليسار، فغاب عن نظرنا. وحين اقتفينا أثره، بعد قليل، كان قد تمكّن من توسيع المسافة ما بيننا أكثر فأكثر، فجعلنا نحثّ خطانا ما أمكننا- كأنه يفرّ

منّا، فكّرتُ. ثم سمعتُ لهاثاً ووقع خطوات سريعة تقترب منّا، فنظرتُ إلى الوراء، وإذا بأركادي كوزميتش يجري مبهور الأنفاس على بعد مترين أو ثلاثة أمتار. ومن بعيد لاح لي، تحت ضوء القمر الشحيح، شبح موستاش من جديد منعطفاً وراءنا، فيما تأخّر عنه قليلاً شبح رئيسة بتروفنا. وعلى أثرهما اندلق في الشارع الفرعيّ نفسه، دفعةً واحدةً، قطيعُ اللحم الآدميّ الحار المعتم الذي كان يرتعد على سطحنا قبل قليل، وقد توقّف الآن يراقبنا من أول الشارع ككائنٍ خرافيٍّ برؤوس كثيرة وعيون لا تحصى.

ظللنا، نونا وأنا، نحاول عبثاً تقصير المسافة بيننا وبين عصام حتى توقّف فجأةً مثل تمثال ضخم في وسط الشارع، فلَبَدْنا فوراً مُقرفصين في مكاننا، وكلّ منّا يحمي رأسه بذراعيه، فيما انبطح أركادي كوزميتش على الأرض وراءنا مباشرةً. وكان الكائن الخرافيّ المعتم قد انقبض حجمه في هذه الأثناء، بلمحة بصر، ولَطَأ مُرْتَصّاً كتلةً متشنّجةً واحدةً بجدار بناية على رصيف الشارع الأيسر. وحده ظلّ شبح موستاش واقفاً بهدوء في المسافة الفارغة التي كان ما يزال مؤمناً بضرورتها بيننا وبينه حتى في هذه اللحظة- كان يتلفّت فيما حوله، كما لو أنه يتأكّد من أن أحداً لم يصب بشظايا قذيفة الهاون التي وصلت الآن من الغوطة إلى شرفةِ طابقٍ أخير من بنايةٍ على رصيف الشارع الأيمن. وإذ توقّف تساقطُ أحجارٍ قليلة وأشياء معدنية وفخاريّة من الشرفة المصابة على بلاط الرصيف هبط، كأنما من السماء، صمت مطبق خانق فوق صدورنا. ثم لم تمض ثوانٍ معدودات حتى شقّ الصمتَ الثقيلَ صوتٌ يُغالب هلعاً شديداً من قلب الكتلة البشريّة المرصوصة اللاطئة بالجدار:

- لكان يسرّني أن يتمتّع الجنود كلّهم بجسمها الرقيق على أن لا أعلم..

كان ذلك صوت الساعاتي القدير عبد الجليل حجازي.

تابع عصام طريقه.

فنهضنا، نونا وأنا وأركادي كوزميتش، وتبعناه بخطانا الحثيثة.

- أما الآن ففراقاً أبدياً لراحة النفس، فراقاً للسرور، فراقاً للكتائب التي تزدهي خوذها بالريش الناصع وللحروب التي تجعل الطموح فضيلة..

تابع صوت عبد الجليل حجازي وراءنا متدرّجاً إلى طبقةٍ أعلى فأعلى، فيما كان صداه يتردّد من حولنا في سكون الشارع المظلم.

عاد أركادي كوزميتش يلهث إلى جانبي، وكان واضحاً أنه لم يعد قادراً على مجاراة سرعتنا أنا ونونا وراء عصام أكثر من ذلك، فأمسك بذراعي.

- أوّاه فراقاً للخيل وللبوق العزّاف وللطبل الذي يشب حرارة النفس ولسائر الأشياء التي تنجم عنها الكبرياء والعظمة..

ظلّ يتناهى إلينا صوت عبد الجليل حجازي، كأنما من على خشبة مسرح متحرّكة تتبعنا من بعيد، فقد كانوا ما يزالون يزحفون وراءنا، إنما بخطى أبطأ وأكثر حذراً، كما لو بتأثير موستاش الذي ظلّ يدير المسافة الفاصلة بيننا وبينهم باقتدار ملموس. ولعلّ رباطة جأشه وتوقيت نبحاته القصيرة البليغة الحازمة وكذلك دقة الإشارات التي كان يوزّعها، بذيله وأذنيه وبوزات جسده، على الجميع كان لها بالغ الأثر في النفوس الزاحفة المضطربة المتداخلة بعضها في بعض.

وكذا بدا شبح رئيسة بتروفنا إلى جانبه مقيداً كأنما بحذافير تعليماتـــه الصارمة وراضياً عنها في الوقت نفسه.

- وأنتِ أيتها الآلات الحربية المُهلِكة..

تابع عبد الجليل حجازي.

وكان عصام يتابع ابتعاده عنّا بالهمة نفسها، وقد أصـــبح الآن يغيب ويظهر تحت ضوء القمر الضعيف. ثم بدتْ لي المسافة الطويلة، التي أصبحت تفصلنا عنه، كافية لأن نضيّع أثره- كان يستطيع الآن أن ينضمّ في أيّ زقاق إلى اليمين أو إلى اليسار، ولن نـــتمكّن مـــن إدراكه قبل أن ينعطف في زقاق آخر- سحبتُ، عندئذٍ، يدي مـــن قبضة أركادي كوزميتش واندفعت أعدو بكل طـــاقتي إلى الأمـــام، وكذا فعلت نونا. وإذ تمكّنا من الاقتراب منه أخيراً صار بإمكان أيّ منا أن يلمس بيده ظهر تيشرته الضخم المتقدّم أمامنا. وكان علينـــا الآن، لكي نحافظ على هذه المسافة القصيرة بيننا إلى هذا الحـــدّ، أن نهرول خلفه دون توقف، فقد ظلّ يتابع، دون كلل، خطاه المتسارعة الدؤوبة الواسعة، كما لو أنه لا يشعر بلهاثنا المســـموع ولا بوقـــع خطانا المتدفقة وراءه مباشرة. ثم ما لبث أن انعطف في زاروب قصير أفضى بنا في نهايته إلى زاروب آخر لا أعرفه، ولا أعتقـــد أن نونـــا كانت تعرفه، غير أن ذلك لم يمنعنا من متابعة الهرولة وراءه. ثم كان مشجّعاً لنا وموحياً جداً أن غزال أطلّت علينا فجأةً من وراء كتـــف عصام العالية، وقد مكّننا القمر في الحال من ملاحظة أنها كانت ترنو إلينا بفضول واضح، كما لو أنها تنتظر، ربما منّي، أن أفصح الآن عمّا نريده منها ومن عصام. ولعلّها اعتقدت أنها سوف تسمع مني الآن ما كانت قد فهمتْه طوال النهار من موستاش في بيت عصـــام. ولربمـــا

ظنّت أيضاً أن شرحي سيكون أوضح من شرحه لـبعض أفكـاره المركّبة التي لم تنهضم معها حتى الآن، فجعلتْ تزرّر عينيهـا علـيّ، وأحياناً تميل برأسها إلى اليسار وإلى الـيمين في مسـعىً، كأنمـا، لاستدراجي إلى الكلام. وقد بدا لي حقاً أن اللحظـة قـد تكـون مناسبة جداً لأن أقول أخيراً شيئاً ما لعصام، أو لغزال على الأقـل. لكنّ الزاروب الذي كان يقودنا فيه أصبح فجأةً حالك الظلمة، إمـا لشدّة ضيقه وعلوّ جدرانه من الجانبين، أو لأن القمر قد احتجب في تلك اللحظة وراء حشد من الغيوم. لم أعد أميّز شيئاً مـن عصـام سوى عيني غزال المتوهّجتين تسعيان أمامي في الظلام العالي. وكـان وقع خطواته قد تسارع أكثر فأكثر في هذه الأثناء، فوجدتني، برغم لهاثي، أعدو وراءه من جديد مهتدياً بعيني غزال الهاربتين. ثم أدركتُ أنني إذا لم أقل شيئاً لأيّ منهما الآن فقد لا أتمكّن من قول أي شيءٍ على الإطلاق بعد دقائق- كنت متأكّداً من أن قواي لن تمكّنني مـن العدْوِ خلف عصام مدة طويلة. وكنت أخشى، إذا تلبّثـتُ قلـيلاً لألتقط أنفاسي، أن أُفلت إحساسي بوجودهمـا قريبـاً مـني. ثم إن رأسي، إلى ذلك كلّه، كان فارغاً تماماً من أيّ تعبير مفيـد في تلـك اللحظة، فانتظرت أن تعاجلهما نونا بالكلام. ما كان يمكن أن أقوله لهما لن يكون حتماً أكثر فائدةً ودقّة وإقناعاً مما يمكن أن تقوله نونا، فكّرتُ. إنها، على الأقل، أكثر إحساساً مني، ودرايةً ربما، بما يعنيـه عصفورها الذي حاكته بيديها، وأمتنُ صلةً ومعرفةً بحجـم عصـام الجديد. وربما بسبب أنفاسي السريعة المبهورة، أو بسـبب خـوفي المتفاقم من أن يفلت منا عصام وغزال قبل أن يسـمعا منـا كلمـة واحدة، بدأ الهواء يقلّ في صدري. مددت يدي باتجاه نونا لأتأكّـد

من وجودها إلى جانبـــي في الظلام. وإذ قبضتْ بأصابعها المرتعشـــة على أصابعي أحسستُ بمقدار الخيبة التي كانت تشـــعر بهـــا الآن، وعرفت أنها لن تقوى، هي الأخرى، على قول أيّ شيء لعصـــام أو لغزال. وكان إنهاكنا الشديد الآن كافياً حتماً لأن يجعلنا نقتنع معـــاً، بسهولة شديدة، أن عصام لن يتوقف بأيّ حال وليس مستعداً أبـــداً لأن يسمع شيئاً من أحدٍ عن أيّ شيء. ثم شعرت بـــأنني لم أعـــد، حقيقةً، قادراً على متابعة الجري، وأن عصام صار، حقيقةً، يبتعد عنّا أكثر فأكثر، فصرختُ:

- عصاااااام!

اصطدمتُ، ربما بعد لحظات، بما يشبه جداراً مغلّفاً كأنما بقطنٍ مضغوط، وسقطتُ من طولي في الحال، وكدتُ أتكوّم علـــى الأرض لولا أنني تمكّنت من الإمساك بيدٍ قويةٍ سبقتْ سقوطي ورفعـــتني في اللحظة الأخيرة ثم أوقفتني على قدميّ من جديد.

- شو؟

جاءني صوت عصام من مكانٍ ما في الظلام الحالـــك، بنبرتـــه الخفيضة الأهليّة البسيطة المُلَبَّكة حين يضطر نادراً إلى أن يَسأل سؤالاً لا يلزمه جوابه. كنت لا أرى وجهه، بل أشعر بحرارة اليد الضخمة القويّة، التي أنهضتني منذ قليل، قريبةً من وجهي. كان وجهه، كمـــا خيّل إليّ، بعيداً جداً في العتمة العالية.

- ولا شي.

أجبتُ، بصوت خفيض كأنما لنفسي، وقد أحسستُ بأنّ كـــلّ ما يمكن أن أقوله الآن لعصام، الواقف أمامي، الذي لا أراه والذي لا بدّ يسمعني بوضوح، سيكون نافلاً وفي غير محلّه. سمعتُه، بعد قليـــل،

يبتعد عنّي بإيقاع تقدّمه السريع نفسه، و لم أتبعه، ولا تبعته نونا.

ظللنا، نونا وأنا، واقفين حتى اضمحلّ تماماً وقع خطوات عصام في الظلام البعيد الدامس. كانت يد نونا في يدي حين عدنا أدراجنا. ولكي لا نصطدم بشيء، فننكبّ على وجهينا، قالت نونا يجب أن نهتدي بحائط. ثم وجّهتني برفقٍ إلى اليسار، ونحن نشحط أحذيتنا شحطاً بطيئاً حذراً على سطح الأرض، حتى لمستُ حائطاً إلى جانبي- كان قريباً جداً، وسطحه أملس كحجرٍ مصقول. ثم سرعان ما أصبح سطح الحائط يتبدّل تحت أصابعي إلى خشنٍ أو مستوٍ كمدهون أو مقشور أو مصقولٍ مرةً أخرى. وأحياناً كانت يدي تتعرّف إلى سطوح بيبان مغلقةٍ خشبيةٍ مخلّعة أو متينةٍ مكسوّةٍ بزخارف مشققة أو مُلفّحة بالتوتياء والمسامير الكبيرة من تلك التي كثيراً ما رأيتها في المشاطية وقاضي عسكر وحارة الباشا. كما صادفني، غير مرة، فراغٌ بمقدار خطوتين أو ثلاث، فكنت أتقدّم ببطء أشدّ وبتركيزٍ أقوى، رافعاً أصابع يدي اليسرى المتوجّسة في الهواء الأسود، حتى أستلم الحائط من جديد.

- الآن تذكّرت!

قالت نونا فجأةً بصوتٍ مرتعشٍ خافتٍ، كما لو أنها لا تريد أن تُسمّع كلامها لأشخاص آخرين محتملين من حولنا في العتمة.

- كان رأس بوشكين مغطّى بذرق الحمام.. هل تذكر؟ وكنا أنا وأنت نجلس على مقعد أمام تمثاله إلى جوار محطة المترو.. كانت تلك أول مرة رأيتك فيها.

أردفتْ بحرارة، وقد فهمتُ، من صوتها المنفعل المتقطع الخافت ومن التصاقها الشديد بي، أنها توشك على البكاء.

- كانت بيدك دمية قماش وفي يدي كيس ورقي صغير مليء بالفريز.

تابعتْ ثم أجهشتْ بالبكاء إلى صدري، وهي ترتعد كلّها بين يديّ، فاستندتُ إلى الحائط.

- أنا لست خائفة كثيراً.. لا تخف! لا تخفْ! لا أريد أن أخاف كثيراً.. لا أريد أن أذهب إلى أيّ مكان آخر.. أريد أبقى معك هنا.. هنا.. في الحي الروسي.

كنت أشعر بكلماتها الحارة المبهورة قريبةً جداً من فمي. كأنها كانت واقفة على رؤوس أصابعها كما كانت تحب أن تفعل كلما تبادلنا قبلة سريعة مفاجئة ونحن واقفان. وإذ مِلتُ برأسي قليلاً جداً باتجاه أنفاسها الساخنة القريبة التصق فمي بفمها المرتعش المبلّل بدموعها المالحة. رَفَفْتُ شفتيها رفّتين قصيرتين ثم أطبقتُ عليهما بشفتيّ. تخافت بكاؤها شيئاً فشيئاً حتى اضمحل. وكنت قد غمّضتُ في هذه الأثناء وشعرتُ في الحال بأن ظلام عينيّ المطبقتين عليّ وعلى نونا قد انتشلنا الآن من قلب الظلام السميك الصلد الشائك في الزقاق الموحش. لم أجرؤ على الخروج من ظلامنا الخاصّ الهنيء الدافئ الزلق الحميم، فلم أفتح عينيّ، ولا سحبت نونا شفتيها من شفتيّ. كنا نوغل في قبلتنا عمداً وبعيداً عن كل ما يحيط بنا، كأننا كنا نهرب بكل طاقتنا أو نختبئ بكلّ قوانا في سقيفة آمنة أو في رحم موصَد. وكان يمكننا، ربما، أن نبقى هاربين في قبلتنا المقفلة علينا حتى الصباح لولا أنني سمعتُ، ولعل نونا قد سمعت أيضاً، وَهْسَ خطواتِ شخص يقترب منّا. أحكمتُ ذراعيّ حول نونا، ثم فتّحت عينيّ ووجدتني من جديد في قلب الظلام الصلد السميك القارس. لم أرَ

أحداً. بيد أن الخطوات ظلّت تقترب منّا.

- من؟

هتفتُ.

- أركادي كوزميتش.

أجابني بهدوء ومودّة من مكان قريب، ثم شعرتُ بأصابعه تمسك بمرفق يدي وتسحبني برفق إلى الأمام، فطاوعتها وأنا أمسك نونا بيدي الأخرى. صرتُ أسمع دبيب أحذيتنا البطيء على الحجر المرصوف في الزقاق المعتم، فيما بدأ أركادي كوزميتش يُسمعني زفرات طويلة فهمت منها أنه سوف يفاتحني الآن بشيءٍ يطلبه مني ربما، أو يطلب مشورتي به على الأقل.

- أنت طبعاً تعرف رئيسة بتروفنا بشكلٍ جيد.

بادرني أركادي كوزميتش، ثم أكّد عنّي معرفتي الجيدة برئيسة بتروفنا:

- بلا أدنى شك.

ثم تابع بعد صمت قصير:

- لا أريد أن أثبت لك طبعاً أن رئيسة بتروفنا ليست مجرد كلبة أفغانية جاء بها فيكتور إيفانيتش ذات يوم من روسيا إلى الحي الروسي. أنت أذكى وأشدّ رهافةً وفضولاً من أن تكتفي بكلمتين مُستهلَكتين من هذا القبيل لتوصيف مخلوقة مميّزة مثل رئيسة بتروفنا. هناك مخلوقات غير قليلة تصادفها في حياتك وتستطيع اختزالها فوراً بمعلوماتك العامة السابقة القليلة عنها دون أن تشعر بأنك قد غبنتَها، فهي مخلوقات منيعة كتيمة بكماء لا تقول شيئاً خاصاً ولا ترشح بشيء

ولا تشير إلى شيء. قد أكون مخطئاً على كل حال، ولكني أعتقد مبدئياً أن هذا الظلام الكلّي الذي يبتلعنا الآن مثلاً أبلغ من تلك المخلوقات المنيعة وأكثر إيحاء بما لا يقاس. أما رئيسة بتروفنا فمن طينة أخرى، من تلك الكائنات الفريدة القادرة، في لحظة محدّدة تمنحها لها الطبيعة أو أيّ قوة خارقة أخرى إذا شئت، على إطلاق إشارات مصيرية غالباً في حياة الآخرين. وعلى الآخرين، كما يُفترّض بهم كبشر أسوياء مثلك على سبيل المثال ومثل الآنسة نونا ومثلي إذا سمحتَ لي، أن يكونوا مستعدّين دائماً لأن يلمحوا مثل هذه الإشارات المهمة قبل فوات الأوان. وهذا ما حصل معي في صباح هذا اليوم.

وهنا انعطف بنا أركادي كوزميتش في زقاق معتم آخر، وقد أمسك للحظات عن الكلام، ثم تابع:

- لن أدخلك الآن في حيثيات لقائي برئيسة بتروفنا في صالة مسرح المركز الثقافي صباح هذا اليوم. ما يهمني أن أنقله إليك هو أنني رأيتك هناك يا عزيزي في نسختين اثنتين على قرص درج المسرح الخارجي في عيني رئيسة بتروفنا. في كل عين نسخة. وأستطيع أن أدّعي أمامك الآن أنك، ومن النسختين، كنت تنظر إليّ دون سواي على الأقل في تلك اللحظات. لم يكن على كل حال أحد غيري على قرص الدرج مع رئيسة بتروفنا في ذلك الوقت المبكّر. وأعتقد، لأسباب تتعلّق بي شخصياً، أن ظهورك بالذّات في عيني رئيسة بتروفنا يمكن أن يعنيك أنت أيضاً إلى هذه الدرجة

أو تلك. لا تعترض أرجوك قبل أن تسمعني إلى الآخر! ما أريد أن أقوله هو أن ظهورك هنا إشارة، وهذه الإشارة إذا كانت موجهة إلي أولاً فإنها، كما أظنّ وأتمنى، موجهة إليك أيضاً. لماذا؟ ببساطة لأن الجهة الخارقة التي أرسلتْها، الأقدار إذا شئت، كانت تستطيع أن تُظهِر لي شخصاً آخر في عيني رئيسة بتروفنا. ولا بدّ لي هنا من أن أطمئنك يا عزيزي بأني لا أريد حقاً أن أفرض عليك شراكةً ما بشيءٍ تستبعده، وربما تزدري به، فأنت غير ملزم، لا من بعيد ولا من قريب، بأيّ دور إلا إذا وجدت نفسك منهمكاً بالقيام به تلقائياً وعلى أحسن ما يرام. ولكنني، من ناحية أخرى، أودّ فعلاً ومن كل قلبي أن ألفت نظرك إلى أنني مقتنع تقريباً، ومنذ مدة طويلة، بأن الأقدار لا تمارس الهراء دائماً مع البشر. وبناءً عليه فإنني أخشى حقيقةً من أنني قد لا أتمكّن، مبدئياً على الأقل، من استبعاد دورك المهم في تفسير وترجمة إشارة أقداري الخاصة إلى أرض الواقع. والآن اسمح لي أن أعرض عليك قراءتي، أنا، لمعنى وجودك المزدوج في عيني رئيسة بتروفنا هذا الصباح، ولك كل الحق بعد ذلك في أن تعتبرها تهيؤات رجل عجوز حالم لا أكثر ولا أقل.

وكان أركادي كوزميتش قد انعطف بنا من جديد في زقاق آخر، وقد أصبح الظلام في هذه الأثناء أقلّ حلكةً، كما لو أن القمر قد أطلّ الآن من ثغرة ضيقة بين الغيوم، فاستطعت أن أميّز أن الزقاق الذي نمضي فيه الآن سوف يتقاطع في نهايته مع شارع الحديقة.

- أعتقد، تابع أركادي كوزميتش، أنني أملك أسبابي الكافية لأن تصبح قراءتي هذه في مصلحتي الخاصة قدر الإمكان. أقول هذا لكي أكون واضحاً معك منذ البداية، فتكون شراكتك معي، إذا تمّتْ، خياراً بمحض إرادتك، تماماً كرجلٍ يعرف السباحة جيداً ويلقي بنفسه فجأةً في نهرٍ جارف لكي ينقذ شخصاً لا يعرفه من الغرق. ولكن، قبل ذلك، ماهي مصالحي الشخصية الممكنة في الحي الروسي على وجه التحديد؟ حتى صباح هذا اليوم كنت أعتقد أن لي مصلحة وحيدة هنا وهي خدمة اللغة الروسية على طريقتي. لن أخبرك طبعاً بالشيء المؤسف الذي حدث معي اليوم تحديداً بهذا الخصوص، على أهميته الكبيرة، لأنه، أولاً، خارج نطاق موضوعنا، وثانياً لكي لا يؤثّر في نقاء ملابسات مصلحتي الشخصية الثانية التي اكتشفتها بمحض المصادفة عندما استيقظت هذا الصباح. لا أخفيك أن الطائرات التي أغارت باكراً على جيراننا في غوطة دمشق قد ساعدتني اليوم كثيراً في التعرّف إلى مصلحتي الثانية في الحي الروسي. لقد نبشتْ هذه الطائرات في الكومودينو المجاور لسريري طائرة ألمانية قديمة موجودة في الفصل الأول من رواية كتبتها قبل أربعين عاماً. أعني أنها نبّهتني إلى حاجة روايتي الماسّة إلى كلّ الروائح التي خلّفتها الطائرات اليوم في غوطة دمشق من البلاستيك المحروق والبارود والشواء على حدّ سواء. أنا الآن على يقين من أن تلك الطائرة قد خلّفت الروائح نفسها بين أنقاض المدرسة التي

دمّرتْها في مطلع روايتي قبل أربعين عاماً، غير أنني اكتفيت آنذاك برائحة الشواء فقط. هذا النقص في روايتي يا عزيزي هو السبب السطحيّ المباشر الذي أظهرك في عينيّ رئيسة بتروفنا.

ثم صمت أركادي كوزميتش منتظراً مني على الأغلب أن أستوضحه عن العلاقة بين حاجة روايته إلى رائحتَيْ البلاستيك المحروق والبارود وبين ظهوري في عيني رئيسة بتروفنا. غير أنه سرعان ما ما تابع كلامه.

- في البداية لم أفهم ما علاقتك أنت. قلت سأستدرك النقص حتماً، إن لم يكن اليوم فغداً، ولكني حين رأيتك بعد ساعتين من الطائرات في عيني رئيسة بتروفنا، وفي نسختين، عرفت أن المسألة أشمل وأعمق من استدراك هذا النقص. النقص، على أهمية استدراكه، كان ولا يزال ذريعة للقيام بشيء آخر أيضاً. لو كان النقص هو الغاية الوحيدة من ظهورك في عيني رئيسة بتروفنا لكان كافياً أن تظهر لي بنسخة واحدة. ولكنك ظهرتَ في نسختين، في عينين اثنتين، وهذه رسالة موجّهة إليك قبل أن تكون موجهة إليّ. هل نسيت أنك مترجم؟ هل أشرح لك كيف يرى المترجم العالم؟ أكثر ما ينفرد به المترجم عن باقي خلق الله هو أن العالم لا يستوي في عينيه ما لم يكن في نسختين. أعني في لغتين مختلفتين تقولان الشيء نفسه. كل الناس لهم عينان اثنتان، لكن معظمهم يرون العالم بعين واحدة لأن عينهم الثانية تكرر العالم بالطريقة نفسها التي تراه فيها

عينهم الأولى. أنت ترى العالم نفسه لكن بطريقتين مختلفتين لأنك تراه بلغتين. أنا لا أكتمل في عينيك إلا إذا رأيتني بلغةٍ أخرى، والآنسة نونا كذلك وروايتي الناقصة أيضاً لن تكتمل قبل أن تنجز أنت نسختها الثانية بطريقة أخرى. أنت في كل الأحوال، كما قلت لك، لست ملزماً أبداً بذلك، لكني لن أمنعك حتماً من أن تفعله. وإذا حدث وفعلته، لأسبابك أنت، فسوف يكون مفيداً أن أفاتح فيكتور إيفانيتش بظهورك في عينَيْ رئيسة بتروفنا لعلّه يوافق على نشر الرواية مسلسلة، بالروسية والعربية، في مجلة حائط حديقة الحيوانات. ما رأيك؟ ألا تعتقد أن الغاية النهائية من ظهورك في عيني رئيسة بتروفنا الاثنتين هي أن تُنشَر روايتي بلغتين مختلفتين في مجلة حائط حديقة الحيوانات؟ إنّ عندي، طبعاً، من الوساوس ما يمنعني من أن أفعل ذلك حتى ولو وافق فيكتور إيفانيتش. ولكنّني أريد رأيك أنت. هل تنصحني بذلك حقاً؟ أليس في ذلك مثلاً مغامرةٌ ما غير محسوبة النتائج من قبلي أنا على الأقل؟ أنا أسألك هذه الأسئلة يا عزيزي لأنني أثق بنزاهتك كإنسان ومثقف ومترجم جيد، ولأنني، من ناحية أخرى، على يقين من أنني، إذا تمّ هذا الأمر فعلاً، فسوف أواجه، لأول مرة في حياتي، محنةً قاسيةً لا أعرف حقاً كيف سأعيشها بسلام. لا بدّ ربما من المجازفة- لا فرار منها في نهاية الأمر أليس كذلك؟ لا فرار. دون المجازفة لن يكون هنالك ربما معنى ما أخير. معنى ضروري أخير لكل ما كتبته طوال

حياتي. وإذا كنتُ لم أتمكّن حتى الآن من نشر رواية واحدة في كتاب، فلماذا يا صديقي لا أنشر هذه الرواية مسلسلةً في مجلة حائط حديقة حيوانات، وفي نسختين؟ ماذا أنتظر حقاً بعد كل هذه السنين؟ ما الذي يمنعني؟ وما الذي يجعلني أشعر بالرهبة التي تتلبّسني منذ الآن؟ ما الذي يمكن أن...

ثم سكت أركادي كوزميتش، وقد شعرتُ من أصابعه التي ما زالت تمسك بذراعي، ومن صوته الذي خَفَتَ وتقطّع حتى اختفى، أنه أصبح يغالب في نفسه ألماً حقيقياً يمنعه من مواصلة الكلام. ظلّ صامتاً يمشي إلى جانبي حتى نهاية الزقاق. وإذ انعطفنا معاً في شارع الحديقة شدّد فجأةً من قبضه على ذراعي، فخُيّل إليّ أنه قد شعر، في تلك اللحظة، بوخزة موجعة مفاجئة في خاصرته أو تحت لوح كتفه.

كانت أنوار الأبنية على جانبي الشارع ما تزال مطفأةً في النوافذ وعلى الشرفات، وكذا أعمدة النور كانت خامدة كلها على طول الرصيف، وقد خيّم سكون مطبق ثقيل كأنما على الحي الروسي كله. كان عندي إحساس قويّ بأن أحداً لا ينام الآن في البيوت المعتمة، وربما لن يناموا حتى يعرفوا ما يمكن أن يحدث في هذه الليلة. حتى سلالات الكلاب الأهلية والقطط والسلاحف والأقداد والعنادل والببغاوات في صالونات البيوت لابدّ أنها تشعر، الآن، بالهواء الراكد المظلم الملغوم بالمفاجآت الممكنة في أيّ لحظة، وبالحركات النادرة المتشنّجة المقتضبة من حولها والكلمات القليلة المتوترة الخفيضة حتى الفحيح، فلا تستطيع أن تنام هي الأخرى.

عند بوابة حديقة الحيوانات كان علينا أن نفترق مع أركـــادي كوزميتش، لكنه لم يترك ذراعي، فوقفنا.

- لا يمكن لأحد أياً كانت منزلته عندي أن يكون في مكاني، بادرني أركادي كوزميتش بصوت متوسّل خفيض، أعـــني يا عزيزي اتركْ لي وحدي أرجوك أن أقرر ما إذا كنت في النهاية سأنشر روايتي في حديقة الحيوانات أم لا. لا تقـــل شيئاً لفيكتور إيفانيتش بخصوصها. وانسَ أنت أيضاً، انسَ مبدئياً لو سمحتَ، قصةَ ترجمة الرواية إلى العربية. مبـــدئياً. عندما سأستدرك نقصها من البارود والبلاستيك المحـــروق سأقلّب الأمر على مهلي وأنظر إليه من كـــل النـــواحي، وسوف أخبرك بالنتيجة إذا وجدتُ ذلك ضرورياً. افهمني أرجوك، إنني أكتب بصمت منذ أربعين عاماً ولا ينبغي لي أن أوافق على النشر هكذا في بضع ساعات. سوف يصعب عليّ كثيراً جداً، صدّقني، أن أحمل مسؤولية ثقيلة لا تطاق من هذا النوع في بضع ساعات مضطربة نعيشها جميعـــاً في الحي الروسي. لذلك تكرّمْ علي يا صديقي ولا تـــدفعْني في ظهري لو سمحت! أعني لا تسألْني عن الرواية إذا صادفتني بالطريق غداً مثلاً أو بعد غد! تصرّفْ معي كمـــا كنـــت تتصرف دائماً، كأنني لم أقل لك شيئاً أبداً في هذه الليلـــة العجيبة. لا تؤاخذني لقد ثرثرت أمامك غصباً عني! انـــسَ كل شيء أرجوك! أتمنى لك ولنونا دينيسيفنا ليلة هادئة..

ثم تركنا أركادي كوزميتش، ونحن توجهنا إلى بوابة حديقـــة الحيوانات.

على سطحنا المعتم كانت الزرافة ما تزال في مكانها تنظر باتجاه تلفزيوننا الصغير المطفأ.

لم تلتفت إلينا حين ظهرنا.

لم نقترب منها.

دخلنا فوراً إلى الغرفة.

وكما لم تفعل نونا أبداً أقفلت الباب وراءنا بالمفتاح.

بدّلنا ملابسنا في الظلام دون أن نتبادل كلمة واحدة.

اندسسنا في السرير، ونمنا في الحال.

عصام في الغوطة

I

في الصباح الباكر من اليوم التالي استيقظتُ على نهوض نونا من جانبي قبل المعتاد. سمعت صوت الستارة وهي تنسحب ببطء عن زجاج النافذة، ثم تناهت إليّ، بعد قليل، ضوضاء الدوش في حمام غرفتنا الصغير. لم أنهض من الفراش. لم أكن مستعداً، وما أردت، أن أبدو أمام نونا كما لو أنّ شيئاً مخيّباً للآمال لم يحدث ليلة البارحة. ولا كنت قادراً على أن أموّه إحساسي بأني لا أعرف حقاً ما ينبغي لي أن أفعل في هذا الصباح الغامض الثقيل. غطّيت رأسي بصورةٍ لا تسمح لنونا بأن ترى وجهي عندما ستخرج من الحمام، وأنا أقدّر أنني أستطيع الآن أن أعاود النوم بسهولة وعمق ثم أبقى نائماً طوال النهار. ولعلّي نمتُ فعلاً، أو هكذا خيّل إلي، عندما سمعتُ طرقاً قوياً متواصلاً بباب غرفتنا. فَزَزْتُ من الفراش مثل مفزوع. كانت نونا تجفف شعرها الأخضر على المقعد القريب من السرير. فتحتُ الباب- كانت رشيدة المغربية. أخبرتنا بصوت مبهور وعينين زائغتين أن عصام وغزال لم يأتيا عندها ليلة البارحة، كما لم يفعلا أبداً مهما كانت الأسباب، وأن الحيّ الروسي كلّه مطبولٌ منذ الصباح الباكر بأن أشخاصاً كثيرين شاهدوا عصام ليلة البارحة يقطع البساتين باتجاه الغوطة. ثم سألتنا عمّا إذا كان عصام قد قال لنا شيئاً بخصوص ذهابه المفاجئ إلى هناك، فأنت ونونا وأركادي

كوزميتش كنتم آخر من تبعه حين خرج البارحة من حديقة الحيوانات. لم يقل شيئاً. قلتُ. فوجئتْ، كأنها كانت تنتظر وترجو إجابة أرحم وأكثر تفصيلاً. ثم تأكّدتْ بصوت خفيض مختنق مما إذا كان عصام قد ترك لها بعض كلمات ترشدها إليه، أو لتعرف على الأقل ماذا تفعل بنفسها في غيابه. لم يقل شيئاً. كررتُ بنبرة أخفض. تراجعتْ رشيدة خطوتين بطيئتين إلى الوراء وهي تنظر إلي لتمنحني كأنما وقتاً أخيراً لأتذكّر، ثم أدارت ظهرها وانطلقت مسرعة باتجاه الدرج النازل إلى أرض الحديقة. أغلقتُ باب الغرفة وعدتُ إلى السرير لأجلس على حافته مثل مصعوق. كانت نونا ما تزال جالسةً في المقعد، وقد انكبّت الآن على سيخيها تحوك الصوف بسرعة غير مألوفة. بدت مستغرقة تماماً بعملها كما لو أنها لم تر رشيدة المغربية و لم تسمع أخبارها التي لا تصدّق. وكنت الآن لا أريد ولا أجرؤ، فوق كل ما حدث البارحة، أن أُسَلّم أو أفكّر، بمجرّد التفكير، بأن يكون عصام قد ذهب فعلاً إلى الغوطة. ثم انتشلني فجأةً من ذهولي انفجار قويّ قريب مترافق، على غير العادة، مع كتلة كبيرة من النار والدخان نشبت وراء زجاج نافذتنا، في مكانٍ ليس بعيداً جداً عن حديقة الحيوانات.

بدّلت ملابسي وخرجت بسرعة.

عرفت وأنا خارج من بوابة الحديقة أن أول سيارة مفخخة قد فُجّرت في الحي الروسي منذ دقائق، وأن الطائرات، التي ما تزال تحلّق في السماء، قد شنّت قبل قليل، بالخطأ كما قيل لي، غارةً على بنايتين مهجورتين على حافة بساتين الحيّ من جهة الغوطة.

كان أناس كثيرون يتراكضون باتجاه الحريق الذي خلّفه الانفجار، وآخرون عائدين مهرولين من هناك بوجوه مصفرّة من

الفزع، وقد ضمّ بعضهم أطفالاً باكين مذعورين إلى صـــدورهم، أو حيوانات منزلية صغيرة الحجم متراعشةً من الهلع، أو سنّدوا بأيديهم مُصابين مذهولين ملطّخين بالدم.

تقدّمتُ باتجاه الحريق بخطى مترددة قصيرة.

عرفت الكثير من الوجوه المضطربة المسرعة الـــتي صـــادفتها في طريقي. وقد لفتني أهم كانوا يخصّونني بانتباه صريحٍ مباشـــر ظـــلّ يربكني طوال الوقت. ثم صار يُخيّل إليّ أهم كانوا حريصين على أن أفهم تمييزهم لي، في الجلبة الناشبة، على المحمل الحسن لا غير- كـــأن ما حصل ليلة البارحة على سطحنا في حديقة الحيوانات كان ما يزال يعني لهم الكثير، غير أهم شاهدوا الآن بأعينهم لأول مرة، وليس على شاشات تلفزيوناهم، كيف يُقتل العشرات من الناس دفعةً واحـــدة، فكان طبيعياً، وضرورياً ربما، أن ينتبهوا إليّ- لم تكن عيوهم تتهمني بشيء أو تلومني عليه، إنما كان صعباً علـــيهم ببســـاطة أن يُوَفّقـــوا وحدهم بين إيماهم بالأحداث الواعدة الجديدة التي انتظرناها معاً ليلة البارحة وبين هذه الجثث. ولا بدّ أن الجثث والأشلاء المتناثرة، الـــتي لّموها وأسعفوها بالسيارات والبيكابات والموتوسيكلات وســـيارات الإسعاف إلى أسرّة العنايات المشددة والبرادات في المستشفيات، لا بدّ أها قد زادت كثيراً من رهبة وغموض وجود عصام الآن في الطرف الآخر من البساتين التي تفصل بيننا وبين الغوطة. كانوا لا يجـــرؤون، بطبيعة الحال، على طمس عصامهم بالوحل وسوء النيّـــة والثرثـــرة، ولكنْ كيف كانوا يستطيعون الحفاظ عليه الآن سليماً من الأذى في نفوسهم وقد جرّ كرامتهم العزيزة القديمة معه إلى الغوطة دون كلمةٍ واحدة يقولها لأحدٍ منهم- كانوا إذاً ينتبهون إليّ لكي يفهموا، مـــن

ملامحي على الأقل، ما حصل ليلة البارحة وما يحصل هذا الصباح في الحي الروسي، كما لو كنت ظلّ عصام أو شقيقه أو أنني أمتّ بصلة رحمٍ ما إلى الزرافة أو إلى عصفور نونا. ولعلّهم اعتقدوا أنني مخـوّل، قبل أيّ إنسان آخر، بتفسير ذهاب عصام إلى الغوطة علـى النحـو الذي يُرضي الجميع في الحي الروسي. وقد يكون لديّ، كما يمكـن أن يظنّوا أيضاً، من المعلومات المستحيلة الشافية، التي لم يطّلعوا عليها بعدُ، والتي يمكن أن تقنعهم، أو تحيطهم علماً علـى أقـلّ تقـدير، بضرورة وجود عصام هناك في هذا اليوم بالذّات. كأن عصام كـان سيجنّبهم من السيارة المفخّخة لو كان موجوداً هنا، ولعلّ الطائرات عندئذٍ ما كانت أصلاً لتُغِير، بالخطأ، على أيّ بناية في الحي الروسي.

توقفتُ فجأة على رصيف الشارع.

قلت: لن أذهب إلى مكان الحريق. لا ضرورة لذلك. سـوف أرى المناظر نفسها التي طالما رأيتها، من أماكن كـثيرة أخـرى، في تلفزيوننا الصامت على سطح الحديقة. لن يكون هنالك من جديـد آخر غير أسماء الجثث. حتى الأسماء لم تعد تـدلّ علـى أصـحابها السابقين- لن تكون هنالك بعد الآن أيّ علامةٍ فارقةٍ تميّز أحـدهم عن الآخر لا بالاسم ولا بالكنية ولا بالمذهب ولا بالجنس ولا بالمهنة ولا بتاريخ الميلاد ما داموا، كلّهم، قد تحوّلوا بكبسة زرّ صـغير إلى جثث أو مجرّد أشلاء متناثرة هنا وهناك.

لاحظتُ أنني كنت أقف أمام مطعم فول، فنظرت إلى الداخل- كان هنالك أناس كثيرون، مُصفرّون صامتون واقفون وجالسـون، يوشكون كأنما على البكاء أو السباب أو الصراخ من أعماقهم في أيّ لحظة، لكنهم، في الوقت نفسه، كانوا يأكلون بشراهة لافتة، بأيـدٍ

مرتعشة من الهلع والجوع، كما لو أنهم لم يأكلوا منذ أيام.

تحرّكتُ بخطوات بطيئة باتجاه أول مفرق إلى اليمين. ثم صـــرت أنعطف في أيّ شارع أو زقاق، إلى اليمين أو إلى اليســـار، دون أن أهدف إلى مكان. كنت أنظر من حولي متيقّظـــاً، بكـــلّ حواسّـــي ومشاعري، كأنني كنت أحاول أن أحفظ مـــا أمكـــنني، وأردّد في نفسي، مثل نشيد خفيّ عزيز، ما أراه وأسمعه وأشمّه الآن من الحـــيّ الروسي عن ظهر قلب. حتى تلك الأصوات والروائح التي لا تلفـــت انتباهي عادة، لكنها تمّمت دائماً، دون أن أدري كيف وأين، الصورةَ أو الزاويةَ التي أنظر منها إلى الناس والحيوانات والأشياء في الشوارع. كان يتملّكني إحساس فاجع لرجلٍ سيسافر الآن، ولن يتمكّن لا من اصطحاب الأماكن التي تعلّق بها، ولا، ربما، من رؤيتها مرةً أخـــرى، أو أنني، إذا نمتُ الآن فسوف أستيقظ غداً أو بعد قليل، لسببٍ قاهرٍ من الأسباب، في حيٍّ روسي مختلف تماماً عن حيّي الروسي الـــذي طالما أحببت العيش فيه.

انتزعني فجأةً من تداعياتي بكاءُ امرأة تركض باتجـــاهي علـــى الرصيف، وهي تنتف شعرها الرماديّ وتخمش وجهها. وإذ تقاطعتْ معي مسرعةً، التفتّ إلى الوراء، تلقائياً، لأتابعهـــا بعـــينيّ، فرأيـــت موستاش أبو علي سليمان يتبعني على بعد خطوات قليلة. نظـــر إليّ مستطلعاً موقفي من وجوده ورائي. لم أجبْهُ بـــأيّ إشـــارةٍ إلى أيّ موقف، لكنه فهم، على طريقته الكلبيّة الأهليّة الودودة، أنني لا أمانع من مرافقته لي حتماً، فاستعاد ثقته بنفسه وحثّ خطاه مقترباً مني. ثم مشى إلى جانبـــي بتلقائيةٍ وألفة، كما لو كان كلبـــي الذي يُقـــدّر عادةً ما يجول بخاطري ويتصرّف على هذا الأساس. صـــار يتوقّـــف

حين أتوقّف، وينظر إلى حيث أنظر، ويجهد، بعينيه وأذنيه وذيله وهمهماته الخفيضة مع نفسه، لأن يُشعرني بأنه مشغول تماماً بما يشغلني.

ليت موستاش كان مشغولاً بما يشغلني. فكّرتُ. لو كان مشغولاً حقاً بما يشغلني لما وجد أيّ معنى في أن يتبعني الآن. إنه ما يزال يعيش في ليلة أمس لا أكثر.

كيف أشرح له؟

طار أمامي عصفور من قلب عبّارة مسقوفة إلى يميني. حلّق قريباً من كابلات الكهرباء، ثم اتجه إلى الطرف الآخر من الشارع، وحطّ على منشر غسيل إحدى الشرفات. كان على الشرفة طفل يلوّح بكفّه الصغيرة باتجاهي على الأغلب. رفعت له يدي عالياً لأتأكّد من أنه يراني، فابتسم لي ربما. صرت ألوّح له، وقد توقفتُ من أجله على الرصيف. إنه ينظر إليّ، فكّرتُ، ولا ينتظر مني أن أفعل شيئاً آخر سوى أن أبادله بتلويح يدي ريثما يملّ مني فينصرف إلى شيء آخر. لقد أعجبني كثيراً أنني لا أمثّل شيئاً دائماً بالنسبة إليه، وأن عينيه كان يمكن أن تقعا على غيري عندما خطر بباله أن يرفع يده ويلوّح بها، وأنني، فوق ذلك، سوف أضمحلّ تماماً في ذهنه ما إن أتابع طريقي. ظللتُ ألوّح له وأنتظر، على مهلي، متى يملّني فلا أعود أعني له أيّ شيء. توقّعت أن يستعيض عني، في أيّ لحظة، بصوت أمه الذي قد يناديه فجأةً من داخل الشقة أو بالغصن القريب من يده لشجرة كينا طالعة من رصيف الشارع أو بالعصفور الذي دلّني إليه، والذي كان ما يزال واقفاً، من أجله ربما، على منشر الغسيل. بيد أنني فوجئت، عندئذٍ، بعبد الجليل حجازي رافعاً يده عالياً، هو الآخر، ويشير إلي،

من الرصيف المقابل، أن ألبث في مكاني ريثما يـأتي إليّ في الحـال- كان يقف أمام دكّانه على رأس بضع درجات تحت شرفة الطفـل. شعر الطفل، كأنما، بما شوّش عليّ انتباهي إليه، فلـم أعـد فجـأةً موجوداً بالنسبة إليه، فانصرف عني، بعفويةٍ وبساطة، إلى شـيء لا أراه كان في يده الأخرى. أسبلتُ يدي، وأنا أراقب الآن السـاعاتي عبد الجليل حجازي كيف أنزل غلق دكّانه بسرعة كبيرة، ثم قطـع الشارع إليّ، وهو يرسم على وجهه من بعيد ابتسامةً طليقةً تتنـاقض تماماً مع الاضطراب الذي كان يسود الحي الروسي في ذلك الصباح. صافحني بحرارة وهو ينظر في عينيّ بثبات. شعرت، من ملامح وجهه المعبّرة، بأنه سعيد حقاً برؤيته لي، كما لو أن وجودي إلى جانبه الآن قد خفّف كثيراً من الهلع الذي تسببتْ به للجميـع أخبـارُ عصـام الجديدة وانفجار السيارة المفخخة والخطأ الذي ارتكبته الطـائرات. غير أنني فهمتُ أيضاً من لهفته إليّ كما لو أنه يريد أن يُخبرني بشيءٍ اعتقدَ أنه سوف يُهمني كثيراً وسوف أشكره عليه، لكنه لم يزد على ابتسامته الطليقة شيئاً آخر. ثم أحسستُ بأنه كان يراني الآن لا كما أظهر عادةً في الحي الروسي- كأنه أصبح يُضـيف إليّ مـن عنـده مواصفاتٍ فضفاضةً مرتجلةً ما اتّصفتُ بها في حياتي أبـداً. تابعـت طريقي، وأنا أضيق بمواصفاتي الجديدة المختلقة التي ألصقها بـي الآن عبد الجليل حجازيَ، فمشى إلى جانبـي، تماماً كما كـان يفعـل موستاش على الجانب الآخر، وقد بدا كلاهما كما لو أنهما مشغولان حتماً بما يشغل بالي.

لكنني أستطيع أن أشرح ما يشغلني لعبد الجليل حجازي علـى الأقل.

أن أقول له مثلاً إننا الآن لا نعيش في ليلة أمس يا صديقي عبد الجليل، وإنني، فوق ذلك، لا أصلح، مهما كنتَ سعيداً بـي ومهما رفعتَ الآن من شأني في عينيك، أشكرك طبعاً، لكنني لا أصلح صدّقني لأن أكون أحداً سواي. أنا في نهاية الأمر لست عصام، ولن أكونه. لا أستطيع أن أكونه ببساطة. عصام بطل. والأبطال واضحون، لا يشتّتون أنفسهم بكثرة الاحتمالات ولا يُغرقون أفكارهم بالهواجس والمخاوف والأسئلة، ولا يعرفون كيف يرتابون بأنفسهم وبنواياهم وبغاياتهم ولا كيف يسخرون منها. إنهم، تماماً مثل عصام، يعرفون جيداً، من أقصر الطرق وأوضحها، ما يريدون وماذا يفعلون وإلى أين يمضون ومتى. أنا لست متأكّداً يا عزيزي عبد الجليل من أنني سوف أقودك وموستاش الآن مثلاً إلى المكان الذي يرضيك أو يرضيه أو حتى يرضيني. وإذا أردتَ الحقيقة فأنا لست واثقاً بأيّ فكرة من أفكاري. ولا أجد، إلى ذلك، ما يعيبني أبداً في أن أحتار أمامك في مثل هذا الصباح. غير أنني أستطيع، مثلك تماماً، أن أومن بالأبطال أيضاً، أمشي وراءهم وأرمّم، في بالي على الأقل، خطواتهم الجريئة الفجّة لكي لا يسقطوا من عيني، وحين لا أجد أحداً منهم يمشي أمامي، في يوم أسود كهذا اليوم، أفتقر إليهم كثيراً كما تفتقر إليهم أنت. لأنني مثلك تماماً، ومثل موستاش وآخرين كثيرين في الحي الروسي، لا أريد أن أيأس، ولا أن يذهب أحد، أياً كان، إلى أيّ جبهة من الجبهات في كل الأحوال. وهذا جيد على كل حال. صدّقني هذا ليس بالقليل. لكنه، للأسف الشديد، غير كافٍ أبداً في مثل هذا الصباح. أنا لا أعرف منذ الصباح الباكر ما الذي ينبغي لي أن أفعله. كلّ ما أعرفه بدقة في هذه اللحظات هو

أنني لن أصدّق، وسوف أظل أستبعد بكل قواي، اليوم وغداً وبعد غد، أن يكون هنالك سبب وجيه واحد على وجه الأرض يستحقّ فعلاً أن أفقد في سبيله الحيّ الروسي ذات يوم.

ثم توقّفت لأقول كل ذلك لعبد الجليل حجازي، فتوقف هو الآخر، وقد فهم فوراً أنني سأكلّمه، فاتخذ أمامي فجأةً هيئة مسرحيةً مُتقنةً لجنديّ مُتفانٍ وعلى أهبة الاستعداد لأن ينفّذ، دون اعتراض، كلّ المهام التي افترَضَ أنني سوف أكلّفه بها الآن. كنت أدرك طبعاً مقدار حنينه إلى خشبة المسرح التي اضطر إلى هجرها بسبب حراجة الموقف في الحي الروسي منذ زمن بعيد، غير أنني لم أجرؤ على قول شيءٍ مما أردت قولَهُ له أمام إحساسه المفاجئ الرهيف بالجنديّ الشجاع الذي أصبح يؤدّيه أمامي بإخلاص وبراعة. كانت كلمة واحدة منّي ستهدم فوق رأسه، بلا رحمة، كل الخيال الممتع الدقيق العالي الذي أرتجله أمام عينيّ بلمحة بصر وصار يعيش فيه. ظللتُ صامتاً ومُربَكاً أنظر إليه مأخوذاً بصنعته الجميلة وأشفق عليه في الوقت نفسه، فيما ظلّ متحفّزاً ينظر إلي كمرؤوسٍ مخلصٍ ينتظر الأوامر. ولعلّي كنت سأنتظره ريثما يدفعه صمتيَ الفاتر المتواصل إلى الملل من إحساسه المسرحيّ المتفاني، فأقول له بعدئذٍ ما أريد. بيد أن رجلين اقتربا منّا ووقفا أمامي إلى جوار عبد الجليل حجازي. لا أذكر أنني رأيتهما من قبل، وإن كانت طريقتهما بالنظر إليّ تدلّ على أنهما يعرفانني جيداً. لم يرمِيا السلام علينا، لكنّ أحدهما حيّاني بهزّة حارّة مختزلة من رأسه. ولعلّهما لاحظا البسالة الفنية التي يصغي بها إليّ عبد الجليل حجازي، فلم يقاطعاني معتقدَيْن أنني كنتُ أتكلّم معه قبل وصولهما. ثم صارا يصغيان إليّ هما الآخران، فيما كنت أواصل

صمتي بإصرار. لم يكونا قادرين طبعاً على مجاراة عبد الجليل حجازي بحرفيّته المسرحية بالإصغاء العسكريّ، لكنهما كانا ينظران إليّ كما ينظر المرء إلى بصيص نور في نفق. شعرت بأنني في ورطة وأنّ شيئاً لا يضمن لي بعد قليل أن لا ألتبس على أناسٍ آخرين فيقتربون منّي هم أيضاً، ما دمت واقفاً، وينتظرون مني ما ينتظره عبد الجليل حجازي وهذان الرجلان. وكنت لا أريد أن أغضبهم طبعاً. كنت أدرك أن هذا الصباح قد وضع الجميع في الحيّ الروسي على مفترق جديدٍ صعبٍ ما تخيّلوا أبداً أهم سيواجهونه في يوم من الأيام. ولكنني لست ذلك الرجل الذي يصلح لأن يرفع يده ويشير إلى الآخرين بسبّابته إلى الطريق الصحيح. لم أكن في واقع الأمر واثقاً أصلاً بوجود أيّ طريق صحيح في هذا الصباح. كأنّ قوةً طاغيةً عمياء قد قررت أخيراً أن تدفع الحيّ الروسي في ظهره دفعاً في الوحول والدم والظلام، وكأننا سوف ننقاد لها، ربما بقوة حاجتنا الماسّة إلى الخلاص، فنندفع أمامها تلقائياً دون أن نلتفت إلى الوراء. ما كان صحيحاً وواضحاً وضرورياً بالنسبة إليّ في تلك اللحظات هو أن أغادر مكاني في الشارع بأسرع ما يمكنني. ثم بدا لي أن الرجلين وعبد الجليل حجازي لن يتركوني أمضي من دوهم. وكنت ما أزال حريصاً على عدم جرح مشاعرهم برغم كل شيء، فظللت واقفاً أمامهم، وأنا أشعر بحاجة ماسّة إلى الهواء. وهنا وجد موستاش ما يفعله من أجلي- حشر نفسه فجأةً بين أرجلنا، ثم انبرى، مثل نسمة منعشة، بنباحه الفصيح العالي يفصل ما بيني وبينهم بنباهةٍ وحزم. غير أن نباحه المتواصل سرعان ما شدّ إلينا أناساً آخرين في الشارع، فتلفّتُّ من حولي، وإذا بسيارة أجرة تقترب. أشرت إلى السائق بيدي، فتوقفت السيارة بمحاذاتي بعد

لحظات قليلة طويلة جداً. فتحتُ باب المقعد الأمامي وجلست بسرعة، وقد قفز موستاش، بعدي مباشرةً، إلى داخل السيارة، وجلس في حضني قبل أن أطبق الباب. طلبت من السائق أن يأخذنا إلى حديقة الحيوانات، فانطلق بنا في الحال. كان موستاش في هذه الأثناء قد أخرج رأسه من النافذة المجاورة، وهو يتابع نباحه بالحماسة نفسها- لقد أسأت فهمه حين وجدته ورائي في الشارع وظننت عبثاً أنه ما يزال يعيش في ليلة البارحة. كان الآن قريباً مني إلى درجة أنني شعرتُ بأنه يهجس بكلّ خواطري ومشاعري وأفكاري وينبحها عنّي للناس بأعلى صوته من نافذة السيارة.

II

كان أبو علي سليمان واقفاً أمام بوابة الحديقة حين نزلنا، أنا وموستاش، من سيارة الأجرة. التفتُ إلى دكانه "المحترم"- كان مغلقاً على غير العادة في مثل هذا الوقت. اقترب منّا مضطرب القسمات، وهو يترصّد وجهي بعينيه الواسعتين، وقد انكمشتْ حولهما تجاعيدُ وجهه الكثيرة. فهم من ملامحي وتحيتي المقتضبة، ونبرة صوتي ربما، أنني لن أتريّث بالوقوف معه قبل أن أصعد إلى غرفتي على سطح الحديقة. و لم يكن أبو علي ملحاحاً بطبعه، فجعل اقترابه مني ليستلم، كأنما، كلبه موستاش لا أكثر.

كانت نونا، حين دخلتُ الغرفة، ما تزال تحوك الصوف على المقعد المجاور للسرير. لم تنظر إليّ. و لم أبادر بفتح أيّ حديث معها. خشيتُ من أن تفهم من كلامي، حتى ولو كان عن الطقس، أنني أستهين بحياكتها وأن عصفورها الذي بعث فينا الأمل بأيامنا الجديدة القريبة المقبلة قد انتهى بذهاب عصام إلى الغوطة. ولعلها كانت الآن تتساءل هي نفسها عن جدوى حياكتها دون أن تجرؤ على الكفّ عنها لحظةً واحدة. كانت تبدو مهتمّة، كلّها، بكل غريزةٍ جديدة كما لو أنها بمهارة سيخيها كانت تستدرج الحياة إلى أملٍ أصبح فجأةً ميؤوساً منه. ولعلّها كانت تحمّل نفسها جزءاً، ربما كبيراً، من مسؤولية ما حصل اليوم، ولا تريد أن تستسلم، بل أن تمضي بحياكتها إلى النهاية. وما كنت في الحقيقة بعيداً جداً عن سعيها، العبثيّ ربما، بإحياء الأمل، أيّ أمل، أيّ أمل، وبأيّ طريقة. لا مراعاةً لمشاعرها ومحبةً بتهيّؤاتها فقط، بل أيضاً لأسباب شخصيّةٍ خالصةٍ عصيّةٍ حتى

على إدراكي، فقد كنت ما أزال مؤمناً، برغم كل ما حدث، بأن الزرافة لا تُظهِر لنا أفكارها عبثاً.

استلقيت على السرير بلباس خروجي، ونمت مباشرة.

استيقظت جائعاً مع حلول المساء. كان نور القمر يضيء جزءاً من الغرفة عبر زجاج النافذة. نهضتُ. أشعلتُ النور. لم تكن نونا في الغرفة، غير أن سماءها الصوفية الزرقاء التي انكبّت عليها منذ الصباح الباكر كانت الآن، بكل غيومها الخضراء ونجومها الذهبية، مكوّمة، مثل وعود مستحيلة، على المقعد المجاور للسرير. على الباب وجدت قصاصة ورق ألصقتْها نونا بدبوس صغير. أخبرتني بأنها، برغم تأخّرها عليه كثيراً على غير العادة في أيام الجمعة، لم تستطع أن تمتنع في اللحظة الأخيرة عن الذهاب إلى أبيها دينيس بتروفيتش في المركز الثقافي الروسي. لكنّها لن تتأخر عليّ حتماً.

فتحت البراد. أحضرت لنفسي صندويشة جبنة ثم كأساً سريعة من الشاي وخرجتُ بهما إلى السطح. لم أشعل النور. كان البدر في السماء، والمدافع الثقيلة القريبة تقصف كالعادة غوطة دمشق من بساتين الحي الروسي، والزرافة تشاهد التلفزيون- لا بد أن نونا قد شغّلته لها قبل أن تذهب. جلستُ على الديوانة وأكلتُ صندويشتي دون أن أفكر في شيء. لم تلتفتْ إليّ الزرافة، تماماً كما فعلت نونا. كانت تتابع مشاهدها، بجدّيتها المعتادة، كما لو أن شيئاً استثنائياً لم يحدث عندنا اليوم. ثم انتبهتُ إلى أنها كانت تشاهد نشرة أخبار. لا بد أن أخبار الحيّ الروسي تنتشر منذ الصباح الباكر على شاشات القنوات الفضائية في كل نشرات الأخبار في العالم. فكّرتُ. ثم رأيتُ أنني لستُ مهيئاً بعدُ لأن أرى الحي الروسي مدمّراً لأول مرة على

شاشة تلفزيوننا الصغير. كأنني ما أردت أن أنظر إليه بوصفه مكاناً جديداً من جملة الأمكنة المعهودة التي تحدث فيها الكوارث يومياً على شاشات التلفزيونات. تخيّلتُ المشاهدين، في أثناء ذلك، منشغلين، كالعادة في كل مكان، بحاجاتهم المنزلية، التي لا يُلامون عليها، من طعام وشراب ونوم وشرب قهوة وتبصير ونميمة. ثم إن شيئاً كان لا يضمن لي أن لا تربط الزرافة بين أخبار الحي الروسي هذا الصباح وبين فكرتها الأولى التي ظهرت في حياكة نونا بهيئة عصفور وفكرتها الثانية التي تجلّت بمقاييس عصام الجديدة مساء البارحة. أمسكتُ بجهاز التحكّم وانتقلت إلى القناة التالية دون إبطاء. طالعتني على الشاشة فوراً امرأة تدير ظهرها للكاميرا وهي تمشي على رصيف شارع مزدحم في فيلم من الأفلام ربما. كانت ترتدي ثوباً أصفر ذهبيّاً قصيراً يُظهر بياض ساقيها وذراعيها العاريتين من الأكمام، وقد تدلّت من كتفها حقيبة يد حمراء. انبعثتْ أمامي صورة نونا بالثوب نفسه والبياض نفسه والحقيبة نفسها عندما التقيتها لأول مرة قبل سنوات على درج المركز الثقافي الروسي وسط العاصمة. أصبحت نونا منذ ذلك المساء حدثاً مهماً في حديقة الحيوانات وفي حياة الزرافة وحياتي بصورة خاصة. غير أن المرأة ذات الثوب الأصفر الذهبي سرعان ما اختفت من على الشاشة وحلّت محلّها مقتطفات سريعة متلاحقة من لقاءات سابقة كثيرة مع وزراء وإعلاميين ومُحلّلين وقادة جمعيات وأحزاب. خشيتُ أن تُفضي هذه الوجوه، المشحوذة دائماً والمستنسخة كأنما بعضها من بعض على كل الشاشات وفي كلّ نشرات الأخبار، إلى برنامج حواريّ خاص بتفسير أبعاد وخلفيات توقيت أول سيارة مفخخة في الحي الروسي

مع أول خطأ ترتكبه الطائرات في بساتينه المحاذية للغوطة. كان جهاز التحكّم ما يزال في يدي، فجعلتُ أقلّب عشرات القنوات على الشاشة حتى عثرت على مباراة من الأرشيف كانت قد جرت في مدريد قبل خمسين عاماً بالأسود والأبيض بين إسبانيا والأورغواي. سوف أشاهدها، قلتُ، ما دامت نتيجتها لم تعد تعني شيئاً لأحد. ثم تذكّرتُ أني، قبل خمسة عشر عاماً من هذه الليلة، قد شاهدتُ مع أمي مباراة أخرى بكرة القدم بين إسبانيا والأورغواي، إنما حية وبالألوان وعلى شاشة أكبر بعدّة بوصات. لم تكن أمي من مشجّعي كرة القدم، ولا كانت تعرف ولا تودّ أن تعرف على الأغلب ماذا يعني المونديال حين تخرج منه اسبانيا في تلك الليلة. لقد كانت سعيدة فقط بأنها صارت تهتم بكرة القدم من أجلي، مع أنها في الواقع لم تكن ترى تلك المباراة بسبب استفحال مرضها بالسكّري.

- هدف!

قالت أمي فجأةً، وهي تلتفت نحوي، قبل خمسة عشر عاماً، حين أدخلتْ إسبانيا هدفاً على الأورغواي في مباراة الأرشيف التي كنت الآن أشاهدها مع الزرافة.

- هدف!

أكّدتْ أمي رؤيتها، ثم أغمضت عينيها ونامت أمام التلفزيون قبل خمسة عشر عاماً.

كانت الزرافة قد التفتت نحوي برأسها، هي الأخرى، حين دخل الهدف في تلفزيوننا الصغير على سطح الحديقة. وخيّل إلي أنها كانت تنظر إليّ بعيني أمي قبل أن تنام، وأنها سعيدة، مثلها قبل خمسة عشر عاماً، بأنها صارت تهتم بكرة القدم من أجلي. خامرتني رغبة

قوية بأن أضمّها بين ذراعيّ، وقد خطر بـــي أنني في حياتي احتجتُ كثيراً وانتظرتُ كثيراً أن أضمّ أمّي بين ذراعـــيّ، و لم أفعـــل، كمـــا احتجتُ كثيراً وانتظرتُ كثيراً أن تضمني هي بـــين ذراعيهـــا، و لم تفعل. لكنني الآن، بعد كل هذه السنين التي تفصلني عنـــها، كنـــت مستعداً بكل قواي لأن أبادر إلى احتضانها بين ذراعيّ على ســـطح حديقة الحيوانات، فنهضتُ من على الديوانة التي أســـتلقي عليهـــا، متخفّفاً أخيراً من أثقال غامضة قديمة كانت تمنعني في الماضـــي مـــن احتضان أمي. غير أنّ خطوات نونا بدأت، في تلك اللحظة، تتـــدفّق سريعةً على الدرج، فلبثتُ في مكاني حتى ظهرتْ علـــى الســـطح. كانت تحمل لي فطائر التفاح التي يخبزها دينيس بتروفيتش من أجلنـــا كل يوم جمعة. وفي يدها الأخرى كانت تمسك بجرزة البصل الأخضر التي تنتظرها الزرافة.

- عادت قطّة عصام إلى الحيّ الروسي..

قالت بصوت مضطرب خفيض كما تنبئني بكارثة، وقد نظرت إليّ، بخوفٍ وحيرة بالغين، متسائلةً، كأنما، عمّا يمكن أن يجلب هـــذا اليوم المشؤوم أيضاً من المصائب التي لا تُصدّق للحي الروسي.

- عادت وحدها..

أردفتْ بصوتٍ أخفض.

وكانت راجمات الصواريخ، في هذه الأثناء، قد بدأت تشـــارك المدافع الثقيلة في دكّ جيراننا في غوطة دمشق مـــن بســـاتين الحـــي الروسي

الحي الروسي

مرسال صالح

I

ما كان ليخطر ببال أحدٍ في الحي الروسي أن يترك عصام قطته الغالية غزال تعود إلينا وحدها بأيّ حال من الأحوال- لقد خَبِر بعينيه ليلة البارحة، في الطريق التي قطعاها معاً، ماذا تعني الفظاعة في البساتين المهجورة الموحشة التي تفصل بيننا وبين الغوطة. هناك حيث الجثث التي لا تُسحب عادةً بعد كل هجوم فاشل من أحد الطرفين المتحاربين، فتُتْرك، في كلّ مرةٍ، للكلاب الضالّة والجرذان والغربان والذباب الأخضر والديدان والتفسّخ. وما كانت غزال نفسها لتترك عصام على الأغلب مهما استبدّ بها الشوق إلى حضن رشيدة المغربية في الحي الروسي. وإذا كانت، ككلّ القطط المنزلية المدلّلة، تحبّ الأمانَ والخمول وراحة البال والطعام الجيد، فإن الفترة التي قضتها بعيداً عن حياتها الرغيدة عندنا كانت أقصر بكثير من أن تُشعرها بأيّ حنين جدّي، خاصة أنها لم تكن وحدها هناك، بل بين يدَيْ صديقها المجرَّب القديم عصام.

ظلّت نونا صامتة بعد أن أخبرتني بعودة غزال.

أشعلتْ النور على السطح. أطعمتْ الزرافة جرزة بصلها الأخضر، ثم أخرجت صوفها من الغرفة، كوّمته إلى جانبي على الديوانة وجلست على الطرف الآخر منها تتابع حياكتها بهمّتها

السابقة نفسها قبل أن تذهب إلى دينيس بتروفيتش.

كان كل شيء يقودني الآن، ولعلّه يقود نونا في صمتها الملغوم المتواصل إلى جانبي، مثل كثيرين في الحي الروسي حتماً، إلى احتمال مرعب واحد يلمع في الذهن مثل نصلٍ حادّ قبل أيّ احتمال آخر. لكننا نتجاهله بإصرار، كأنما باتفاق غير معلنٍ بيننا جميعاً، ونستبعده بكل قوانا ما دام الخبر اليقين الجلف العاري لم يظهر ساطعاً ومقنعاً للجميع دون أيّ ذرّة شكٍ أو بصّة أمل. ولم يكن لدينا على سطح الحديقة، ولا في الحي الروسي كلّه على الأغلب، ما يمكن أن يُكذّب، أو يؤكّد، لنا هذا الاحتمال الموجع سوى الانتظار.

- سوف أرى غزال.. ورشيدة!

قلت كأنما لنفسي، ونهضت من على الديوانة مباشرةً.

نظرتْ إليّ نونا، وقد جمد سيخا حياكتها بين يديها. خيّل إلي أنها، هي أيضاً، كانت تشعر بالرغبة الغاوية نفسها، فبدت، لِلَحظةٍ، كالمستعدّة لأن تترك كلّ شيء حالاً وتذهب معي لترى غزال ورشيدة. غير أنها ألقت نظرة متفحّصة سريعةً إلى كومة الصوف المشغول إلى جانبها، وخشيتْ كأنما من أن الوقت، إذا ذهبتْ، لن يسعفها في متابعة عملها حتى النهاية، فحسمت أمرها وعادت إلى الحياكة.

في نزولي إلى أرض الحديقة لاقاني أبو علي سليمان وموستاش ورئيسة بتروفنا صاعدين على الدرج، فاستداروا في الحال ونزلنا معاً مسرعين. لم يُفاتحني أبو علي بشيء، إنما واكب خطاي المتسارعة باتجاه البوابة، وكذلك فعل موستاش ورئيسة بتروفنا. كان فيكتور إيفانيتش يقف واجماً متفكّراً عند باب مكتبه حين لمحنا من بعيد،

فأقبل علينا حتى إذا دنا منّا انضمّ إلينا، هو الآخر، دون أن ينبس أحدٌ بكلمة.

كانت غالبية المحال مغلقةً، حين خرجنا من بوابة الحديقة، مع أن الوقت لم يكن متأخراً أبداً بالنسبة إلى الحيّ الروسي، فالساعة لم تكن قد تجاوزت بعدُ العاشرة ليلاً. بدا لي الشارع في البداية شبه مقفر، غير أن ظهورنا سرعان ما بَعَثَ من بين الظلال والزوايا المعتمة أشباحاً عديدة عرفتُ في بعضها أشخاصاً من الجوار.

لم يكن بيت عصام بعيداً عنّا. كان علينا، بعد دقائق قليلة من تقاطع شارع الملاهي، أن ننعطف إلى اليسار في زقاق طويل، ثم نمشي ما يقرب من مئة متر لندخل، إلى اليمين، في باب بناية قديمة مؤلفة من طابقين وملحق على السطح استأجره المعلم أرتين، منذ فترة قصيرة، ليسكن فيه عصام ورشيدة وغزال. كان الزقاق الآن، بالقياس إلى شارع الحديقة، ممتلئاً على غير العادة بمارّةٍ كثيرين متمهّلين ذاهبين آيبين كأنّما دون إرادةٍ أو هدف. وكان آخرون واقفين أو جالسين على كعوب أقدامهم مستندين بظهورهم، هنا وهناك، إلى الجدران على الجانبين- كانت تتناهى منهم أحياناً أنصافُ جُمَلٍ غامضة خافتة أو بقايا كلمات مهموسة تنمّ عن قلق كبير. لم تكن الأضواء الصغيرة، المعلقة على رؤوس أعمدة خشبية قليلة متباعدة، كافيةً لإضاءة الزقاق. لكنّ وجوه الناس، كما بدت لي في النور الكليل، قد فقدتْ الكثير من حدّة الأسئلة الخرساء التي عبّرت عنها وجوههم المصدومة التي صادفتُها في الصباح بعد انتشار خبر عصام وانفجار السيارة المفخّخة. كأن ذهاب عصام إلى الغوطة قد تخلّص لديهم الآن من جانبه الملغز، فوجدوا أنفسهم، بعد عودة غزال وحدها، وجهاً

لوجه أمام الاحتمال الأسوأ الذي يمكن أن ينتزع منـــهم عصـــام إلى الأبد. لم يعد، كأنما، أيّ معنى مفيد في تخمين الدوافع التي أخذته إلى الغوطة ليلة البارحة، فبدوا الآن مستعدّين لنسيان ذهابه إلى هناك، أو تجاهلِهِ، أو حتى تفهّمِهِ بدوافع لا تشوّه صورته في أذهانهم. لقد كان الأهمّ، كأنما لهم جميعاً، أن تنتهي هذه الليلة الطويلة بعودته سالماً، هو أيضاً، إلى الحيّ الروسي.

كان الناس يزدادون كلما اقتربنا من البناية. ومع وصـــولنا إلى الباب أفسحوا لنا الطريق، كما لو كنّا مُوفَدين من قبلهم إلى رشيدة لنعرف ما إذا كانت قد تلقّت شيئاً جديداً مـــن أخبـــار عصـــام، ولنتفحّص غزال، بأعينهم وقلوبهم، لعلنا نعثر في فروهـــا الأبـــيض الطويل، أو في عينيها الرماديتين، أو في طريقتها بالمشـــي والأكـــل والمواء والخرخرة واللعب والنوم، على أثرٍ يشي لنا، ولو من بعيد، بما حدث اليوم في الغوطة عندما تركتْ عصام.

سبقَنا موستاش ورئيسة بتروفنا في الصعود إلى الأعلى.

كان الدرج ضيقاً ومعتماً.

لم يكن في الطابق الأول، ولا في الثاني، ما يدلّ علـــى وجـــود أحد- لا حِسّ ولا وهس ولا نور يرشح من أيّ باب.

وكان موستاش ورئيسة بتروفنا قد بدآ يعلنان من على ســـطح البناية، بنباح ودود متواصل على باب رشيدة، عن وصولنا قبـــل أن نصل. وكان مفهوماً لنا، طوال صعودنا الدرج، أن رشـــيدة تتلكّـــأ باستقبالهما فلم تفتح لهما الباب.

ظهرنا على السطح بعد قليل، أنا وفيكتور إيفانيتش في البداية، ثم تبعنا أبو علي سليمان. تقدمنا باتجاه المُلحق بين أشباح عدة مداخن

وخزانات ماء وصحون لاقطة. وكان على أحدنا، ما دمنا وصلنا، أن يقرع الباب على رشيدة. غير أن إصرارها على أن لا تفتح الباب حتى الآن، برغم النباح الودود الذي يواصله موستاش ورئيسة بتروفنا دون كلل، قد أوقعنا في الإرباك والحرج. لا بد أنها ألقت نظرةً إلى الناس في الزقاق من نافذةٍ في بيتها، وفهمتْ، دون أدنى شك، أن موستاش ورئيسة بتروفنا لا يمكن أن يكونا وحدهما الآن على بابها بعد انتشار عودة غزال وحدها في شوارع وزواريب الحي الروسي كلّه.

دائماً كانت رشيدة تتضايق من اهتمام الحيّ الروسي بعصام. كان ذلك واضحاً للجميع منذ بداية عيشها معه في كباريه المعلم أرتين حيث كانت تعزف على آلة العود. ثم أصبح ضيقها، من تماديهم على نصيبها منه، ملحوظاً جداً بعد تواصل الفظاعات التي لا تصدّق على شاشات التلفزيونات- صار كثير من الناس يخترعون أوهى الأسباب للقاء عصام واستبقائه بينهم أطول مدّة ممكنة. ومع ندرة خروجه إلى الشارع أصبحوا يستقبلونه في أحلامهم في زيارات طويلة مُشبِعة. وكانوا، كعادتهم في اليقظة، لا يخفون سعادتهم به واحتفاءهم بوجوده المُطَمْئِن، بين فرشهم ولحفهم ووسائدهم وشراشفهم العائلية، في ساعات راحتهم القلقة طوال الليل. وفي الأصباح التالية كانت أخبار هذه الأحلام، التي يتداولونها عادةً فيما بينهم، تطير على الألسنة حتى تصل إلى أسماع رشيدة. وغالباً ما كان رواتها، المتعاقبون لساناً عن لسان، يضيفون إليها أقوالاً لعصام لم يقلها وأفعالاً لم يقم بها ووعوداً لم يعد بها. وكانت رشيدة تتجهّم وتخلد إلى الصمت طوال الوقت، ولا تستجيب بابتسامة، أو بكلمة

طيبة، حتى للإطراءات التي كان الناس يخصّهونها بها كرمى لعصام حين يصادفونها معه في مناماتهم أو في يقظتهم أو في تهيؤاتهم. كانت تخاف عليه من صورته في عيونهم، ومن وجوده المستمرّ في أذهانهم خاصة في الفترة الأخيرة، إلى درجة أنها أصبحت تقلّل من شأنه أمامهم كلما سنحت لها الفرصة. حتى تحدّيه المشهود لبوريا، اعتبرته ذات يوم، أمام خادمة الكباريه الثرثارة العجوز إيفانوفا، الوسيلةَ الوحيدة التي أمّن بها سقفاً يؤويه ولقمةً يأكلها لا أكثر من ذلك ولا أقل. ولا بد أن هواجسها المريرة حول تعلّق الحي الروسي بعصام قد تفاقمت بعد أن سمعت، أول أمس، بعصفور نونا ثم بالأحداث الواعدة التي انتظرناها ليلة البارحة على سطح حديقة الحيوانات. وليس من المستبعد أن تكون قد ربطت تلقائياً بين غياب عصام وبين هذه الأحداث، مع أنني شخصياً لا أظنّ أن أحداثنا الواعدة التي انتظرناها يمكن أن تدفع بعصام إلى الغوطة في أيّ حال من الأحوال. ولكنك لن تقنع رشيدة بغير ما تذهب إليه، إذ لم تعد تتفهّم أبداً، منذ مدة طويلة، أن يحشر الناس أنفسهم بينها وبين عصام في الليل والنهار بمناسبة أو دون مناسبة.

- لن تفتح!

قال أبو علي سليمان من ورائي.

ثم سمعتُ لغطاً خفيضاً لشخصين أو أكثر من ناحية الدرج. التفتّ، ولم أتمكّن، بسبب الظلام، من تمييز أحدٍ هناك. وهنا بدأ فيكتور إيفانيتش يسعل سعالاً مفتعلاً عالياً طغى على نباح موستاش ورئيسة بتروفنا. وإذ لم تستجب رشيدة لسعال فيكتور إيفانيتش أيضاً وجدتُني أقترب من الباب بحزم وأقرعه بظاهر كفّي قرعتين متتاليتين قويّتين.

اشتعلتْ، فجأةً، لمبة فوق الباب، فتوقف موستاش ورئيسة بتروفنا عن النباح. ثم سمعنا، بعد قليل، كيف دار المفتاح في القفل وطقّ طقّتين عصبيّتين سريعتين قبل أن ينفتح الباب على رشيدة.

بدت لي رشيدة أصغر حجماً وأكبر سنّاً منها عندما جاءت إلينا في الصباح الباكر تسأل عن عصام. كان واضحاً أنّ نوبةً من بكاءٍ، طويلٍ ربما، قد حمّر أنفها ونفّخ جفونها وشفتيها. غير أن ملامحها، رغم ذلك، لم تكن ملامح امرأة ضعيفة كسيرة الخاطر، ولا كانت تبدو يائسةً كما كان يمكن أن يتوقّع كثيرون. لقد كان في مقلتيها الصغيرتين الحيويّتين بريق أملٍ ظاهر، وإن كان خافتاً أو مموّهاً ربما عن قصد. إلاّ أنها كانت تنظر إلينا بنقمةٍ أكيدة سافرة، كما لو أن كلّ هواجسها القديمة حول تنغيصنا سعادتها الخاصة قد تحققت، وأنها تتهمنا الآن بكل ما حصل وما يمكن أن يحصل مع رجُلها عصام في الغوطة. وكان مفهوماً من وقوفها في منتصف فرجة الباب، الذي تمسكه بيدها، أنها لا ترغب بأن تُدخل أحداً منّا إلى بيتها. وكان من غير المعقول طبعاً أن ندخل دون إذنها، كما لم نكن، في الوقت نفسه، مستعدّين لأن نعود أدراجنا قبل أن نرى غزال ونعرف ما إذا كان شيءٌ جديد قد وصلها عن عصام. لبثنا جميعاً جامدين في مكاننا ننتظر. ولعلّنا كنا سننتظر طويلاً لولا أن غزال نفسها ظهرت فجأةً من فرجة الباب ووقفت إلى جانب قدم رشيدة. وإذ وجدتْ أمامها صديقيها موستاش ورئيسة بتروفنا، جعلت غزال تموء لهما مواء خفيضاً ينمّ عن نعاس أو تعب وربما عن شكوى. لم يُفوّتْ موستاش، لحسن الحظ، الفرصةَ السانحة لأن يتقدّم إلى الأمام، فبادر غزال فوراً بنبحةٍ مجاملةٍ رقيقة، وهو يتجاوز نحوها صفّة الباب بخفّةٍ وتلقائيةٍ صديق قديم موّان. استجابت غزال

لمبادرته المهذّبة دون تردّد، إذ قرّبت رأسها من عنقه، بخمول ومودّة، وتمسّحت بها. ثم ما لبثا أن تسلّلا معاً إلى الداخل، كأنما باقتراحٍ فاتر من غزال. وكانت رئيسة بتروفنا، في هذه الأثناء، قد تشجّعت هي الأخرى وتقدمت في أثرهما بثقة كبيرة، غير أن ضخامة حجمها أخرّها قليلاً عن اللحاق بهما، فقد كان عليها أن تحشر نفسها، بصعوبة وإصرار، في ما تُتيحه رشيدة من فرجة الباب.

انفجرتْ رشيدة فجأةً تبربر أمامنا بكلمات سريعة غاضبة باللغة الفرنسية- كأن غزال قد أفشلت، بظهورها المفاجئ، نواياها المُبيّتة الصارمة نحونا. ثم ما لبثت أن انسحبت إلى الداخل تاركة وراءها الباب مفتوحاً. وقد عنى لنا ذلك إذناً ما بالدخول، فنحن في نهاية الأمر لن نغادر المكان دون كلابنا على الأقل. ثم إن رشيدة لا يمكنها في كل الأحوال أن تعتبرنا أعداءً لها، مهما بلغتْ درجةُ سوئنا في عينيْها الآن، وهي نفسها تدرك ذلك جيداً على الأغلب.

دخلنا، أنا وفيكتور إيفانيتش بخطوات بطيئة وحذرة، تحسّباً كأنما من الوقوع في أيّ خطأ من أخطائنا الكثيرة المحتملة جداً في عينيّ رشيدة الغاضبة منّا في هذه اللحظات.

ديوانة قديمة في صدر غرفة صغيرة. هيكل حديدي لخزانة ألبسة مُلبّس بقماش داكن كالح. قاعدة سرير ضخمة، دون قوائم، تشغل مساحة كبيرة من الغرفة. كرسي خيزران. حصيرة نايلون ضيقة تفصل بين السرير والديوانة. وآلة عود معلّقة إلى جانب صورة مُبَرْوَزة لعصام على الجدار المقابل للباب.

كانت رشيدة قد جلست قبلنا على كرسي الخيزران إلى جانب باب مغلق إلى يسارها، وهي ما تزال ترغي وتزبد باللغة الفرنسية.

لم يكن هنالك مكان آخر صالح للجلوس سوى الديوانة المحشورة بين أول الحائط المقابل للباب وخزانة الألبسة. وكان طرفها الأيسر، الذي يشغل الزاوية بين الحائطين، قريباً جداً من كرسي رشيدة، فاتجهنا، أنا وفيكتور إيفانيتش، تلقائياً إلى طرفها الأبعد عنها وجلسنا متلاصقين.

تلكّأ أبو علي سليمان قليلاً في الخارج قبل أن يدخل بوجه محمرّ من الخجل، ربما بسبب بربرة رشيدة الغاضبة المتواصلة، فقد كان الشخص الوحيد الذي يعرف اللغة الفرنسية بيننا. ومع ظهوره بدت رشيدة مثل متفاجئةٍ به، فكفّتْ عن بربرتها على الفور- علّقت نظرها وراءه على عدّاد الكهرباء في الحائط المجاور للباب، وقد بقيت عيناها الصغيرتان الحمراوان تقدحان بالغضب.

لاحظ أبو علي حتماً طرف الديوانة الشاغر القريب من كرسي رشيدة، لكنه، مع ذلك، تلفّت من حوله يبحث بعينيه الكبيرتين عن مكان آخر لجلوسه، و لم يجد طبعاً، فاضطر إلى أن يجلس بالقرب منها، ساحباً ركبته اليسرى إلى الوراء قدر الإمكان لكي لا تصطدم بركبتها اليمنى، وقد ازداد اختناق وجهه بالدم والتجاعيد.

وكانت نقمة رشيدة علينا قد أفقدتنا حتى الآن الكثير من أريحيّتنا، فبدونا أمامها مثل مجموعة مذنبين يجلسون على الديوانة في انتظار إنزال العقوبة بهم بين لحظة وأخرى. ثم زاد من إحساسنا بالاختناق، في ليلة صيفٍ حارّة، ضيقُ الغرفة وانعدام أيّ منفذٍ للهواء فيها باستثناء الباب الخارجيّ الذي أغلقه أبو علي بعد دخوله، بالإضافة إلى الباب، المغلق هو الآخر، إلى يسار رشيدة.

لم تكن غزال الآن بعيدةً عني. كان كلّ ما يفصلها عن قدميّ على الحصيرة أقلّ من ذراع. وكانت، في هذه الأثناء، تلاحق ذيل

موستاش الذي يتحامل على شيخوخته ويبرم حول نفسه من أجل تسليتها. ولعله كان يفعل ذلك من أجل أن يُمكّننا من تفحّصها من كل جانب. أما رئيسة بتروفنا فكانت جالسة عند قدمي فيكتور إيفانيتش تراقب موستاش وغزال بفضولٍ واضح وبشيءٍ من التأنيب الشكلي مراعاةً، ربما، لمزاج رشيدة الناري في هذه اللحظات.

بدت لي غزال الآن تماماً كما كانت تبدو لي في الماضي، كأنها لم تذهب البارحة إلى الغوطة مع عصام، ولا قطعت، مساء هذا اليوم، البساتين الموحشة وحدها في طريق عودتها إلينا من هناك. لقد كانت غزال لا أكثر. غزال في صورتها التي يعرفها الجميع في الحي الروسي دون أيّ إضافة أو أثرٍ محدّد جديد. ثم ظننتُ أنني لم أتمكّن من ملاحظة شيءٍ لافتٍ عليها لأن إحساسي القويّ بسلطة رشيدة عليّ قد ثبّط حواسّي. فكّرتُ أن أستدرجها إلى حضني، لعلّي، إذا أحسستُ بها بين يديّ، أتحرّر من إحساسي القويّ المُحبط برشيدة. لكنني لم أجرؤ على ذلك- خشيتُ، إن فعلتُ، من أن أزيد من حنق رشيدة علينا، خاصة أن أحداً منّا لم يبادرها حتى الآن بأيّ كلمة.

الكائن الوحيد من بيننا الذي ظلّ يتجاهل رشيدة تجاهلاً تامّاً، فلم يكترث بغضبها أبداً، كان موستاش. كأنه كان يدرك ضرورة أن نحافظ على وضوح الرؤية وهدوء الأعصاب في هذا الظرف الدقيق، فنحن لم نأت إلى هنا لكي نهدر الوقت بمسايرة رشيدة أياً كان حجم خوفها على عصام ومهما بلغت درجة نقمتها علينا بسببه. وكان موستاش يعبّر عن موقفه الشجاع هذا دون لبس ولا حياء، فلم يكفّ لحظةً واحدةً عن اختراع المزيد والمزيد من الحركات الخرقاء المضحكة من أجل تسلية غزال، كما لو أنّ غضب رشيدة لا يعني له شيئاً على

الإطلاق. ولعلّ أبو علي سليمان قد استمدّ من كلبه موستاش بالذات الجرأة وروح المبادرة إلى ما هدف إليه من أقصر الطرق، فالتفت فجأةً نحو رشيدة وجرشَ لها، بصوته العريض، مجموعة كلمات باللغة الفرنسية على شكل سؤال ربما، ثم سكتَ، منتظراً جوابها عن سؤاله.

وهنا توقّف موستاش فوراً عن كل ألعابه مع غزال، وجعل ينظر إلى رشيدة بانتباهٍ شديد مُتوقعاً، مثلنا تماماً، جوابها الوشيك عن كلمات أبو علي.

أمسكت رشيدة عن الإجابة مدّةً بدت لنا طويلةً بعض الشيء، غير أنها لم تخيّبنا في النهاية، فقد أجابت بكلمتين، وربما ثلاثة، دون أن تلتفت إلى أبو علي- ظلّ نظرها، في غضون ذلك، معلّقاً إلى جانب الباب فوق عدّاد الكهرباء. لكنّ كلماتها القليلة جعلتنا، برغم كل شيء، نشعر بأهمّيتنا فجأةً، فصرنا نتنفّس بصورة أفضل في جوّ الغرفة الخانق. وكان على أبو علي أن يستغلّ استجابة رشيدة فوراً، فلا ينقطع الخيط الرفيع الذي اتّصل الآن بينهما بصعوبة، وهذا ما فعله الرجل بالضبط. وكان كلامه هذه المرّة أطول من كلماته الأولى، وأكثر سلاسة في تدفّقه كلمة بعد كلمة. وكنّا، أنا وفيكتور إيفانيتش ورئيسة بتروفنا وموستاش نصغي إليه بكلّ قوانا، ونؤيّد كلامه بملامحنا، ونراقب، في الوقت نفسه، أثر ما يقوله في وجه رشيدة، مع أننا جميعاً لا نفقه شيئاً باللغة الفرنسية- قدّرتُ أن أبو علي قد انتبه معي، عندما فتحت رشيدة لنا الباب، إلى بريق الأمل الخافت المموّه البعيد في عينيها الغاضبتين، ثم لقف، ربما، شيئاً مُستتراً في كلماتها المعدودة قبل قليل أو في سلوكها معنا عموماً منذ دخولنا بيتها- شيئاً من قبيل خبرٍ مُؤكّد عن عصام وصلَها عبر اتصال هاتفيّ

من الغوطة مثلاً، أو عبر قصاصة ورق صغيرة كتبها عصام نفسه ربما وأرسلها إليها بعد حلول الظلام؛ الأمر الذي جعل أبو علي يُسايسها الآن لتفصح عمّا تتستّر عليه بزلّة لسان على أقل تقدير.

كان وجه رشيدة في هذه الأثناء قد بدأ ينمّ عن شكوك واضحة بنوايا أبو علي- لا يمكن أن يتفانى شخص مثله بانتقاء الكلمات وصفّها أمامها، بمثل هذا الحذر والدقّة والحذاقة والرنين، هكذا لوجه الله. ولربما كانت رشيدة قد شعرت بغايته، التي يستدرجها إليها الآن، منذ أول النباح الودود الذي تطوّع بالقيام به بكفاءة عالية وعلى أكمل وجه موستاش ورئيسة بتروفنا على بابها. إلا أنّ أبو علي، الرجل الذي حنّكته الحياة بالتعليم وتجارة الألبسة وتعدّد الزوجات، لم يفوّت، كما بدا لي، الشكوك الظاهرة على وجه رشيدة، فوجد أن يزيلها قبل أن تتفاقم- قطع كلامه فجأةً، كما لو أنه آثر الآن تسليمها طرف الحديث، من باب حسن النية على الأقل، لتعبّر مباشرةً عمّا أُثير في نفسها من الهواجس والشكوك.

لكن رشيدة، كما لم يتوقع أبو علي، أظهرت فوراً أنها ليست حريصة أبداً على استلام أيّ طرفٍ لأيّ حديث- ظلّت صامتة جامدة مثل تمثال جالس مرتاب. ثم دام صمتها فترةً مرهِقةً جعلتني أظنّ أنها لن تعاود الكلام إلا لتطلب منّا مغادرة بيتها. وكان كلّ منّا لا يرغب طبعاً لا بأن تضع رشيدة نفسها في هذا الموقع المُشين، ولا أن يبادر، من ناحيته، إلى تفجير الموقف الشائك القائم بيننا وبينها في هذه اللحظات. غير أن استمرار الصمت الراهن المكهرب ما كان ليفضي، هو الآخر، إلى نتيجة أفضل في غالب الظن، فكان لا بدّ من كسره دون تردّد ولا وَجل؛ الأمر الذي تكفّل به موستاش- خرج

عن طوره فجأةً، ووبّخ رشيدة بنبحةٍ قويّةٍ صارمةٍ خرجتْ كأنما من أعماقنا جميعاً.

فهمتْ رشيدة من نبرة موستاش فوراً، تماماً كما فهمنا نحن أيضاً، أنه مستعدٌ، إذا دعت الضرورة، لمتابعة توبيخه القاسي لها، أو لأيّ شخصٍ آخر ولو كان صاحبه أبو علي، فألفتْ نفسها مضطرةً إلى أن تتلفّظَ أخيراً ببضع كلمات فاترة ومتباعدة. وقد كان لافتاً هنا، وهذا ما يحسب لموستاش أيضاً، أنها قد تحوّلت بعينيها، لأول مرّة، من عدّاد الكهرباء المجاور للباب إلى وجه أبو علي مباشرةً. ثم ظلّت تنظر إليه حتى إذا انتهت من جوابها القصير أشاحت بوجهها عنه إلى حصيرة النايلون. بعد ذلك أشارت إلى غزال إشارةً مختزلة بأصابع يدها، فقفزت تلك إلى حضنها واستلقت بين راحتيها دون تأخير.

بدا أبو علي الآن مطمئناً إلى أن الحديث، ما دام سيجري بضمانة مباشرة من موستاش، لن ينقطع حتى ينتهي برضا الطرفين. عرك عينيه بقبضتي يديه في البداية، كما يفعل حين يُقبل على شرح فكرةٍ مهمّة من جوانبها المختلفة بشيء من التفصيل. ثم صفن في نقطة قريبة من قدميه على الحصيرة ليختار كأنما جملة مؤثّرة يستأنف بها الحديث المعلّق.

كانت رشيدة الآن تمسّد غزال شبه النائمة في حضنها، وتبدو كما لو أنها ليست في وارد الانشغال بغيرها في هذه اللحظات، فلم تنتبه، كأنما، إلى تريّث أبو علي باستلام الكلام. إلاّ أن النبرة الخافتة، المشحونة بالمشاعر العميقة، التي بدأ بها أبو علي كلامه أخيراً، جعلتها تبطّئ من مرور راحة يدها الروتينيّ على فرو غزال. ثم ما لبثت أن

التفتت ناحيته التفاتةً ممسوكةً بإحكام حتى كادت عيناهـــا تقـــع في عينيه من جديد. وكان أبو علي، في هذه الأثناء، قد اندمج بكلامـــه الفرنسيّ إلى درجة أنه لم يعد ينظر حتى إليها- كأنه صـــار يراقـــب الدقّة التي تتسلسل فيها أفكاره ومشاعره على الحائط المقابل وبـــين خطوط البطانية المدودة على السرير وفي عيني موستاش المنتصب أمامه وبين ألوان الحصيرة تحت أقدامنا وعلى فرو غزال المتناومة في حضـــن رشيدة. وكانت أصابع كفيه لا تتوقف عن تأويل معانيـــه ووضـــع اللمسات الأخيرة عليها هنا وهناك، فيما كانت عيناه تجحظان مـــن وقت إلى آخر، كأنما من شدة التأثر بأشياء غريبة تحـــدث فجـــأةً في كلامه، فيتهدّج صوته وتشعر كما لو أنه صار يجـــرش حجـــراً في حنجرته.

لم تقع رشيدة مع ذلك، إلاّ بصعوبة شديدة، في فخاخ كلمات أبو علي التي كان ينصبها في طريقها ببراعة أخّاذة لا تُقـــاوم. لقـــد استبسلت فعلاً في الصمود أمام مهاراته الفرنسية إلى أن بدأ، على نحوٍ مباغت، يسرّع من وتيرة وقوة صوته ويؤجّج مشاعره العاصـــفة، في منعطف حاسم غير متوقّع كأنما في سير حديثه، حتى إذا أوشك على الصراخ فَقَدَ القدرةَ على الكلام فجأةً وسقطتْ كفاه ترتعشان فوق ركبتيه من شدّة الانفعال. عندئذٍ فقط استسلمت رشيدة - نظـــرت إلى عينيه مباشرةً بكلّ إرادها، وهي تصغي إليه بوجهٍ لم نره حتى تلك اللحظة- وجهٍ متعاطفٍ خائفٍ، كأنما عليه، ومتلهّفٍ ضارعٍ إليه، في آن، لكي لا يتوقف عن الكلام.

لم أكن طبعاً بأقل لهفةً من رشيدة إلى متابعة كلام أبـــو علـــي، وإن كنت لا أفهم بالضبط ماذا يقول، غير أن ملامح وجهها الجديد

الضارع الحنون قد بعثت في نفسي أملاً حقيقياً بأننا سوف نخرج، لا بدّ، من عندها بكلّ ما أرادت إخفاءه عنا في البداية- كان واضحاً أن أبو علي قد قال كلاماً كان له من السحر ما جعلها تبدو أمام أعيننا مقتنعةً، تماماً ربما، بأن عصام جزء من الحي الروسي ولا يمكن فكّه بسهولة من قلوب الناس مهما أحبّته وأحبها. وقد عبّرتْ رئيسة بتروفنا فوراً عن سعادتها الكبيرة بتفاعل رشيدة مع كلام أبو علي، فنهضت من مكانها قرب قدمي فيكتور إيفانيتش وكافأتها باستلقائها قرب قدميها واضعةً خطمها برفق شديد فوق بوز شحّاطتها برغم ضيق المكان. أما فيكتور إيفانيتش فقد تبرّع بمجموعةٍ من السعلات القصيرة الرشيقة المتتالية تعبيراً عن ارتياحه وامتنانه الشديد لرشيدة على تفهّمها أخيراً لمقاصدنا النبيلة.

تابع أبو علي كلامه، بعدئذٍ، من قرار خفيض مفعمٍ، كأنما، بخلاصاتٍ أخيرةٍ تدعو إلى التأمّل والنزاهة والاعتراف بالحقائق كما هي والإحساس بآلام الآخرين والترفّع عن الصغائر، خاصة في الأوقات الحرجة التي سوف تُظهر، في كل الأحوال، معادن الناس على حقيقتها مهما كانوا حاذقين في تمويهها. وكانت رشيدة تتلقّف كلماته بكل جوارحها، حتى خيّل إلي أن غشاوة دمع رقيقة قد غطّت مقلتيها من شدة التأثّر. وقد زادت، بانفعالها الصادق هذا، من توقي إلى سماع ما يمكن أن تقوله، هي، بعد استسلامها السافر الآن لمداخلة أبو علي- صرتُ أنتظر بصبرٍ نافذٍ أن ينهي بربرته الفرنسية لكي نصغي إليها. إلا أنه، كما ثبتَ لي بعد قليل، كان أكثر درايةً مني باللحظة المثالية لتسليمها طرف الحديث، فلم يكفّ عن رنينه بالكلام حتى تأكّد من سقوط دمعة صغيرة على خدّها.

أخرجت رشيدة منديلاً قطنياً أبيض من جيب ثوبها. مسحت عينيها الدامعتين، ثم تمخّطت بكل عافيتها وأعادت المنديل إلى مكانه. وإذ جعلتْ تنظر، بعينين ذابلتين نصف مغلقتين، إلى أبو علي ظهر على شفتيها المُنَمْنَمتين أثرُ ابتسامة مُسالِمة خفيفة، فبدتْ كملاكٍ يوشك أن يغفو على كرسيّه الخيزران من شدة التعب. وقد خشيتُ فعلاً أن تنام، وهي جالسة، فتذهب عبثاً مداخلة أبو علي ونباح موستاش ورئيسة بتروفنا وكل ما عانيناه في صمتنا الطويل أنا وفيكتور إيفانيتش. لكنْ سرعان ما تبيّن لي أن رشيدة كانت، لحسن الحظ، ما تزال مأخوذة بأصداء كلام أبو علي لا أكثر، فقد شرعت بالحديث، بعد استغراق قصير بالتفكير، محتفظةً بأثر ابتسامتها المسالمة، وبنبرةٍ مختلفةٍ تماماً عن نبرة بربرتها الغاضبة التي استقبلتنا بها في بداية الزيارة. ومع كلماتها الأولى بدأ أبو علي يهزّ لها رأسه، ويُطيّب لها كلامها بهمهماتِ استحسانٍ متقطّعة. وكانت رشيدة تتلقّى، من ناحيتها، إشارات استحسانه السخيّة الأولى بتقدير ظاهر، ما عنى لي مباشرةً أنها تجود عليه الآن بكلّ ما ننتظره منها.

غير أنّ أبو علي، كما لا يمكن أن يتوقّع أحدٌ منّا بأيّ حال، سرعان ما قاطع رشيدة بنهوضه المفاجئ من على الديوانة، فوجدت المسكينة نفسها مضطرةً إلى أن تسكت فوراً، ثم تنهض من على كرسيّها مباشرةً بعد نهوضه. وما حيّرني، آنئذٍ، أنها لم تكن مستاءةً أبداً من مقاطعته، كما لو أنه قد فعل ذلك في الوقت المناسب لها أيضاً. وكان من المستحيل طبعاً أن نبقى، بعد ذلك، جالسين أنا وفيكتور إيفانيتش على الديوانة فنهضنا بدورنا بشكلٍ آليّ. وكان واضحاً لنا أن أبو علي قد نهض لأن الزيارة قد انتهتْ برأيه ما دامت

حقّقت أهدافها، وأن علينا أن نخرج من هنا دون إبطاء. ثم سرعان ما طمأنني في هيئته المستعجلة أنه كان راضياً جداً عن نفسه. وبناءً على رضاه بَدَوْنَا تلقائياً، أنا وفيكتور إيفانيتش وموستاش ورئيسة بتروفنا، راضين عن أنفسنا أيضاً بالدرجة نفسها.

انتبهتُ في اللحظة الأخيرة إلى غزال التي اضطرّت قبل قليل إلى مغادرة حضن رشيدة بعد نهوضها- كانت، في تلك اللحظة أيضاً، ما تزال غزال التي يعرفها الجميع في الحي الروسي. لكنني، مع رضا أبـــو علي المستمرّ إلى جانبـــي، والذي كان يعني لي غـــير القليـــل مـــن المعلومات المفيدة التي سأتعرف عليها بعد قليل، ما عـــدت، كأنمـــا، مهتماً جداً بأن أعثر على أيّ أثرٍ جديد على غزال.

سبقتنا رشيدة إلى الباب، فتحتْه، فتقدم أبـــو علـــي وخـــرج، فخرجنا وراءه مثل أتباع. طبقت رشيدة الباب وراءنا بهدوء، بينمـــا غاب أبو علي أمامنا في ظلام الدرج.

سمعتُ، وأنا على قرص الدرج، همهمةً جماعيّة ودبدبةَ أرجـــل كثيرة مسرعة تسبقنا بالنزول في الظلام الدامس. وإذ لحقتُ بأبو علي توقّعتُ، وأنا أنزل وراءه مباشرة، أن يبادرني بترجمة أولى المعلومـــات المهمة التي حصّلها من رشيدة عن عصام، لكنه ظلّ صامتاً- قـــدّرتُ أنه، في نزولنا الحذر على الدرج، لا يريد أن يتشتّت بشيء آخر لكي لا ينكبّ على وجهه في الظلام.

عند وصولنا إلى باب البناية كان ضوء لمبة، صغيرة معلقة علـــى رأس عمود في الزقاق، كافياً لي لأن ألاحظ فوراً زوال رضا أبو علي زوالاً تاماً. كان الآن متجهّم الملامح كما لو أنه يتحفّظ على شـــيء مزعج لا يريد، في هذا الوقت على الأقل، البوح به لأحـــد. أفســـح

الناس المتجمّعون طريقاً لخروجنا من بينهم بصعوبة، وهم ينظـــرون إلينا بلهفة وترقّب واضحين. لا بدّ أنهم قد انتظروا، من قبيل طمأنتهم هم أيضاً، أن يخبرهم أحدنا، ولو ببضع كلمات سريعة، بما توصّـــلنا إليه عند رشيدة. وكان على أبو علي طبعاً أن يفعل ذلك، غير أنـــه تابع طريقه دون أن ينبس بكلمة. ولم يكن لـــدينا، أنـــا وفيكتـــور إيفانيتش، ما نقوله لهم، بطبيعة الحال، فتابعنا طريقنا نحن أيضـــاً دون أن نفيدهم بشيء. بيد أنني تفهّمتُ جداً أن قسماً كبيراً من النـــاس المتجمّعين هناك لم يقبلوا تجاهلهم بهذه البساطة، فتبعونـــا صـــامتين مستائين. وما كنت، طبعاً، لأقبل، مثلهم تماماً، بأيّ تحفّظ علـــى أيّ معلومة ما دام الحديث، في نهاية الأمر، لا يمكن أن يجري الآن عـــن خصوصيّات أيٍّ منّا، فوجدتني أطالب أبو علي، بشيء من العصـــبيّة ربما، أن ينقل لنا حرفياً كلّ ما قالته له رشيدة.

نظر إليّ أبو علي مستغرباً كأنما من أنني لم أفهم ما دار بينه وبين رشيدة قبل دقائق، غير أنه سرعان ما أدرك السبب فزال اســـتغرابه، وبدا كالمتحامل على نفسه لأن يكرّر كلاماً يعرفه الجميع. ثم ما لبث أن سألني برأس أنفه، الذي أصبح طويلاً جداً، عمّا إذا كنت أنتظـــر فعلاً من رشيدة أن تُخبرنا بشيء لا نعرفه. ثم حـــوّل نظـــره عـــني وأجاب عن سؤاله، مُهرتِماً كأنما لنفسه، بأنها امرأة مسكينة وحيـــدة تركها رجلها في أصعب الظروف، وما كان باســـتطاعتها يومـــاً أن تعرف أكثر مما نعرفه أنا وهو وفيكتور إيفانيتش وكل هؤلاء المتبرّمين الذين يتبعوننا. ثم التفت إليّ من جديد مُلخّصاً، بصوتٍ أعلى هـــذه المرة ليسمعه الجميع، كلَّ ما يمكن أن يقوله حول هذا الموضـــوع: لا داعي أبداً لأن نعرّض امرأة ضعيفة مثـــل رشـــيدة لأيّ مضـــايقة لا

بأسئلتنا النافلة، ولا بسوء نيّتنا إن وجدت، فما يلزمها اليوم، أكثر من أيّ شيء آخر، هو إشعارها بأننا أهلها وسوف نكون إلى جانبها ولن نتركها في كل الأحوال.

لم أستسغ، و لم أفهم طبعاً، تعالي أبو علي على الغاية التي أخذتنا أصلاً إلى بيت عصام. إن كلاً منا يستطيع، إذا دعت الضرورة، أن يشفق على رشيدة ويتعاطف معها ويقف إلى جانبها، تماماً كما كان يفعل أبو علي الآن، ولكن هذا لا يعني أن نختزل ذهاب عصام إلى الغوطة في وقت متأخر من ليلة أمس، ثم انفجار أول سيارة مفخّخة في الحي الروسي في الصباح الباكر من هذا اليوم وارتكاب الطائرات خطأها الأول معنا في التوقيت نفسه، وأخيراً عودة غزال وحدها هذا المساء من الغوطة، لا يمكن، ولا ينبغي لنا، أن نختزل كل تلك المصائب بـ "رشيدة المسكينة الوحيدة التي تركها رجلها في أصعب الظروف". وكان ما يحيّرني فعلاً أن أبو علي، كما عهدته دائماً، كان أذكى من أن لا يدرك ماذا تعني كل تلك التحولات الخطيرة على حياتنا في الحي الروسي حين تحدث كلها على التوالي في غضون ساعات معدودة، ومتى؟ في وقتٍ كنا نستعدّ فيه لأحداث مغايرة تماماً كان من المفروض، كما اعتقدنا وأحببنا وانتظرنا، أن يقودنا إليها عصام بنفسه.

هل قرر أبو علي، إذاً، أن يخبئ شيئاً عنّا بعد خروجنا من عند رشيدة؟

أم إن رشيدة ألزمتْه بأن يتكتّم مبدئياً على ما نقلته إليه، فقطع على نفسه أمامها عهداً بذلك؟

تابعت طريقي إلى جانب أبو علي، وأنا أشعر بضيق شديد. وكان يعرف جيداً أنني، بصمتي الآن، إنما أُداري ما بيننا من مودّةٍ لا

أكثر، فأنا، كما لا بدّ أنه كان مفهوماً له من ملامح وجهي، لم أقبل كلامه الموارب عن رشيدة. ولا بدّ أنه كان يدرك أيضاً أن أحداً منّا، أو من هؤلاء الذين يمشون وراءنا، لن ينام هــذه الليلــة، في كــل الأحوال، قبل أن يعرف ما في جعبة رشيدة، أو غير رشيدة في الحــي الروسي، من أخبار عصام.

- كانت رشيدة متأثّرة جداً بكلامك.

قال فيكتور إيفانيتش ببراءةٍ وحرصِ مَنْ يودّ لفت نظر أبو علي إلى شيءٍ قبل أن ينساه لا أكثر. وكان واضحاً، بالنسبة إليّ، أنــه في واقع الأمر يدعوه، بلباقة وإصرار في آن، إلى التصريح أخيراً بمــا دار بينه وبين رشيدة.

ظلّ أبو علي صامتاً يمشي بيني وبين فيكتور إيفانيتش، حتى إذا وصلنا إلى نهاية الزقاق وانعطفنا في شارع الحديقة التفت إليّ فجــأةً، وقد عاد أنفه إلى حجمه الطبيعيّ تقريباً، واعترف، بصــوته الجــرش الخافت المتقطّع عندما يكون مُذنباً، بأنه في الحقيقة لم يجرؤ أن يسأل رشيدة عن أيّ شيء. لم يجرؤ. نعم، لقد انفجرتْ تصرخ في وجوهنا بكلمات كثيرة غير لائقة عندما سبقناه بالــدخول أنــا وفيكتــور إيفانيتش إلى بيتها، لكنها كانت تتألّم كما لم تتألم امرأة في حياته. لم يجرؤ في البداية حتى على الدخول وراءنا. تردّد عند بابها المفتــوح، وهو يسمع صراخها وشتائمها من الداخل، حتى فكّــر أن يتركنــا عندها ويعود. لكنه حين قرّر أن يدخل أخيراً لم يكن في ذهنه غــير شيء واحد فقط هو أن يحاول التخفيف عن هذه المرأة المسكينة مــا أمكنه. كان لا يليق به كإنسان ومعلّم مدرسة ورجــل امــرأتين أن يتركها وحدها مع كل ذلك الألم الذي لا يطاق. وقد كان لكفّهــا

عن صراخها بالكلمات غير اللائقة عند دخوله وقعٌ عزيز في قلبه، فزاد من إحساسه بالمسؤولية تجاهها. سألها في البداية عمّا إذا كانت قد تناولت شيئاً من الطعام، فوجهها كان شاحباً جداً، ويداها ترتعشان ليس من شدة الانفعال فقط، بل من الجوع حتماً. لم تجبه مباشرة كما لاحظنا. توقّع أنها كانت تنتظر منه أن يسألها عن أي شيءٍ آخر سوى الطعام. ولكنها أجابته بأنها لم تأكل منذ مساء الأمس. لم يكن لديه طبعاً ما يمنعه من تصديقها، فخاف عليها، هي الجلد على العظم أصلاً، من أن تُصاب بسوء أمامنا، أو بعد خروجنا لا سمح الله، فقد مضى عليها يوم كامل على الأقل دون أن تضع في فمها لقمة واحدة. فكان لا بد من إقناعها بتناول الطعام قبل كل شيء. إن الإنسان في النهاية يحتاج يا عزيزتي، حتى عندما يتألم كثيراً، إلى أن يأكل بشكل جيد. بل إن الإكثار من الطعام، بمناسبة وبدون مناسبة، وسيلة معروفة يلجأ إليها كثير من الناس للتغلّب على شعورهم بالمصائب التي تحيط بهم. لهذا السبب تتمتع الأرامل، على سبيل المثال، بشهية عالية وإقبال ملحوظ على الطعام في كل الأوقات، خاصة إذا كان حزنهن على أزواجهن عميقاً وصادقاً. ولا بدّ أنكِ قد لاحظتِ أن مؤخراتهن، الشهيرة بين الناس منذ أقدم العصور، لا تتضخّم عملياً إلاّ مع تعتيق الآلام الصادقة بالمثابرة المخلصة على أشهى المأكولات الدسمة والمشروبات. هل انتبهتِ مثلاً إلى أنّ... ثم انتبه أبو علي إلى أن رشيدة لم تكن تصغي إليه ولا تشعر بكلّ وجوده إلى جانبها. لقد كانت تسرح في مونولوج داخليّ مؤلم طويل، ما اضطرّه فجأةً إلى الكفّ عن إقناعها بضرورة إقبالها على الطعام. غير أنه لم يجد شيئاً ملائماً آخر يقوله لها في تلك اللحظة،

فسكت حائراً. ثم طال الصمت الثقيل في الغرفة إلى أن قطعه موستاش بنبحته القوية المباغتة، التي نذكرها طبعاً، فخرجت رشيدة من مونولوجها الخفيّ والتفتت إلى أبو علي. سألته عمّا إذا كان متأكّداً من أن غزال كانت مع عصام عندما خرج البارحة من حديقة الحيوانات. وكان أبو علي يستطيع طبعاً أن ينكر، كرمى لرشيدة، وجود غزال بين يدي عصام البارحة، لكنه لم يكن متأكّداً من أن ذلك سوف يخفّف من ألمها. إن أيّ استجابة الآن لوساوسها بكل ما يتعلّق بعصام وغيابه كان سيزيد من إحساسها بمأساتها في كل الأحوال، فكّر أبو علي، ثم رأى أن يجيب عن سؤالها بصورة تطهّرها من كلّ مشاعرها المؤذية قدر الإمكان، فحكى لها مسرحية "السيد" لكورنيه.

- كورنيه؟!

اندهش فيكتور إيفانيتش مستفهماً كأنما عن علاقة كورنيه بغزال وعصام.

- نعم.. كورنيه! أكّد أبو علي، وقد بدا أمامنا كالمتخوّف من أن نُسيء فهمه، فأردف في الحال، ليزيل كأنما كلّ لبس في أذهاننا، أن هذه المسرحية تقوم، بالمناسبة، على تغليب الواجب على العاطفة. وقد أصبحت رشيدة أفضل بكثير بعد أن استمعتْ إلى حكايتها، حتى لقد شكرته في النهاية، وصارت تعتذر له عن الكلام غير اللائق الذي استقبلتنا به في أول الزيارة، ما حدا بأبو علي لأن يقاطعها بنهوضه المفاجئ، فهو لم يجبر خاطرها بالسيد كورنيه، العزيز على قلبه، لكي يجعلها تعتذر عن أيّ شيء.

بذلك أنهى أبو علي كلامه، وبدا كالمرتاح من عبءٍ نزل عن كاهله.

تابعنا نمشي صامتين باتجاه حديقة الحيوانات.

لم يفاجئني طبعاً أن يكون أبو علي قد روى لرشيدة مسرحية "السيد" لكورنيه. لقد كان مولعاً دائماً بأعمال كورنيه منذ أيام دراسته في الجامعة، خاصة بمسرحية "السيد" كما يعرف أصدقاؤه ومعارفه وطلابه وزبائنه. وأعتقد أن هذه المسرحية هي كلّ ما تبقى في ذاكرته الآن من الأدب الفرنسي الذي درسه قبل ما يقرب من أربعين عاماً، ولذلك كان حريصاً دائماً على روايتها كلما سنحت له الفرصة، ولو في مأتم. غير أن ما فاجأني عملياً وشغلني الآن، كما لم يشغلني قط طوال حياتي في الحي الروسي، إشارةُ أبو علي الأخيرة إلى "تغليب الواجب على العاطفة" في إجابته المراوغة عن سؤال رشيدة حول غزال وعصام: هل كان أبو علي يعتقد مثلاً أن ذهاب عصام إلى الغوطة كان تلبية لنداء واجبٍ خطيرٍ ما لم يُطلعنا عليه؟ وإذا كان الأمر كذلك، مع أنني أرتاب به وأستبعده جداً، فلماذا لم يُناده هذا الواجب إلا ليلة البارحة، رغم أن الغوطة محاصرة عملياً منذ سنوات؟

لا بدّ على أيّ حال، فكّرتُ، من أن أتحقّق الآن مما إذا كان لدى أبو علي معلومات محدّدة لا أعرفها عن عصام، وإن كنت أرجّح أن "تغليب الواجب"، الذي أشار إليه قبل قليل، كان اجتهاداً شخصياً مؤسساً على انطباعاته ومشاعره الخاصة لا أكثر، أو أنه جاء في سياق ولعه القديم بكورنيه ليبرّر، أمامنا على الأقل، روايته مسرحيةَ "السيّد" لرشيدة. وفيما كنت أهمّ بمفاتحة أبو علي، بهواجسي هذه، لمحتُ في تلك اللحظة شاباً طويل القامة مندفعاً نحونا

من جهة الحديقة، ثم تأكّدتُ، حين اقترب منّا كثيراً، من أنه يقصدني بالذّات مع أنني لا أذكر أنني رأيته من قبل في الحي الروسي. كان واضحاً، من هيئته العامة، أنه متعب جداً، كأنما من إجهادٍ طويل وقلّة نوم. سألني، بنبرة رجل يخصّني باحترامٍ مُبَيّت، عمّا إذا كنت أعرف صالح الذي كان يعمل مترجماً في حديقة الحيوانات.

- طبعاً أعرفه.

قلت.

- تعال معي لو سمحت!

اعتراني اضطراب مفاجئ شديد، فنظرتُ إلى أبو علي سليمان وفيكتور إيفانيتش، ثم إلى الناس الذين كانوا يرافقوننا من بيت عصام.

- تعال وحدك من فضلك!

أردف الشاب بصوت واثق وهادئ.

وجدتني أرافقه وحدي متردّداً بعض الشيء، فيما تلبّث الجميع في أماكنهم على مقربة من بوابة حديقة الحيوانات، وهم يراقبونني بفضولٍ وقلقٍ ظاهرَيْن.

II

مشيت إلى جانب الشاب، وأنا أشعر بوجيب قلبي المتسارع كما لو أنه أصبح ينبض في صدغيّ. ثم زاد من اضطرابي أننا تجاوزنا بوابة الحديقة، ودلفنا في أول زقاق صادفنا إلى اليسار دون أن ينطق بحرف. نطف قلبي، ووددت كثيراً لو أقول له: "قل لي شيئاً لو سمحت..!"، لكني خشيتُ من أن أفقد أعصابي، فتخرج من فمي كلمات أخرى لا أريدها، وقد أندم عليها.

- أرسلني صالح من الغوطة.

قال أخيراً بصوت خفيض محايد، متابعاً مشيته إلى جانبي دون أن يلتفت إليّ، ثم أردف بالحياد نفسه:

- معي جثة عصام.

غمرتني فجأة سَكينةٌ موحشة مذهلة.

كأن أسوأ ما يمكن أن يحدث في هذا اليوم الرهيب قد حدث أخيراً في هذه اللحظة، ولا سبيل الآن إلى التراجع عنه أو إعادة النظر فيه، ولا بدّ من التسليم به في الحال كشيءٍ أصبح موجوداً فجأةً، بحجمٍ وكثافةٍ وأبعاد، بعد أن كان، حتى قبل قليل فقط، مجرّد فكرةٍ فظيعةٍ غير أكيدة تحوم في رؤوس الناس وضمائرهم في الحي الروسي منذ أول المساء.

- أين هو؟

قلت بعد صمت طويل ساد كأنما في الحي الروسي كلّه.

- في آخر هذا الزقاق.

قال.

ثم اقتربنا، في آخر الزقاق، من سيارة بيك آب محملة بقطع مختلفة من أثاث منزلي وأشياء أخرى لم أميّزها جيداً بسبب سوء الإنارة.

صعد الشاب إلى كابين البيك آب، وأشار إلي بيده أن أصعد إلى جانبه. ثم سألني، وهو يشغّل المحرّك، عن المكان الذي يأخذني إليه الآن مع الجثة.

- إلى حديقة الحيوانات.

قلت.

ثم سألته، بعد قليل، عمّا إذا كان يعرف كيف مات عصام، فأجابني، بهزّة خفيفة من رأسه، بأنه لا يعرف. ثم ظللنا صامتين حتى اقتربنا من الحديقة.

كان أبو علي سليمان وفيكتور إيفانيتش وأناس آخرون ينتظرونني الآن على مقربة من البوابة، فيما اندفع موستاش ورئيسة بتروفنا باتجاه البيك آب ينبحان.

طلبتُ من الشاب أن يوقف البيك آب أمام البوابة تماماً، فأفسح الواقفون هناك الطريق له ثم تبعوه حتى توقف.

نزلت من كابين البيك آب، واقتربت من أبو علي سليمان وفيكتور إيفانيتش، فتحلّق حولنا الآخرون.

- جثة عصام في البيك آب.

قلت بصوت كامدٍ خافت.

ذهل الجميع، وهجموا تلقائياً على صندوق البيك آب.

كان الشاب قد نزل من الكابين هو الآخر وجعل الآن يفك الحبل الذي يحزم الأغراض في الصندوق. طلب منهم أن لا يمدّوا

أيديهم إلى السيارة قبل أن ينتهي. ثم تدخّلتُ أنا ورجوتهم أن يبتعدوا إلى الوراء وأن يحافظوا على الهدوء قدر الإمكان.

أنزل الشاب مجموعة من كراسي قش ودرفتيْ خزانة قديمة وطاولة خشبية وبضع طربيزات ومدفأة حطب وطسوت بلاستيكية مختلفة الأحجام وسطول توتياء ومخدات وألحفة قطنية منجّدة بالية. ثم تقدّم من غلق الصندوق وفتحه، فظهر رأس عصام مُسَطّحاً على ظهره تحت طبقتين من فرشات اسفنج.

- اسحبوه!

قال.

لم يتقدّم أحد.

كان شيئاً لا يصدّق أن يكون عصام مطموراً أمام أعيننا تحت فرشات اسفنج ولحف ومخدات وطسوت بلاستيكية وسطول وكراسي قش.

اقتربنا أنا وأبو علي سليمان- حاولنا سحبه من إبطيه، ولم نستطع- كان ثقيلاً جداً. انضم إلينا رجلان، فتمكّنا معاً من لحلحته حتى إذا انسحب معنا استلم رأسه وكتفيه آخرون، ثم حمل آخرون غيرهم جذعه الهائل ويديه ثم رجليه حتى وجدتُني، مع رَجُلٍ آخر، تحت إحدى ساقيه. دخلنا به إلى الحديقة بخطى قصيرة حذرة مرتبكة. ثم أعطيت مكاني لرجل لا أعرفه كان إلى جواري، ومشيت أمامهم حتى توقفتُ عند فسحة الزرافة. تلبّثوا في أماكنهم ريثما فتحتُ باب السياج إليها. كانت النعامة تراقبنا من فوق سياجها المجاور. وكذلك قرود الليمور على أغصانها الاصطناعية من الجهة الأخرى. وإذ دخلوا ورائي إلى فسحة الزرافة التفتوا إليّ فأشرت لهم أن يمدّدوا عصام على

الأرض. مدّدوه، وتحلّقوا حوله مع آخرين تدفّقوا من باب السياج المفتوح. كان مغمض العينين. بقعتان من الدم على صدره. تيشرته الأبيض، الذي كان يرتديه ليلة البارحة، ممزق ومعفّر بالتراب عند بطنه كما لو أنه قد شُحِط لمسافة طَويلة بعد أن قُتل.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة قبل منتصف الليل.

طلبت من الجميع أن لا يبقى أحد منهم داخل السياج، فخرجوا مُتلكّئين، لكن بهدوء متوتّر شديد. تجمّعوا عند بوابة الحديقة مع آخرين بدؤوا يتوافدون من شوارع الحي الروسي وزواريبه، كما سأعرف بعد قليل. كان مفهوماً لي أنهم لن يبتعدوا الآن عن الحديقة ما لم يُخرجوا عصام ويُشيّعوه، كما يليق به، إلى مثواه الأخير. وكان من العبث طبعاً إقناعهم بغير ذلك، مع أنهم، جميعاً، كانوا يعرفون جيداً ماذا يعني أن يُقتَل عصام في الغوطة وماذا يعني تشييعه، بعد ذلك، في الحي الروسي. لكنّهم، بوجوههم الواجمة العنيدة الحالمة، بدوا الآن كما لو أنهم يقفون أخيراً أمام نفقٍ إجباريّ لا بدّ من عبوره بأرجلهم هم، إن لم يكن مع عصام فَبِجُثّتهِ على أكتافهم حتماً. لقد طالت مراوحتُهم كثيراً جداً على حافّةٍ تنزلق تحت أقدامهم يوماً بعد يوم إلى قلب الهاوية، كأن عقلاً جماعياً متجهّماً أصبح يُسيّرهم الآن لأن يقولوا معاً كلمةً قويّةً، أخيرةً ربما، قد لا يتحمّل الحي الروسي قولها دفعةً واحدة. إنهم لا يعرفون ماذا فعل عصام في الساعات القليلة التي أمضاها في الغوطة، لكنّني أعتقد أن أحداً منهم لا يستطيع أن يصدّق أنه ذهب لكي يقاتل هناك، وإن كان سهلاً على الآخرين أن يظنّوا عكس ذلك، خاصة إذا كانوا لا يعرفون عصام ولا يريدون أن يفهموا ما هو الحيّ الروسي. القتال في سبيل أيّ شيء يعني تخلّي

الحي الروسي عن طبيعته وزجّه في فكرة مجردة شاملة واحدة تحتاج إلى إثباتها ونشرها والدفاع عنها في كل لحظة. لا توجد فكرة واحدة يؤمن بها كل الناس في الحي الروسي، ولا يجمعهم فيه تاريخ طويل، وليس هنالك موروث مقدّس موحّد ينبغي تخليده، ولا أحد مُكترث أصلاً بأيّ حدٍّ لأيّ سيفٍ أو أيّ عقيدةٍ جاهزة يابسة، ليُسوّق طريقة محدّدةً بالحياة ويُسفّه أخرى. ثم إن الإحساس بالمفاهيم الكبرى والرسالات الخالدة عموماً، مقدسةً كانت أو غير مقدّسة، كان دائماً ضعيفاً جداً عند كثير من الناس، ولا أعتقد أنه كافٍ لأن يجعل أياً منهم يموت من أجل معتقداته مهما كانت الأسباب. الناس هنا، منذ ظهور الحيّ الروسي، كانوا دائماً أوصالاً حيّة قادمة من أوطان بالية وعقائد بالية وطوائف بالية وقبائل بالية، تجمعهم الرغبة الأرضيّة الخالصة بالحياة، وليس الرغبة بأيّ هويّة واحدة مؤبّدة تحبسهم من جديد في فكرةٍ متعجرفة كاملة.

لكنّهم الآن كانوا، على غير العادة، مدفوعين، كأنما بقوة قاهرة لا تقاوم، إلى النفق الذي لن يأخذهم ربّما إلى غير الهاوية التي يتحاشون السقوط فيها منذ سنوات.

كان لا يمكنني إيقافُهم، ولا أعرف إن كانوا حقاً سيُتيحون الوقت الكافي، لي أو لأيّ شخصٍ آخر، للقيام بخطواتٍ ما، قد تكون ضرورية لتشييع عصام في الحي الروسي بأقل الخسائر المباشرة الممكنة.

كان لا بدّ من المحاولة على أيّ حال، فكّرتُ، ثم أغلقت باب السياج على الزرافة وجثة عصام، وتوجهت إلى بوابة الحديقة.

بوريا

I

لو أن عصام مات موت ربّه في الحي الروسي لكان يمكن إخبار مكتب دفن الموتى، الذي يُديره رجال بوريا، ليشرف على إجراءات تشييعه ودفنه، بالشكل الذي يُرضي الجميع دون أيّ عواقب أو اعتراضات من أيّ طرف.

ولو أنه قُتل هنا بقذيفة هاون قادمة من الغوطة لكان قتله وتشييعه ودفنه موضع ترحيب شديد من قبل بوريا ورجاله في مكتب دفن الموتى. وهذا يعني أنه كان سيعامل معاملة استثنائية لا يتمتع بها عادةً إلاّ ضحايا قذائف الغوطة والقتلى، من أولاد الحيّ الروسي، الذين تخلّفوا عن الخدمة العسكرية و لم يحالفهم الحظ لا في السفر خارج البلاد ولا في التخفّي المُتقَن داخلها، فأُلقي القبض عليهم وأرسلوا إلى جبهات القتال، ثم عادوا بعدئذٍ في صناديق مختومة ملفوفة بالأعلام على اعتبارهم شهداء الوطن.

أما أن تُسلّم جثة عصام الآن إلى مكتب دفن الموتى، وهو افتراض لن يقبل به أحد على كل حال، فلا شيء يضمن أن لا يسلّمها رجال بوريا أصولاً إلى فرع من الفروع الأمنية في العاصمة القديمة بتهمة الذهاب إلى الغوطة والعودة منها برصاصتين في الصدر تلقّاهما في معركة ضدّ جيش النظام، كما يمكن أن يستنتجوا دون

عناء ولا دليل ولا ضمير. ومن المحتمل طبعاً أن يمنعهم بوريا من القيام بذلك، فليس بوسع أحدٍ أن يحزر ما يدور برأسه، خاصة إذا كان الأمر يتعلّق بخصيمه القديم عصام. كما يستطيع، إذا أراد، أن يعامله معاملة الناس، المحظوظين بإعادة جثثهم إلى ذويهم، من المعتقلين الذين يموتون عادةً تحت التعذيب في الأقبية ذات الصلة في العاصمة. وهذا يعني دفن عصام على السّاكت بحضور رشيدة فقط باعتبارها امرأته المتعارف عليها منذ مدة طويلة. وهو حلٌ لا يتّسم أيضاً بأيّ مقدار من الواقعية بالنظر إلى الحشد المتجهّم الحالم، المتعاظم الآن لحظةً بعد لحظة، أمام بوابة حديقة الحيوانات.

كان لا بد إذاً من لقاء بوريا، فكرنا أنا وأبو علي سليمان وفيكتور إيفانيتش، لنتأكّد مما إذا كان قادراً على تمرير احتمالٍ آخر. وقد كان مفيداً قبل لقائه أن نكون قادرين من ناحيتنا، وبنيّةٍ حسنةٍ قدر الإمكان، على تمييز الفروق، الموجودة حتماً مهما كانت ضئيلةً، بين بوريا وبين أجهزة العاصمة التي يتعامل معها. فهو في نهاية الأمر يتبادل معهم مصلحةً بمصلحة، لكنه ليس موظّفاً عندهم، ولا رجُلَهم بالمعنى المتداول الخالص للكلمة. إن أحداً منّا لا يستطيع، بطبيعة الحال، أن يقدّر الآن بدقّة كافية كم بقي لبوريا من النفوذ الحقيقي والصلاحيات الفعلية بعد أن تحوّل الحيّ الروسي ممراً يوميّاً، إلى حدوده مع الغوطة، للدبابات وناقلات الجنود والمدافع والراجمات وعربات الإمداد بالطعام، ورحبةً لإصلاح كل هذه الآليات، ومستودعاً متقدّماً لذخيرتها. لكن الجميع يعرفون أن بوريا لم يفقد بعدُ كلمتَه المسموعة لدى الجهات صاحبة النفوذ في العاصمة القديمة، وأنه ما يزال يقدّم لهم، عندما تقتضي مصلحته فقط، بعض الخدمات

التي لا تشرّف أحداً في الحي الروسي. كان علينا الآن أن نجعله يفهم، قبل كل شيء، أن الناس عندنا سوف يشيعون عصام في كل الأحوال، وأن أصدقاءه الساهرين على أمنهم في العاصمة سيعتبرون ذلك، دون وجه حق، أولَ خطوة عدائية سافرة يتخذها الحي الروسي ضدّهم منذ بداية الحرب. وهنا لا بد من المراهنة، ما أمكننا، على إيقاظ إحساس بوريا بالحي الروسي كواحدٍ من أبنائه قبل أن يكون أيّ شخص آخر. ولربما أصبح الوقت الآن ملائماً جداً، بالنسبة إليه، ليعتبر خصومته القديمة مع عصام شيئاً من الماضي ما دام لم يعد على قيد الحياة. ولعلّ ذلك سيكون دافعاً إضافياً ليستخدم كلمته المسموعة من أجل ترخيص جنازته، مع كل مشيّعيه المحتشدين منذ الآن، وإزالة سوء الفهم المؤكّد الذي سينشب بيننا وبين العاصمة بعد التشييع. وقد زاد من عشمنا باستجابة بوريا أنه سيكون المتضرّر الأكبر من دفع الحي الروسي إلى الهاوية التي يترنح على حافتها منذ سنوات- لقد كان، وما يزال، أكثر المستفيدين من بقاء الحيّ واقفاً على قدميه منذ بداية الأحداث الدامية حتى الآن. هو وحده من أدار ويدير احتكار المواد الاستهلاكية والتحكّم بأسعارها، وتحت إشرافه يتمّ الاستيلاء على معظم المساعدات المجانية التي تقدمها منظّمات الأمم المتحدة لأكثر من ثلاثمئة ألف نازح إلى الحيّ الروسي، ثم بيعها لهم ولغيرهم من المحتاجين طوال سنوات الحرب. فضلاً عن محاصصته القديمة بأرزاق الناس بذريعة تمويل أعماله الخيرية التي لا يملّ من اختراعها.

كان الناس المحتشدون أمام بوابة الحديقة قد قرّروا البقاء في أماكنهم حتى تشييع عصام في الصباح الباكر. كانوا، كأنما، لا

يضمنون عودهم إلى هنا في الصباح إذا تفرقوا الآن إلى بيوهم، كـأنّ قوة خارقة كانت ستمنعهم من العودة، أو أنّ كلاً منهم كان يخشى، إذا انفرد بنفسه، أن يخضع تلقائياً للوساوس والحسابات المعهودة القديمة حتى تنهك قواه طوال الليل، فإذا طلعت عليه الشمس جبن واستسلم للنوم. ولعلّهم، في واقع الأمر، كانوا الآن في حاجةٍ ماسّةٍ إلى وجودهم معاً لكي يثقوا معاً، دون أيّ ذرّة شكّ، بأنّ ما هم مقبلون عليه ضروريّ فعلاً ونهائيّ حقاً ولا سبيل إلى التراجع عنه بعد الآن. لذلك بدت فكرتنا بلقاء بوريا، في بعض الوجوه القريبة منّا، في غير محلّها ولا لزوم لها كما لو كانت تضع تشييع عصام موضع شكٍّ أو مساومةٍ مع بوريا. غير أنهم سرعان ما تحمّسوا لها جميعاً حين بدأنا نتساءل عن الأمكنة التي يمكن أن يرتادها بوريا في مثل هذا الوقت من الليل.

لا يُتوقّع أن يكون بوريا في منزله الآن، فهو لا يأوي إلى هناك، كما هو معروف لدى الجميع، إلا لكي ينام. وبوريا لا ينام عادةً قبل السادسة أو السابعة صباحاً بعد أن يكون قد اطّلع، أولاً بأول، على كلّ أخبار الليل وأول الصباح في الحي الروسي.

أين يمكن أن نجده في هذه الساعة من الليل إذاً؟

إنه يسهر أحياناً في "الطاحونة الحمراء"، وأحياناً في "قرطبة". وهناك من شاهده خارجاً من "الكريزي هورس" مرات كثيرة. ويقال إنّ له صديقة جديدة يتردّد إلى بيتها أحياناً في سوق الصوف بمواعيد مختلفة من الليل أو النهار. ولسببٍ غامضٍ يطرق في بعض الليالي باب إسكافيّ عجوز يعيش وحيداً في قبوٍ قريبٍ من حديقة الحيوانات، ثم لا يخرج من هناك قبل مضيّ ساعة أو ساعتين. وقد يتناول عشاء

متأخراً لدى عربات الشواء المتوقّفة عادةً عند مفارق الأزقّة القريبة من أبواب الكباريهات في شارع الملاهي. وقد يُصادَف في مثل هذا الوقت أيضاً جالساً يشرب الشاي ويلعب الورق مع طبيب أو ممرضة في أحد المشافي. وقد تجده صافناً برفوف الأدوية في الصيدليات المناوبة. وقد يتردّد إلى ورديّات الأفران الليلية أو إلى قيساريّات أنوال النسيج. كما يمكن أن يُلاحَظ رأسه من كوّة إحدى كولبات الحراس المنتشرة على الأرصفة. وفي بعض الأحيان يتمشّى وحيداً في الزواريب القديمة الضيّقة المظلمة. وقد تراه في سيارته متوجهاً إلى العاصمة، أو متجوّلاً بها على مهله في شوارع الحي الروسي.

تطوّع أشخاص كثيرون من حولنا للبحث عن بوريا في "الطاحونة الحمراء" و"قرطبة" و"الكريزي هورس" وفي غرف الممرّضات والأطباء المناوبين في المشافي وفي الصيدليات المناوبة، وفي الزواريب المظلمة التي يمكن أن يتجوّل فيها، وفي كولبات الحراس الليليين. كما بادر بعضهم إلى تفقّده لدى عربات الشواء عند مفارق الأزقّة القريبة من الكباريهات، وفي الأفران والقيساريّارت. وقد ادّعتْ ممثلة، من فرقة عبد الجليل حجازي، أنها تعرف صديقة بوريا الجديدة وتربطها بها علاقة طيبة فأخذت على عاتقها أن تذهب إلى بيتها وتسألها عنه. وقال أبو علي سليمان إنّه يتبادل التحيّة عادةً مع جارنا الإسكافي العجوز كلما صادفه في الطريق، وأنه لا يصلح أحذية عائلتيه إلا عنده، ولا يعتقد أنه سينزعج كثيراً من طرقه بابَه في وقت متأخر في مثل هذا الظرف. ولا شكّ أن كثيرين آخرين انطلقوا، من تلقاء أنفسهم، يبحثون في أماكن أخرى شاهدوا بوريا فيها أو توقّعوا وجوده هناك، فدخلوا المقاهي والسينما والفنادق

والبارات والمطاعم وبيوت البغاء، وسألوا عنه، لا بدّ، عاهرات الشوارع والمتسوّلين الموسيقيين وذوي العاهات وبائعي اليانصيب وماسحي الأحذية ولاعبي الكشتبان، وتوقّفوا طويلاً حتماً عند منعطفات الطرق التي تصبّ في الجادة العريضة التي تأخذ إلى العاصمة القديمة.

ولكن عبثاً.

لقد اقتربت الساعة من الواحدة بعد منتصف الليل دون أن نتوصّل إلى أيّ أثر أو خبر عن بوريا. وهو أمر لم يدعني، أنا على الأقل، إلى الاستغراب بقدر ما وضعني أمام استنتاجٍ واحدٍ هو أن بوريا لا يخفي آثاره في الحي الروسي بهذه الدقّة بمحض المصادفة. وهذا يعني ببساطة أنه لا يريد أن يلتقي أحداً منّا، وأن حساباته تختلف كثيراً عن حساباتنا. وإذا كنّا ظننّا أنه سوف يقبل أن يُفرض عليه تشييع عصام كأمرٍ واقع، فإنما نرتكب خطيئة كبيرة، ومن ثم سنتحمّل، وحدنا، ما سيجرّ ذلك علينا وعلى الحيّ الروسي. ثم أكّد لي هذه الهواجس، إلى حدٍّ كبير، الخبرُ اليقين الذي جاء به أخيراً الأستاذ معين، مدير مكتبة المركز الثقافي- لقد وجد بوريا في كباريه المعلم أرتين، وعلِم أنه موجود هناك منذ الساعة الحادية عشرة والنصف قبل منتصف الليل.

لم تطأ قدم بوريا كباريه المعلم أرتين، كما يعلم الجميع، منذ سحبَهُ عصام من سلطته قبل سنوات عديدة. لذلك لم يتوقّع أحدٌ، باستثناء الأستاذ معين طبعاً، أن يكون بوريا قد ذهب إلى هناك في هذه الليلة. ثم إن توقيت وصوله الكباريه كان في الحادية عشرة والنصف، أيّ عندما كان خبر موت عصام ينتشر في شوارع الحي

الروسي وزواريه. وهذا يعني أن أحداً، من بين المحتشدين أمام بوابة الحديقة، قد اتصل به وأبلغه بوصول جثة عصام إلينا في الحادية عشرة وبأننا قد قرّرنا لقاءه. عند ذلك فقط ذهب بوريا إلى كباريه المعلم أرتين، لا ليسهر سهرة بريئة طبعاً، بل لكي لا نعثر عليه، هذا أولاً، وثانياً لكي يستعيد أخيراً سلطته، التي سلبها منه عصام ذات يوم، على كباريه المعلّم أرتين.

كذلك كانت استنتاجاتنا أمام بوابة حديقة الحيوانات. وكان من غير المعقول، بأيّ حال، أن نمتنع عن لقاء بوريا ما دمنا قد عرفنا مكانه.

II

توجهنا إلى كباريه المعلم أرتين، أنا والأستاذ معين وأبو علي سليمان وموستاش وفيكتور إيفانيتش ورئيسة بتروفنا. وقد تبعنا على بعد خطوات مجموعة رجال ونساء وأطفال وكلاب من بين المحتشدين أمام بوابة الحديقة.

كانت الساعة تقترب من الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. وكان علينا الآن أن نتجنّب المرور بشارع الملاهي إلاّ إذا انعدمت المسالك الأخرى إلى كباريه المعلم أرتين، وهي موجودة لحسن الحظ، وإن كانت ستطيل علينا الطريق إلى هناك. لقد اعتاد الناس، في ساعات الذروة بشارع الملاهي بين الساعة الواحدة والساعة الرابعة صباحاً، أن تتساقط، يومياً غالباً، مجموعة من قذائف الهاون القادمة من الغوطة فوق هذا الشارع بالذّات. ولعلّ دقّة هذا التوقيت، على عكس عشوائية القذائف فوق المناطق الأخرى من الحيّ، تندرج على الأغلب في سعي جيراننا في الغوطة إلى نهي زبائن كباريهاتنا وباراتنا ومقاهينا وبيوت بغائنا عن تعاطي الفاحشة والمنكرات المختلفة الأخرى، وردّهم إلى جادّة الحق والصواب التي يعتقدون بها. لكنّ هذه القذائف الدؤوبة لم تُفضِ طوال الحرب، ولا أعتقد أنها سوف تُفضي في يوم من الأيام، إلى الغاية المرجوّة منها. إن شرب الخمر وتعاطي القمار وممارسة البغاء ومجالسة نساء الكباريهات والشغف بالرقص الشرقيّ وعروض الستربتيز وحفلات المسرح والسيرك والسينما تتوقف عليها عملياً الحياةُ الطبيعية في هذا الشارع. كما تتعيّش من هذه المهن التقليدية الليلية المزدهرة هنا أعدادٌ لا تحصى من

الأسر ذات الدخول المحدودة، فضلاً عن أُسَر المئات من فنّاني الحي الروسي وفنّاناته.

وكنّا، على مدى سنوات من القذائف المتساقطة، قد حفظنا عن ظهر قلب، كمعظم سكان الحيّ الروسي والوافدين الليليين إليه من العاصمة، شبكةَ الأزقّة الآمنة التي تتقاطع مع شارع الملاهي، التي يمكن أن تأخذنا بسلام، في ساعات الذروة، إلى أقرب نقطة من أيّ مكان نريده على طول الشارع.

لم يكن تقاطع الزقاق الذي انحدرنا منه إلى شارع الملاهي بعيداً جداً عن باب كباريه المعلّم أرتين لحسن الحظ، فكان علينا أن نهرول هذه المسافة القصيرة، الواحد تلو الآخر، على طول الرصيف بمحاذاة الجدران تماماً مُحتمين، قدر الإمكان، بشرفات العمارات المتتالية فوق رؤوسنا.

كانت الحركة قليلةً في الشارع على غير العادة في مثل هذا الوقت- عاهرات رصيف معدودات متأنقات بكعوب عالية، ورجال متأنقون وآخرون متسوّلون ومتسولات وباعة يانصيب يمكن إحصاؤهم بسهولة هنا وهناك، كانوا جميعاً يهرولون فرادى، مثلنا، بمحاذات الجدران على رصيفَي الشارع تحت الشرفات، يدخلون في الأبواب المفتوحة على الجانبين، للكباريهات والبارات ومقاهي القمار ومطاعم الكباب والكبة الصاجيّة واللحم بعجين والفروج المشوي، ودكاكين الخمور والتبغ والبسطرما وحبال القديد والمكسّرات، ويخرجون منها من وقت إلى آخر. لم يكن هنالك أيّ أثرٍ طبعاً للسيّارات الخاصة ولا لسيّارات الأجرة التي تكثر حركتها في الشارع عادة قبل الواحدة، ثم توجد، بتواترٍ أقلّ وبأسعارٍ أعلى، بعد الرابعة

صباحاً على أبواب الكباريهات لنقل المترنّحين والمترنّحات من الزبائن والفنّانات والفنانين إلى المنازل والفنادق في الحي الروسي وفي أحياء العاصمة الأخرى.

كانت الأضواء الآن تتراقص كالعادة على باب كباريه المعلّم أرتين في منافسة حامية مع الأضواء المتراقصة على أبواب الكباريهات القريبة الأخرى لاجتذاب الزبائن النادرين في هذه الليلة.

دلفنا في دهليز ضيّق طويل مضاء بأشرطة من مصابيح حمراء وزرقاء صغيرة تشتعل بالتناوب على طول سقف منخفض. وعلى الجانبين أُلصِقت، في جامات زجاجية، صور فنانات في وضعيات مثيرة من الرقص الشرقي والاستعراضات الراقصة الغربية والستربتيز. ثم نزلنا بضع درجات تنتهي بباب مغلق. فتحناه واندلقنا إلى الداخل دفعة واحدة أنا والأستاذ معين وأبو علي سليمان وموستاش وفيكتور إيفانيتش ورئيسة بتروفنا وآخرون أعرف بعضهم بالوجوه وليس بالأسماء. كانت أنوار الصالة خافتة، وعلى البست مجموعة موسيقيين يثيرون بآلاتهم صخباً عالياً. فنانات، من أعمار مختلفة، بصدور مدلوعة وأذرع وسيقان عارية تقريباً يجلسن شبه نائمات على أكواعهن فوق سطح كونتوار طويل إلى اليسار، وأخريات ضجرات متراكمات حول طاولتين قريبتين من البست. ثلاث طاولات فقط كانت مشغولة بالزبائن، واحدة منها كان يجلس إليها بوريا وحيداً أمام زجاجة ويسكي وكأس نصف مملوءة وزورق فاكهة. وقدا بدا، فور دخولنا، أن عددَنا الكبير وتجمّعنا أمام الباب المغلق وراءنا قد أخلاّ فجأة بتوازن كان متماسكاً في الصالة قبل أن ندخل- التفت إلينا زبائن الطاولتين متوجّسين كأنما من مشكلةً سوف نتسبّب بها

بين لحظة وأخرى. وكذلك فعلت الفنانات، فقد زال النعاس والضجر من وجوههن وشَخَصْنَ إلينا متلهّفات كأنما إلى مصيبةٍ مسلّية يمكن أن نقترفها الآن. أما المعلّم أرتين القابع وراء طاولته في عمق الصالة، والمضبوع بحضور بوريا الطاغي لأول مرة بعد غياب سنوات، فقد توسّل، كأنما، دخولنا المباغت ليستعيد بعض إحساسه بنفسه كمالكٍ للكباريه- نهض من وراء طاولته، بكلّ شحومه المتلّلة، بعناء وإصرار واضحين، وجعل يراقبنا بعجرفة مزيفة وانتباه استعراضيّ من باب التذكير ببرستيجه المفقود هذه الليلة، وليس تحسّباً من "خطوتنا" التالية- كان يدرك تماماً أننا، أيّاً كانت نوايانا، لن نجازف حتماً بإثارة أيّ شيء يمكن أن يزعج بوريا.

غير أن أحداً منّا لم يجرؤ على الاقتراب من بوريا.

كان بوريا يبدو، من بعيد، كمن يواصل استغراقه بأفكاره الخاصة لا أكثر، كأنه لم يلاحظ دخولنا ولا تَلَبّثنا عند الباب قبل قليل. كانت نظراتنا تترصّد حركاته وسكناته لحظةً بلحظة، وكلّ منّا يدرك أن جمودنا عند الباب لا يمكن، ولا ينبغي ربما، أن يستمرّ أكثر من ذلك. ثم كأننا استنفدنا الصبر الاصطناعيّ لدى المعلم أرتين، فتحرّك في هذه الأثناء من وراء طاولته ووقف في آخر الممر، بين الطاولات الشاغرة على الجانبين- لعلّه فعل ذلك ليلفت انتباه بوريا إلى استعداده الكامل لمنع ما تخيّله، هو نفسه، من المفاجآت التي يمكن أن تعكّر صفو الصالة، والتي لا يمكن أن نقوم بها بطبيعة الحال. وهنا ارتفع ضجيج الآلاتية فجأةً واندلعتْ، مثل هب عاصفٍ بأذيال طويلة، راقصةٌ من وراء الستائر وجعلت ترفرف خلف مؤخرتها بشرائط ثوبها البراقة وتدور على حافّة البست بخطوات موقّعة سريعة.

ولسببٍ كلبيٍّ غامضٍ من الأسباب انفصل عنّا فجأةً موستاش ورئيسة بتروفنا، مع اندلاع الراقصة بالضبط، واندفعا باتجاه البست وجعلا ينبحانها بضراوة واضحة. تراجعت الراقصة باتجاه الستائر التي اندلعت من بينها قبل قليل، وهي تصرخ من الخوف خاصة من رئيسة بتروفنا التي قفزت إلى حافة البست. وكذلك تصايحت الفنانات حول الطاولتين القريبتين. وكان ضجيج الآلاتية قد تقطّع وارتبك في هذه الأثناء، فوجد المعلم أرتين في ذلك مناسبة جيدة ليمارس أخيراً شيئاً من سلطته على الكباريه- رفع كفّه المدعبلة السميكة وأوقف الفقرة الراقصة بإشارةٍ حازمة.

ساد السكون المتوتّر في الصالة، فسكت موستاش ورئيسة بتروفنا في الحال، فيما انطلق الأستاذ معين من بيننا باتجاه بوريا وجلس إلى طاولته.

كان الأستاذ معين صغير الحجم، ولا تدلّ ملامحه أبداً على أنه رجل مسنود من أحدٍ أو من جهةٍ ذات نفوذ في الحي الروسي أو في مكاتب العاصمة. كما لم تكن عيناه الصغيرتان المعبّرتان تَشِيان بأنه مختلّ الإدراك لكي يجرؤ على الجلوس إلى طاولة بوريا دون دعوةٍ أو إذن مسبق.

بدأ المعلّم أرتين يقترب، مثل ساخط، من طاولة بوريا بالسرعة التي تتيحها له بدانته المفرطة، فيما اندفع نادل ضخم باتجاه الأستاذ معين بهدف إزالته على الأغلب. وكنت قد وصلتُ قبل النادل إلى الطاولة وجلست إلى جانب بوريا من الطرف الآخر، وكذلك فعل أبو علي سليمان وفيكتور إيفانيتش، بينما تجمّع الآخرون حول الطاولة واقفين. وأمام كثرتنا وصمت بوريا ولا مبالاته الظاهرة حتى

الآن لم يعرف النادل ماذا يفعل، فنظر باتجاه المعلّم أرتين الذي لم يكن قد وصل بعد إلى الطاولة.

- لا نريد أن نشرب شيئاً.

قال الأستاذ معين مخاطباً النادل مشدّداً على مخارج حروفه، وبنبرةٍ هادئةٍ، واثقةٍ، وآمرةٍ دون ادّعاءٍ ولا ابتذال.

- نريد أن نحكي كلمتين مع السيد بوريا.

أردف الأستاذ معين.

ثم ساد صمت قصير ريثما وصل المعلّم أرتين إلى الطاولة ووقف مع الواقفين.

- عصام عاد من الغوطة..

تابع الأستاذ معين كلامه وقد التفت الآن إلى بوريا.

- مقتولاً.

استدرك.

لم يظهر على وجه بوريا أيّ تعبير جديد. ظلّ صامتاً، كما لو أنه ما يزال لا يشعر بوجودنا من حوله. كان الآن يتمعّن بغصن أخضر، قريب من زورق الفواكه، مرسوم على غطاء الطاولة المشوّف النظيف.

- سوف يكون صعباً جداً علينا أن نسلّم جثته لمكتب دفن الموتى يا سيد بوريا.

تابع الأستاذ معين.

- الحيّ الروسي سيشيّعه.

أردف أخيراً بيقينٍ متماسكٍ بصعوبة، كمن يصل إلى زبدة كلامه، ثم سكت دون أن تتحول عيناه عن وجه بوريا.

خيّم فوقنا صمت حادّ شائك طويل.

ثم ما لبث بوريا أن التفت فجأة نحو الأستاذ معين. زرّر عينيه عليه ورازه طويلاً. لم يكن يُبدي، في غضون ذلك، ما يشبه التأثّر بما سمع الآن، كأنه كان مستغرباً فقط من الثقة الكبيرة التي تكلّم بها الأستاذ معين، التي لم تكن تتناسب أبداً مع الكيلوغرامات القليلة التي يَزِنُها جسمه في الواقع.

- سوف نشيّعه.

أكّد له الأستاذ معين ببساطة وبصوت رصين أخفض، وهو ينظر في عينيه مباشرةً ويعبّره، بعيداً عن أيّ إحساسٍ بالنكاية أو التحدّي أو تسجيل المواقف. وكنا، نحن الجالسين إلى الطاولة والواقفين من حولها، ننتظر الآن، بعيون شاخصة وقلوب واجفة، ما يمكن أن يصدر عن بوريا.

مدّ بوريا يده، بخمول ظاهر، إلى كأسه نصف المملوءة. تناولها ورفعها إلى شفتيه، وقد أحدثت مكعبات الثلج فيها طرطقة خافتة في اصطدامها بعضها ببعض. أفرغ على مهله السائل الذهبي البارد في جوفه على دفعتين. ثم نهض من مكانه وتوجّه بخطوات وئيدة إلى باب الخروج دون أن ينبس بكلمة أو يُظهر ما يدلّ على غضبٍ أو استعجال.

ظللنا جميعاً جامدين، كلّ في مكانه، حتى تأكّدنا من انطباق باب الصالة وراء بوريا.

تحرّك المعلّم أرتين باتجاه الكرسي الذي شغر للتوّ بيني وبين الأستاذ معين وجلس عليه. بدا، الآن بعد أن أخذ مكان بوريا، كما لو أنه استعاد أخيراً شيئاً من شعوره بنفسه كمالكٍ حقيقي للكباريه.

غير أن إحساساً بالمرارة، وربما الألم، كان ظـــاهراً علـــى ملامحـــه السميكة المغضّنة الحمراء- كأنه كان يتحسّر على المعلّم أرتين الذي كانه بالأمس، ذلك الذي مضى ولن يعود ما دام عصام لم يعد على قيد الحياة.

- لن يتدخّل بوريا!

استنتج الأستاذ معين متفكّراً ثم نهض من على كرسيّه، فنهضنا أنا وأبو علي سليمان وفيكتور إيفانيتش.

- علينا أن نسرع بتشييع عصام.. قبل طلوع الشمس.

تابع الأستاذ معين، وقد تغضّنت ملامح وجهـــه، كأنمـــا مـــن خواطر ثقيلة خامرتنا جميعاً.

- نشيّعه الآن.

قال رجل لا أعرف اسمه.

- الآن.

كرّر آخر.

ثم اتجهنا جميعاً باتجاه باب الخروج تاركين وراءنا المعلم أرتـــين جالساً وحده إلى الطاولة.

الطائرات

I

في طريق عودتنا إلى حديقة الحيوانات لم نتبادل كلمة واحدة. كان كلّ منّا يغوص، إلى جوار الآخر، في تداعياته الخاصة. تمنّيت لو أن صالح لم يرسل جثة عصام إلى الحي الروسي. ثم شعرت بالخجل من أمنيتي فقد كنت أعنيها فعلاً بكلّ قواي. لو كان صالح دَفَنَ عصـــام في الغوطـــة، بصورة لائقة قدر الإمكان، لكان، ربما، جنّب الناس في الحي الروســـي الوقوع في فخّ مواجهة خامدة قديمة تفادوا نبشها طوال الحرب بصعوبة كبيرة، وها قد أصبحت في هذه الليلة ممكنة في أيّ لحظـــة- مواجهـــة مخاوفهم ووساوسهم المزمنة بكل ما يتعلّق ببوريا وأجهزة العاصمة وبقاء الحيّ الروسي على قيد الحياة. لا أعتقد أن صالح، مهما طال غيابه عنّا في الغوطة، قد قصد، من إرسال جثة عصام، توريطَنا بهذه المجازفة الكـــبيرة. لا، لا يمكن أن يفعلها. إنني أعرفه جيداً. كانت، وما تزال، تربطني بـــه علاقة صداقة متينة. لقد درسنا معاً في روسيا، وعملنا معاً في موســـكو قبل ما يقرب من عشرين عاماً. لا بدّ أنه فعل ذلك تقديراً لعصام ومحبّـــةً له، فقد عاش هنا بيننا فترة طويلة قبل غيابه المفاجئ منذ سنوات، ويعرف تماماً ماذا يعني عصام بالنسبة إلى الناس في الحي الروسي.

انطلق فجأةً رجلٌ، من الذين كانوا يرافقوننا، وجـــرى أمامنـــا يسبقنا، لا بدّ، بأخبارنا الجديدة إلى حديقة الحيوانات. وكنـــت، في

هذه الأثناء، أسرع بِدَوري ما أمكنني، كأنما بقدمَيْ رجلٍ غيري، مثل محكومٍ بسرعةٍ لم أكن أتمّناها في واقع الأمر، غير أنني كنت مدفوعاً إليها دفعاً مع المسرعين من حولي تلقائياً إلى الحديقة. كأن أحداً منهم، لسببٍ غريبٍ من الأسباب، ما كان ينبغي له أن يكون معنياً أكثر منّي بتشييع عصام برغم كل شيء. ولعلّي آنستُ، وأنا أغذّ خطاي، ما يشبه الطمأنينة الوحيدة، والأخيرة، في فكرة الأستاذ معين بتشييع عصام قبل طلوع الشمس. كأننا بذلك سوف نتنازل، من تلقاء أنفسنا، عن تشييعه في وضح النهار من باب حسن النيّة والمبادرة بحلّ وسط قد يرضي الجميع. لن تتسبب جنازة عصام، في كل الأحوال، بأيّ ضجيج. لن تُقطع من أجلها الشوارع ولن يكون هنالك أيّ اختناقٍ للسير في هذه الساعة المتأخرة من ليلةٍ استثنائيةٍ بهدوئها في الحي الروسي. فكّرتُ. ثم انتبهتُ إلى أن الأنوار مطفأة في كلّ شبابيك وبيبان وأعمدة الأزقّة التي كنّا نسلكها، وتمنّيت لو أن الكهرباء مقطوعة في كلّ شوارع الحي الروسي وزواريبه. سيعزز الظلامُ الدامس الشاملُ الحلَّ الوسط الذي اقترحه الأستاذ معين. سيبدو الأمر بعد قليل كما لو أننا نختلس تشييع عصام اختلاساً، تحت جناح الليل. وبذلك سوف نلطّف على الأقل من الحساسيّة المحتملة جداً لدى الأطراف الأخرى المتحفّزة، ربما منذ وقت طويل، للانقضاض على أيّ هفوة من طرفنا. ثم إن عصام ليس شهيداً، على طريقة قتلى الجبهات المختلفة، لكي يلعلع رصاص الرشاشات في وداعه على طول الطريق إلى المقبرة. كما لن ترتفع وراء نعشه أيّ شعارات أو تلاوات أو أهازيج لا نحفظها ولا احتجنا إليها في يوم من الأيام. ثم قدّرت، وأنا أُطَمْئن نفسي بصعوبة، أن ما سوف نقوم

به على الأغلب لن يتعدّى تشييع عصام بمهابةٍ وحذرٍ شديدٍ وصمتٍ مطبقٍ وخوفٍ أكيدٍ من طلوع الشمس لا أكثر.

حين ظهرنا في شارع الحديقة أخيراً كانت الكهرباء مقطوعة فعلاً كما تمنيت. وكانت الغالبية العظمى من المحال مغلقة في الشارع، فلم أسمع دويّ مولّدات الكهرباء. كأن الناس قد توافقوا الآن بالفطرة على ضرورة الحيطة والصمت والظلام ريثما ننتهي من تشييع عصام. غير أن طبولاً بعيدة سرعان ما بدأت تنغّص عليّ الظلام الأبكم الكتيم الذي يطمر الحي الروسي- كانت تعزف مارشاً عسكرياً متقطّعاً وغير مُتقن، وأحياناً ينفرد، للحظاتٍ، طبلٌ وحيد يشقّ العتمة بقرع حادّ متطاول سريع. ومع تقدّمنا بين أشباح الناس، المحتشدين قبل مسافة طويلة جداً من الحديقة، أصبح قرع الطبول يتوضّح أكثر فأكثر. ثم فهمتُ، عندما اقتربنا من البوّابة، أن المارش العسكري المتقطّع إنما ينبعث من هناك.

كانت سيارتان محشورتان بين جموع الناس توجّهان مصابيحهما الأماميّة القويّة باتجاه بوابة الحديقة حيث تتحرك مجموعة أشخاص بهيئة ملائكة بيضاء ذات أجنحة مُثبّتة على كتفَيْ كلٍّ منهم. وكان ثمة فتيان، بلباس موحّد، يقرعون طبولاً معلّقة على خصورهم، فيما يقاطعهم ويوجّههم عبد الجليل حجازي، بصوته الجهوري وحركات رأسه ويديه ورجليه، بحماسةٍ ظاهرة. وقد لفت نظري، وأثار عجبي أيضاً، أنني ميّزتُ على ضوء السيّارتين قسماً كبيراً من الناس كانوا يصيخون السمع إلى توجيهات عبد الجليل حجازي مبهورين، وهم يحملون على أكتافهم، ويمسكون بأيديهم، أطفالاً وحيوانات وطيوراً منزلية وأمتعة في أكياس وحقائب وسلال وأقفاص.

التفت الأستاذ معين فجأةً إلى فيكتور إيفانيتش وسأله، بنبرة الواثق بضرورة سؤاله، عمّا إذا كان قادراً على إسكات الطبول وإطفاء مصابيح السيارتين وإقناع الساعاتي عبد الجليل حجازي بأن يتكلّم بصوتٍ خفيض دون إبطاء. نظر فيكتور إيفانيتش إليّ يستمزج رأيي، وقد لوى سلفاً ملامحَ وجهه المجعّدة وجمّعها حول عينيه مستبعداً كأنما قدرته على القيام بأي شيء من هذا القبيل. وكانت قناعتي لا تقل طبعاً عن قناعة الأستاذ معين بضرورة الصمت المطبق والظلام الدامس للحلّ الوسط الذي قد يُمرّر الجنازة على خير، غير أنني لم أجد فعلاً ما أقوله بهذا الخصوص لفيكتور إيفانيتش. كان إطفاء المصابيح وتسكيت الطبول وتخفيض صوت الممثل عبد الجليل حجازي كانت ستشبكنا بخلافٍ أشدّ صخباً مع كلّ هؤلاء الناس المحتشدين من حولنا. وكان واضحاً أن الأستاذ معين قد انتظر مني أن أُناصر فوراً ما طلبه من فيكتور إيفانيتش، فجعل الآن ينظر إليّ باستغرابٍ شديد. هززتُ له رأسي بصورة مشوّشة لا تشي بشيء. ثم التفتّ أنظر إلى جهة أخرى، إلى عبد الجليل حجازي الذي لمحني في تلك اللحظة وصار يشقّ طريقه إليّ بين الناس.

لم يترك عبد الجليل حجازي بعدئذٍ مجالاً لأحدٍ بالكلام، فما إن وقف أمامي حتى انهمك يشرح لي، دون مقدمات وبالحماسة نفسها التي كان يوجّه بها الناس والطبّالين، كيف ستجري أحداث جنازة عصام كما لو كانت مسرحية استعراضية سيبدأ عرضها بعد قليل. جذب، بصوته المعبّر القويّ الجميل، انتباهَ الناس من حولنا من جديد. وبدا الآن كما لو أنه يصمّم حركات جسمه ويراقب قيامه بها في الوقت نفسه- يدقّقها على وجه السرعة ويشذّبها كأنما من الخمول

والثقل والتردّد قبل أن يؤكّدها لنا ببراعة لافتة- كأنه كان يستعمل رأسه ويديه ورجليه أمامنا لأول مرة بعد تقييدٍ مُضنٍ طويل. وكذا صوته، كان منتشياً به، يصغي إليه ويستمتع بصوغه طليقاً رشيقاً بالكلمات الرنّانة العالية لا ليُظهِر دلالاتها فقط، بل ليستعرض من خلالها الأجراس الحبيسة في روحه قبل كل شيء. لن نتحرك قبل ثلاثين دقيقة، قال، قد لا يكون النعش جاهزاً قبل ذلك، وليس من المستبعد أن نتأخر بضع دقائق أخرى. قد يلزمنا هامش إضافيّ من الوقت من أجل حفّاري القبر على كل حال- لقد انطلقوا من هنا على موتوسيكلَيْن قبل قليل. لكنْ لا داعي للقلق بهذا الخصوص أبداً. سوف نصل حتماً في الوقت المناسب. إن طريق الجنازة إلى المقبرة سوف يأخذ منّا أيضاً وقتاً طويلاً. أما مصابيح السيّارات فسوف نستبدلها بمجموعة مشاعل سوف تصلنا بعد قليل من مستودع المسرح. لم أكن أظن أننا سنحتاجها عندما جلبت من هناك الطبول وملابس الملائكة. بمصابيح السيارات لن نتمكّن من تحقيق إضاءة معبّرة ومدروسة للجنازة. ونيران المشاعل الحيّة، كما تعلم، أكثر قدرةً، من أضواء المصابيح المعدنية، على تشكيل انطباع مأساوي حميمي واحتفاليّ في وقت واحد. فضلاً عن أن هدير محركات السيارات المونوتونيّ سوف يُسمَع حتماً في الإسّات القصيرة، التي يُضطرّ إليها الطبّالون عادةً لضرورات الإيقاع، وسوف يفسد علينا حتماً اندماجَ الناس بأدوارهم كمشيّعين تراجيديين، وكبشرٍ حقيقين من لحم ودم في وقت واحد. سوف تضيء المشاعل جسم الجنازة كلّه قدر الإمكان. لكنّ عددها لن يكون كبيراً جداً لكي لا تخطف الأنظار عن نعش عصام كموضوع أساسي للتشييع. سيتقدم الجنازة

مشعل واحد. والطبالون سيكونون بمنزلة قاطرة قوية للجنازة. أما الملائكة فسوف يتموضع قسم منهم في مقدمة النعش، بينما سيحمل القسمُ الآخر النعشَ ويحيط به من كلّ جانب. سوف تُقرع الطبول وتلتهب النيرانُ على رؤوس المشاعل وفي مشاعر المشيّعين في الوقت نفسه. وسوف يكون ممكناً، في لحظةٍ عظيمةٍ من الجنازة، أن تبدو الملائكة البيضاء، بأجنحتها الخفّاقة، قادرةً على التحليق بنعش عصام في عيون الجميع وفي عقولهم. سيكون مشهداً مذهلاً حقاً تحليقُ نعش عصام، بالملائكة والطبول، خلف مشعل يمضي بهم في أعالي السماء! وعندئذٍ لن يكون مستحيلاً أبداً إتمام المعجزة بأن يحلّق وراءهم مباشرةً حاملو المشاعل والمشيعون والحي الروسي كلّه. سوف تكون معجزة لن تُنسى.. لن تُنسى..

ثم سكت عبد الجليل حجازي من شدة الانفعال.

- من يدري! من يدري! لعلّ تحليق الحيّ الروسي هذه الليلة سيكون أول حدثٍ من الأحداث التي انتظرناها البارحة على سطحك في حديقة الحيوانات.

تابع، وهو يبتعد عنّا، مفتوناً برنين كلماته، باتجاه الملائكة والطبّالين.

لم يكن الناس من حولنا بأقلّ انفعالاً من عبد الجليل حجازي في تلك اللحظات. كان واضحاً أنه قد أصابهم، قبل وصولنا من الكباريه، بعدوى رؤاه الغاوية، فاستعدّوا لاحتمالاتها الموشكة ما أمكنهم على وجه السرعة. كانوا الآن ساهمين، غائبين كأنما في حلم يقظة جماعيّ لذيذ، مُحتَرِسين في وجودٍ هشٍّ بين الحقيقة والخيال، مصدّقين وغير مصدّقين يُدارون إحساساً فاتناً بالخفّة، كأنهم

يوشكون فعلاً على التحليق بالحي الروسي كلّه، بعد قليل، إلى مكانٍ آمنٍ مرتفعٍ جداً في أعماق السماء. كانت عيونهم تلتمع ببريق أملٍ وليدٍ متهافتٍ حلوٍ عنيد. حتى الأستاذ معين بدا إلى جانبي أقلَّ احتياجاً إلى الصمت المطبق والظلام الدامس. كأن الحلّ الوسط الذي كان اقترحه قد خسر الآن شيئاً، ولو ضئيلاً، من مسوّغاته. كان ينظر إليّ الآن بِشيءٍ من الحيرة والريبة. ولعلّي كنت أبدو في عينيه منشدّاً بصورةٍ ما، أنا الآخر، إلى غواية المعجزة التي تخيّلها وأصابنا بها عبد الجليل حجازي. ثم زاد كأنما من إحساسنا بها في تلك اللحظات وصول النجارين بنعش عصام.

وضع النجارون النعش على الأرض أمام عبد الجليل حجازي، فأوعز هذا للملائكة أن يصطفوا أمامه على نسق واحد، ففعلوا في الحال. انتقى من بينهم الأكثر قوّةً وتناسباً بطول القامة، ثم حمّلهم النعش، مشيراً لي من بعيد أن أرافقهم بالدخول إلى الحديقة للمجيء بجثة عصام.

شققت طريقي بين الناس، فتبعني الملائكة المختارون باتجاه بوابة الحديقة.

II

كان الظلام في الداخل يغمر الحديقة بكل ما فيها لولا لهب شمعة صغير كان يتراقص من بعيد في فسحة الزرافة. اقتربتُ من السياج وميّزتُ أن الشمعة مثبّتة في صحن صغير بين رأس عصام ورشيدة. كانت رشيدة تحضن غزال وتجلس على الأرض إلى جانب نونا، وقد تراءت وراءهما قوائم الزرافة.

طلبتُ من الملائكة أن يضعوا النعش على الأرض أمام السياج وأن ينتظروا إشارتي في أماكنهم قبل أن يدخلوا لحمل الجثة.

فتحتُ باب السياج ودخلتُ. شعرتُ بنونا تحدّق بي، وتنتظر، كأنما بصبرٍ نافد، متى ألتفت إليها لتجهش، ربما، إلى صدري بالبكاء. لم ألتفت إليها. لم أستطع. لم يكن عندي ما أعزّيها به، ظننتُ. وجدتُني أنظر إلى رأس عصام. اقتربتُ منه ببطء وحذر ورهبة. كان، تحت ضوء الشمعة، مثل نائمٍ نوماً عميقاً هانئاً، حتى خيل إليّ أنه، إذا شاء، يستطيع أن يفتح عينيه في أيّ لحظة. وكما لم أتوقّع في مثل هذا الموقف ألفيتُ في نفسي ما يشبه نفوراً مباغتاً من الراحة التامّة التي تعبّر عنها ملامح عصام دون توقّف. ثم اعترتني قشعريرة بعد قليل، إذ بدا لي، على نحوٍ لم أكن قادراً على تفسيره أو إثباته، أن عصام كان الآن أقلّ حجماً منه عندما سحبناه من صندوق البيك آب قبل ساعتين. لعلّ إحساسي المتفاقم بمجازفة تشييعه في هذا الوقت قد قلّل كثيراً من حجمه في حواسّي، فكرتُ. لا أذكر أنني رأيته ضئيلاً في عينيّ إلى هذا الحدّ منذ عرفته في أيامي الأولى بالحي الروسي. ثم التفتُّ إلى النعش الملقى على الأرض وراء السياج فبدا،

في نظري، أكبر بما لا يقاس من جثة عصام المستلقية أمامي. النجارون فصّلوا النعش على قياس مشاعرهم نحوه، قلتُ في نفسي، وقد هالني أنني لم أعد، كأنما، قابلاً لأن أشعر، مثلهم، بأيّ أثرٍ لمقاييسه الجديدة التي رأته بها نونا في منامها والتي ظهر بها أمامنا ليلة البارحة.

نظرت إلى الأعلى- لم أتبيّن شيئاً من ملامح الزرافة. كان رأسها غائباً تماماً في الظلام العميق العالي، كأنها لا تريد أن ترى ما يجري هنا على الأرض بالقرب من قوائمها. لا بد أن ما جرى ويجري في هذا اليوم العصيب الطويل كان، وما يزال، عصيّاً على استيعابها؛ إذ من غير المعقول أن يكون ذهاب عصام إلى الغوطة وعودته جثةً إلينا من تلك الأحداث الواعدة التي انتظرناها بالأمس. كما لن يكون مفهوماً لأحدٍ طبعاً أن تكون نونا قد حاكت عصفورها لكي نشارك بأيدينا، بعد قليل، في دفع الحي الروسي إلى أقصر طريق محتملة إلى الجحيم. ما كنا ننتظره، ليلة البارحة، كان حتماً أحداثاً أخرى قصدت إليها الزرافة، وقد بدت للجميع ممكنةً وقريبةً جداً قبل أن يتركنا عصام.

أردت أن أتأكّد مما إذا كانت نونا تلاحظ، هي الأخرى، الخلاف الذي أراه بين حجم عصام الآن وحجمه الذي ذهب به إلى الغوطة. غير أنها كانت ما تزال تحدّق بي وتنتظر بإلحاح متى تقع عيناي في عينيها، فلم أجرؤ على الالتفات إليها. وكان ما يزال يرنّ في بالي، مثل جرس غاوٍ بعيد، تحليقُ الحيّ الروسي، الذي احتمله عبد الجليل حجازي قبل قليلٍ، فوددتُ كثيراً لو أن عصام ظلّ في نظر نونا كما رأته تماماً في منامها، وكما يراه النجارون الذين فصّلوا نعشه ومعهم كلُّ المحتشدين الآن على طول الشارع أمام بوابة

الحديقة وفي كل الأزقّة المحيطة بها. كأن عصام، كما أراه أنا الآن، لن يكون سوى مسخِ رجلٍ ميتٍ لا أهمّية حقيقية له ولا فائدة تُرتَجى من تشييعه، بينما قد يحتاج الحي الروسي في هذه اللحظات إلى تشييع عصام في صورته الخرافية التي ظهر بها بعد منام نونا.

ثم خشيت أن يُفسد عصامُ-المسخُ، الذي أراه، ما يمكن أن يفعله بعد قليل عصامُ الخرافيّ الذي يراه الجميع ويشعرون به من دوني. حاولت أن أتنصّل قدر الإمكان من مشاعري الراهنة نحو عصام، أو أن أكذّبها في نفسي على الأقل. كان لا بدّ، ربما، من تكذيبها على وجه السرعة قبل أن أشير إلى الملائكة أن يحملوا جثة عصام ويخرجوا بها إلى الشارع، فكّرتُ. ثم التفتُّ إلى نونا أستعين أخيراً بها. وحدها نونا كانت، ولا تزال، قادرة على تغيير مشاعري وتلوينها وترتيبها وإعادة صياغتها تجاه أيّ شيء. تقدّمتُ منها، فنهضتْ فوراً من جانب رشيدة. اندفعتْ إليّ واستقرّت بين ذراعيّ، وهي ترتعش كلّها. ضممتها إلى صدري، وأحَطْتُ رأسها براحتَي يديّ، فشرعتْ تبكي بكاء حاراً خافتاً كأنما بسبب سوء مشاعري الجديدة نحو عصام وليس لأيّ سبب آخر- كيف أمكنني يا إلهي أن أشعر بها؟ كيف؟!

- عبد الجليل حجازي يقول إن من المحتمل جداً أن يحلّق الحي الروسي كلّه خلف عصام.

همستُ لها، كما لو أنني أكذب عليها لكي تكفّ عن البكاء لا أكثر، فكفكفت دموعها في الحال. ثم بدا لي أنها قد صدّقت فعلاً ما قاله عبد الجليل حجازي على لساني الآن، فقد رفعتْ رأسها نحوي، ومكّنتْني، برغم النور الشحيح، من تمييز ملامحها المتفكّرة كأنما بخاطرٍ مهمّ مفاجئ.

- انتظروني!

قالت، ثم انسحبتْ من بين ذراعيّ. خرجتْ مسرعةً من باب السياج وغابت في الظلام، وقد ظلّ يتناهى إليّ وقع خطواتها الرشيقة المبتعدة حتى محا أثرها فجأةً دويّ الطبول الذي انفجر خارج الحديقة مُتْقَنا هذه المرّة، كما لو في بروفة جنرال.

كان علينا أن نسرع بإخراج عصام إذاً.

أشرتُ إلى الملائكة أن يدخلوا، فدخلوا.

نهضت رشيدة من مكانها قرب رأس عصام. تراجعتْ إلى الوراء، وهي تضمّ غزال إلى صدرها، حتى لامست بظهرها قائمةَ الزرافة القريبة منها. ثم ما لبثت أن غمرت وجهها بفرو غزال وانخرطت بالنحيب ما إن حمل الملائكة جثة عصام وخرجوا بها من باب السياج.

أومأتُ لرشيدة أن تخرج قبلي من فسحة الزرافة، فخرجتْ وتبعتُها. أغلقت باب السياج، واقتربنا معاً من النعش حيث وضع الملائكة عصام.

رجوتُ الملائكة أن لا يحملوا النعش قبل عودة نونا.

كانت الطبول الهدّارة تستعجلنا بالخروج وتشتّت في الهواء الداكن نحيب رشيدة إلى جانبي. بيد أننا ظللنا واقفين حول النعش حتى ظهرت نونا من قلب الظلام تحمل بين ذراعيها كومة صوفها المشغول.

- هذا غطاء عصام.

قالت بصوتٍ مرتفع سمعتُه من بين الطبول بصعوبة. بدت كأنها عرفت، الآن فقط، الغاية من حياكتها الصوف منذ فترة طويلة.

انحنت فوق النعش وجعلت تفرد، بسرعةٍ ومَحَبّةٍ ورضا، السماءَ الصوفية الزرقاء والغيوم الخضراء والنجوم الذهبية فوق عصام. وكان لهب الشمعة الآن بعيداً عنا، فلم أعرف، في الظلام، فوق أيّ مكان من جسد عصام حطّ عصفور نونا. وددتُ لو أنه حطّ فوق رأسه- قدّرت أنه المكان الأنسب لعصفورٍ جعلنا قبل يومين نشعر من جديد بالخوف والأمل، ويجعلني الآن أستعيد غير القليل من مشاعري القديمة التي كدْتُ أفقدها نحو عصام.

أصبح بوسع الملائكة الآن أن يحملوا النعش، فحملوه. وإذ استقرّ على أكتافهم بدؤوا يتقدّمون به بخطوات بطيئة باتجاه بوابة الحديقة، فيما كنا نتبعهم أنا ونونا ورشيدة وغزال.

III

عندما ظهرنا من بوابة الحديقة توقف فجأة دويّ الطبول وتعالت من بين المحتشدين همهمة جماعية حارّة قويّة. ثم سرعان ما استأنف الطبّالون عزفهم بإيقاع مارش مختلف مهيب. وكان عدد كبير من حملة المشاعل المضرمة يتوزعون الآن بشكل عشوائي بين المحتشدين، فيما وقف أحدهم أمام الطبّالين المصطفّين في ثلاثة أرتال. وكان صوت عبد الجليل حجازي يلعلع الآن في مكبّر صوت يحمله بيده. وإذ لمح النعش وجّه حَمَلَتَهُ، في الحال، لأن يقفوا وراء زملائهم من الملائكة المتبقّين المتراصفين في رتلين خلف الطّبالين. ثم نبّههم جميعاً أن لا يخفقوا بأجنحتهم إلا بإشارة منه، فالوقت ما يزال مبكّراً جداً لذلك، ما داموا لم يأخذوا مكانهم بعدُ في طليعة الجنازة. وفي كل الأحوال لن يكون هنالك مجالٌ أصلاً لخفق جناح واحد قبل بلوغ السوق الشرقي. بعد ذلك خاطب حَمَلة المشاعل، وشدّد على ألا يختلطوا بالمشيعين أثناء التشييع، بل أن يحاذوهم من الجانبين، وألا يتجمّعوا في مكان واحد، فالمطلوب تسليط الإضاءة على جسم الجنازة كلّه وبشكل منتظم قدر الإمكان. ثم صعد عبد الجليل حجازي، كأنما إلى صندوق أو مصطبة لا أراها، ووجّهَ مكبّر الصوت نحو المحتشدين على طول شارع الحديقة، وطلب منهم أن يفتحوا طريقاً لمرور رأس الجنازة وأن ينضمّوا إلى المشيّعين، جماعةً بعد جماعة، ما إن يتجاوزهم موكب النعش، مع أفضلية المرور دائماً للأسر الكبيرة تبعاً لعدد الأطفال والحوامل والمرضى والمعوّقين على العكاكيز والكراسي المتحرّكة والحيوانات الأهلية المحمولة والأمتعة الثقيلة.

وهنا شعرتُ بيدٍ مرتجفة تقبض على ذراعي فجأةً. التفتّ، فطالعني وجه الأستاذ معين. كان مشوشاً، زائغ النظرات، يوصوص عينيه بين لحظة وأخرى كأنما من شدّة الضجيج الفضّاح الذي خرج عن السيطرة. بدا كما لو أنّه قد ضيّعني مدةً طويلةً ووجدني الآن، فشدّد قبضته على ذراعي، كأنه لا يريد أن يفقدني مرة أخرى في الفظاعة التي يشعر بها من حوله. كان واضحاً أنه أصبح يائساً تماماً من أيّ حلٍّ لدربكة الطبول ونيران المشاعل ولعلعة عبد الجليل حجازي، فلم يعد ثمة معنى أو محلّ لأيّ مبادرة عاقلة. غير أنه لم يكن، كأنما، يرغب بمغادرة الجنازة برغم كل شيء. كأن الوقت ما عاد يتّسع لمصيره الخاص بوصفه الأستاذ معين أمين مكتبة المركز الثقافي في الحي الروسي، ولا مفرّ له الآن من الذهاب، مع كلّ هؤلاء الذاهبين المتشاهين المتشنّجين من حوله، لمواجهة مصير جماعيّ غاشم وموشك الحدوث على الأغلب.

وكان الناس قد بدؤوا يشقّون طريقاً للنعش بين أجسادهم المتراصة على طول شارع الحديقة، فنزل عبد الجليل حجازي من مكانه العالي، وتقدّم إلى أول الممرّ الضيّق المفتوح بصعوبة أمام انطلاق الجنازة الجاهزة. أشار في البداية إلى حامل المشعل الأول أن يتحرك إلى الأمام. ثم أتبعه بالطبّالين والملائكة وحملة النعش وأربعة من حملة المشاعل. بعد ذلك أشار إلى رشيدة وغزال ونونا ولي والأستاذ معين وأبو علي سليمان وزوجتيه وأولاده الصغار وفيكتور إيفانيتش ورئيسة بتروفنا وموستاش، أن نكون أول الماشين خلف الملائكة مباشرة. ثم ظلّ صوته الآمر الرنان يدوّي وراءنا في مكبّر الصوت، وهو يرتّب حشود الناس في جسم الجنازة.

وكنت أمسكتُ بكفّ نونا بقوة، وكان الأستاذ معين ما يزال يقبض على ذراع يدي الأخرى، ونحن نتقدّم خلف النعش بين الناس المرصوصين على جانبي الشارع- كانت غالبيتهم من الكهول والشيوخ والأطفال والنساء، ومن سلالات مختلفة من الكلاب والأرانب والقطط المنزلية، المستفهمة بعيونها طوال الوقت، والطيورِ المضطربة في أقفاصها المحمولة على الأكتاف، والأقدادِ الحذرة التي تمدّ رؤوسها الصغيرة نحونا من بين راحات الأولاد ومن ياقاتهم وأكمامهم وجيوب جدّاتهم. وكان يحدث أحياناً أن نصادف بينهم شباباً، لم نرهم منذ مدة طويلة، من الفارّين من خدمة العلم الذين غامروا بالخروج من مخابئهم الأمينة للمرة الأولى ليشاركوا بالجنازة، وقد تنكّر بعضهم بثياب نسائية أو بلحى شيوخ مستعارة أو بهيئات مجانين ميئوس منهم، بينما خرج آخرون كما هم، كما فعل أولاد أبو علي سليمان الثلاثة الكبار مثلاً، كأنهم لن يأبهوا، بعد الآن، بدوريات وحواجز الأمن والشرطة العسكرية، أو أن الوقت قد حان أخيراً لأن يتمردوا، في هذه الليلة بالذات، على ذلّ تخفّيهم الطويل في الأقبية والسقائف والمغائر. وكانوا، رجالاً ونساءً وأولاداً وطيوراً وحيوانات، ينظرون إلينا كما لو كنّا محظوظين بمشينا وراء النعش مباشرةً- كأننا في رحلةٍ عزيزة طال انتظارها، وسوف نصل قبلهم حتماً إلى محطّة منشودة أخيرة، وقد لا نُبقي لهم من الأمكنة ما يناسبهم تماماً عندما سيصلون بعدنا إلى هناك. لكنهم، مع ذلك، بدوا قانعين بنصيبهم ما داموا في نهاية الأمر سيذهبون، هم أيضاً، مع الذاهبين مهما تأخّر ترتيبهم بالالتحاق بالجنازة. وكان ظاهراً حرصُهم على تنفيذ أوامر عبد الجليل حجازي ورضاهم عنها، فهو،

كما يبدو الآن في نظرهم، قائد الجنازة الوحيد والعارفُ، لا بدّ، بكيف ستمضي بالضبط وإلى أين ومن أين. وهو إلى ذلك، كما يدلّ كلّ شيء من حولهم، نزيهٌ وعادلٌ بتسيير الجنازة دون تمييز بين المشيّعين. وإذا كان يُقدّم مشيّعاً على آخر، أو جماعة على أخرى، فلأسباب لا ينبغي له، ربما، أن يُطلعهم عليها، وقد يُشكّل استفسارُهم عنها عبئاً ثقيلاً على نجاح الجنازة القائمة، فلا داعي لتشتيته بالمطالب الصغيرة النافلة من هنا وهناك.

وعلى ضوء المشاعل التي ترافقنا بدت الأزقّة، المنحدرة من الجانبين إلى شارع الحديقة، متروسةً، هي الأخرى، بالناس المنتظرين، بجَلَدٍ وتسليم، مرورَ النعش ليشغلوا، هم أيضاً، المحلاّت التي سيخصّصها لهم عبد الجليل حجازي في جسم الجنازة الطويل.

ومع وصولنا إلى مفرق شارع الملاهي، المُتلألئ وحده بالأضواء، تناهى إلينا ضجيج المولّدات الكهربائية ورائحة دخانها الكثيف. وقد كان مفهوماً، وغاوياً للجميع، فراغُ الشارع البهيج من الناس والسيّارات في مثل هذا الوقت من الليل، فتابعنا، تلقائياً، طريقنا المزدحم في شارع الحديقة. غير أن صوت عبد الجليل حجازي، ما إن تجاوز النعش شارع الملاهي ببضع خطوات، سرعان ما دوّى وراءنا فجأةً في مكبّر الصوت طالباً من الجميع أن يتوقّفوا في أماكنهم، فتوقفنا. ظهر عبد الجليل حجازي بعد قليل في مقدمة الجنازة مثل قائد مسكون بالحكمة والحماسة والسحر، وجعل يتملّى، متحسّباً، بالنعش والملائكة بضع لحظات. ثم ما لبث أن أومأ للطبّالين أن يكفّوا عن تطبيلهم، فخيّم فوق الجميع صمت وحيرة وتوجس. وكان واضحاً أن عبد الجليل حجازي يوشك الآن على اتخاذ قرار لم

يحسب حسابه في مخططه الأوليّ عن الجنازة. نظـر إليّ، لِلَحظـةٍ، ثم رأى فوراً، كما بدا لي، أن لا يُشركني بما يدور في رأسـه، فحـوّل عينيه عنّي. غير أن نواياه أصبحت مفهومةً على الأغلب للجميع حين مشى بضع خطوات، بعكس اتجاه الجنازة، ووقف متفكّراً عند مفرق شارع الملاهي.

تقع المقبرة في نهاية السوق الشرقي. وشارع الملاهي يتقاطع معه في نقطة قريبة من بناياته الأخيرة حين يتحوّل، بعد مسـافة قصـيرة فقط، إلى طريق معبّد وحيد يمتدّ بين أشجار توت معمّرة على جانبيه باتجاه المقبرة. وإذا كانت الجنازة الآن ستكمل طريقها إلى هناك عبْر شارع حديقة الحيوانات، كما فكّر الناس واتجهوا تلقائياً قبل قليـل بحكم العادة في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، فسوف يضـطرون بعدئذٍ إلى بلوغ نهاية السوق الشرقي عبْر متاهة من الأزقة الملتوية التي ستُطيل طريق الجنازة حتى الصباح وتُفْقِدُها، في ذهن عبـد الجليـل حجازي بالدرجة الأولى، إيقاعها المطلوب والكـثير مـن أهـدافها الجذّابة المحتملة. فضلاً عن تحوّلها في ضيق الأزقّة وتعرّجاتها إلى محنـةٍ خانقة لا تُطاق لكل هؤلاء الناس بشيوخهم ونسـائهم وأطفـالهم ومعوّقيهم وحيواناتهم وطيورهم وحقائبهم وصـناديقهم وسـلالهم وبيدوناتهم وأقفاصهم وأكياسهم. وكان من البديهيّ طبعـاً أن تمـرّ الجنازة في شارع الملاهي، كأقصر وأرحب وأيسر طريق ممكـن إلى المقبرة، إلا أن ذلك قد يفضي الآن، كما يعلم الجميع، إلى سـقوط عدد كبير جداً من الضحايا بين المشيّعين. فبين الواحدة بعد منتصف الليل والرابعة صباحاً تتساقط غالباً قذائف الهاون فوق هذا الشـارع بالذّات، كما سبق وأشرت. والساعة الآن قد تجاوزت الثانيـة، ولا

أحد يضمن أن يكفّ جيراننا في الغوطة، في هذه الليلة على الأقل، عن إزهاق الباطل الذي يتصوّرونه في شارع ملاهينا، فلا يُمطروننا بقذائفهم ريثما تعبره جنازتنا الطويلة بسلام.

أخيراً رفع عبد الجليل حجازي مكبّر الصوت بيده، وأصدر أمراً حازماً للجنازة أن تتراجع بضع خطوات إلى الوراء. صدع الناس كلّهم لأمره في الحال؛ ما سبّب اضطراباً ملحوظاً ومشقّةً إضافيةً غير متوقعة لحشود المشيّعين، خاصة عند مفارق الأزّقة حيث ظلّ الناس يتدفقون من أعماقها بينما كانت الجنازة تمشي إلى الوراء في الشارع. ثم ما لبث عبد الجليل حجازي أن توجه إلى رأس الجنازة وطلب من الجميع، بالحزم نفسه، أن ينعطفوا الآن في شارع الملاهي ويتابعوا طريقهم إلى المقبرة.

تلبّث الطبالون وحملة النعش في أماكنهم بضع لحظات. لم يُفاجَؤوا، كأنما، بالأمر الرهيب الذي سمعوه الآن بقدر ما أرادوا، ربما، أن يتأكّدوا منه لا أكثر. كانت رؤوس المشيّعين كلّها قد اتجهت الآن نحو عبد الجليل حجازي- لم يكن على الوجوه أيّ أثرٌ ظاهرٍ للخوف أو التردد. وباستثناء الأستاذ معين لم تَشِ ملامحُ أحدٍ، من الذين كان بوسعي أن أراهم من مكاني على الأقل، بـذرّة شكّ بصواب القرار الذي اتخذه عبد الجليل حجازي. كانوا، كأنما، محكومين، ومؤمنين، بمغامرةٍ كان عليهم في هذه المرحلة من الجنازة أن يخوضوها، من كلّ بدّ، مثل مَطْهَرٍ أو صراط.

- سوف نقطع شارع الملاهي بأقصى سرعةٍ ممكنة.

تابع عبد الجليل حجازي كلامه مخاطباً الناس في مكبّر الصوت، بنبرته السابقة نفسها، كما لو أنه لا يدفعهم إلى حتوفهم المحتملة الآن في أيّ لحظة.

اندفع حامل المشعل الأول إلى الأمام، ثم تبعه في الحال الطبّالون والملائكة والنعش وحملة المشاعل وحشود المشيعين يهرولون كلّهـــم، مُنشَدّين بعضهم إلى بعض، في عرض شارع الملاهي.

تعالت آلافُ الأقدام تُدَبْدِبُ في هديرٍ فوضويّ مُتَعاظمٍ سرعان ما أثار سحابةً هائلةً من الغبار فوق المشيّعين، وغطّى على ضـــجيج المولّدات الكهربائية أمام الكباريهات والبارات والكافيتريات والمطاعم والمسارح والسينما ومقاهي القمار ودكـــاكين الخمـــور والمـــوالح والصندويش. ومع تقدّم الناس في الشارع وتنامي إحساسهم بالخطر الذي يقتحمونه الآن ما لبثت فوضى دبدبة أقدامهم العارمة أن بدأت تتنظّم، لحظةً بعد لحظةٍ، حتى توحّدت في خبطةٍ هائلةٍ منتظمةٍ واحدةٍ تدقّ إسفلت الشارع، فتهتزّ لها الأرض تحت الحي الروسي كلّه..

دَبْ..

دَبْ..

ثم ما لبثت الطبول أن انضمّت، دونما إيعازٍ مسموعٍ من عبد الجليل حجازي، إلى الإيقاع القويّ البسيط السريع الموحّد لآلاف الأقدام..

بَمْ..

بَمْ..

وكان يذهلني، في هذه الأثناء، أنني كنت أدقّ قدمي بـــالأرض بكل قواي تماماً كما يدقّون كأنني لا أشعر بيأس الأستاذ معـــين إلى جانبـــي ولا سبق لي أن توجّستُ لحظةً واحدةً من قيام الجنـــازة. لم أكن عندئذٍ أفكّر في الجنازة في واقع الأمـــر، فقـــد كنـــت مفتونـــاً بشعوري الغامر بأن الحيّ الروسي يستردّ الآن ســـاعات الـــذروة في شارع ملاهيه، لأول مرة منذ سنوات، بكلّ كباريهاتـــه ومقاهيـــه

وباراته ومطاعمه وبيوت بغائه وصالات قماره ومسارحه وسينماته، مع كلّ صانعي وصانعات سعادات الناس الليلية من أجمل عاهراتنا وأمهر راقصاتنا وموسيقيينا ومطربينا ومطرباتنا وممثلينا وممثلاتنا ومهرّجينا ومهرّجاتنا وأبرع مؤلفي الموائد من طبّاخينا ولحّامينا وشوّائينا ونادلينا ونادلاتنا..

دَبْ..

دَبْ..

كأن الناس من حولي كانوا الآن يتعمّدون، بكل طاقتهم، أن يوصلوا الصدى الهائل الأجش المغبرّ العالي لخبطة أقدامهم المتّحدة على إسفلت شارع الملاهي إلى كلّ المرابطين الورعين وراء مدافع الهاون في الغوطة، وإلى كلّ المُناوبين في مكاتب وفروع وثكنات المعنيين بتحسّس الأخطار البعيدة، المحتملة في كلّ لحظة، على أمنهم في العاصمة القديمة..

دَبْ..

دَبْ..

ومع كلّ خبطةٍ رهيبةٍ تقفز بهم إلى الأمام كانوا، كأنما، يُفاجَؤون من جسارةٍ ما ظنّوا يوماً أنهم يمتلكونها، فيسارعون إلى التحقّق منها فوراً بخبطةٍ أقوى جديدة. وخيل إلي أنهم، في أثناء ذلك، ما كانوا يشعرون بعبء ما يحرصون عليه، بين أيديهم وفوق أكتافهم، من صغار الأولاد والحيوانات والطيور والمعوّقين والأمتعة. كانت أجسادهم تعبّر عن إحساسها الطازج الفتّان بالطلاقة والدقّة كأنها ترقص في الهواء بكلّ أحمالها، وهي تغالب الخطر الجسيم الممكن الكامن في كلّ خطوة..

دَبْ..

دَبْ..

وكما لو أنّهم ما عادوا قادرين على لجم طلاقة أجسادهم، حين انعطفت الجنازة الرشيقة أخيراً في السوق الشرقي، أو أن مآلاً آخر للجنازة كان ينبغي أن يلاقوه الآن، فلم يتوقفوا عن القفز في الهواء ولا كفّت أقدامهم المتّحدة عن دكّ الأرض بإيقاعها المتواتر الجسور. وقد عزّز انقيادَهم الأعمى لأجسادهم الطليقة أن عبد الجليل حجازي لم يوعز لهم بعكس ذلك، كأنهم حزروا خياله العاصف في تلك اللحظات، فقد بدا مثل قبطان يخوض مغامرة حياته الأخيرة. وكان قد أوعز للملائكة جميعاً أن يباشروا بخفق أجنحتهم على طولها بكلّ ما في وسعهم من القوة والسرعة، فامتثلوا لما يضطرم في روحه في الحال. غير أنه ظلّ، دون توقّف، يحضّهم على خفقها أعلى فأعلى فأعلى، فيما ضاعف الطبّالون من دويّهم على الإيقاع السريع الموحّد لآلاف الأقدام. وكانت أنوار شارع الملاهي قد اختفت وراءهم تماماً، فجعلت نيران المشاعل تمزّق الآن الظلام السميك فوق رؤوسهم، وترمي حشوداً من الظلال الطويلة الراقصة على الجدران وشرفات الأبنية الأخيرة على جانبَي السوق الشرقي وأمام النعش على الطريق المتقدّمة باتجاه المقبرة.

- سنطير!

سمعتُ هتاف نونّا العالي إلى جانبي بصعوبة، وكان جسدها يفرّ إلى الأعلى، متحرّراً كأنما من كلّ وزنه، بين كلّ دقّةِ قدمٍ على الأرض ودقّة، تماماً كما كنت أفعل ويفعلون أمامي وورائي. وفي غمرة ذهولي بما يجري من حولي خيّل إلي أن الجنازة ستُقلع حقاً إلى

السماء، الآن الآن، لولا دويّ معدنيّ رهيب مفاجئ بدأ يتعالى ويطغى على كلّ شيء. تَخافَتَ قرع الطبول وخبط الأقدام وخفق الأجنحة حتى اضمحلّت تماماً خلال ثوان معدودة، ونُكّست المشاعل إلى الأرض حتى انطفأت، فابتلع الجنازةَ ظلامٌ ثخين رهيب، بينما انفجر عبد الجليل حجازي في مكبّر صوته بنوبة بكاء هيستيريّ جارح.

كانت الطائرات تحلّق في سماء الحي الروسي.

ودون أن نحدّ أبصارنا إليها من بعيد عرفنا، من خبرتنا الطويلة بهدير الطائرات المختلفة، أنها طائرات هليكوبتر. تلك التي طالما شاهدناها تُسقط البراميل، في تلفزيوناتنا وبالعين المجرّدة، فوق البلدات البعيدة وفوق جيراننا في الغوطة. ومع اقتراب هديرها من المقبرة بدت السماء الصاخبة المتجهّمة السوداء، من شدّة رعبنا، قريبةً جداً من رؤوسنا، فجعلنا نحملق بها وقد التمَمْنا بالغريزة أكثر فأكثر بعضنا إلى بعض. وبخطى بطيئة قصيرة حذرة، كأنما على رؤوس أصابعنا، صرنا نتابع سيرنا المضني، كأننا نفرّ بقوى خائرةٍ متعثرةٍ إلى الأمام من برميلٍ يوشك أن يسقط علينا بين لحظة وأخرى. مسبوعين مهدودين مذنبين ظللنا نمضي فوق طريق معبّد لا نراه، بل نتوقعه ممتداً أمامنا في الظلام الدامس بين أشجار توت معمّرة على اليمين وعلى اليسار. غير أن الطائرات ما لبثت أن بهرتْ عيوننا المشدودة إلى الأعلى، إذ سلّطت علينا فجأةً كشّافات قوية صارت تروح وتجيء فوق الجنازة كلها، كما لو أنها تتفحصنا فرداً فرداً للمرة الأخيرة قبل أن تتخلّص من وجودنا. كأنهم يصوّروننا، فكّرتُ. لم نستطع، مع ذلك، تنكيس رؤوسنا إلى الأرض، فقد ظلّ جميعنا يحملق في السماء ويتحسّب متى

تسقط البراميل وأين، بينما كانت وجوهنا كلّها تقع في كــاميراهم المحتملة طوال الوقت. وعلى ضوء الكشافات ما لبثنــا أن انعطفنــا نتقدم، بالخطى المذعورة القصيرة نفسها، باتجاه رجالٍ داخل المقــبرة عرفْنا أنهم حفّارو قبر عصام.

لم تتوقف الكشّافات عن التمعّن بنا حين أنزل الملائكة الــنعش على الأرض، ولا كففنا عن التمعّن بها. ثم كان من المستحيل انتظار وصول المشيعين كلّهم للشروع بدفن الجثة، فقد بــدأت الطــائرات تقترب كثيراً من رؤوسنا، فنكّسناها أخيراً، وجعلت مراوحها تبعث من حولنا زوبعة غبار شديدة تطايرت معها أمتعة وجــراء وقطــط وأرانب وخنانيص وأقفاص طيور. وحده عبد الجليل حجازي ظــلّ يحملق في الطائرات، وهو يصوّب نحوها مكبّر صوته، ويواصل عويله الهستيريّ فيه. وكان حفّارو القبر قد انكبّوا فوق الميّــت ليثبّتــوه في نعشه. ثم التقطه أحدهم وعَكَمَه وحده بين ذراعيه. وإذ نهض به صار غطاؤه الصوفيّ الملوّن الهائل يرفرف تحــت الكشّــافات في زوبعــة المراوح. غير أن الرجل لم يفلته لدوّامة الهواء القــويّ؛ إذ تمكّــن في اللحظة الأخيرة من تسليمه لرجل آخر واقف في فتحة القبر حيــث كان يضطرم عالياً غبارٌ كثيف. وضع الرجلُ الجثة في قــاع القــبر وخرج بلمحة بصر، فسارع الحفارون الآخرون بسدّ الفتحة وهيــل كثير من التراب المتناثر والحصى والأحجار حتى ارتفع ما يشبه القــبر بصعوبة.

كان المشيّعون، بعد دفن الجثة، ما يزالون يتقاطرون إلى المقــبرة وينضمّون إلى الحشد المتعاظم بين القبور. لم يعد الآن للجنــازة رأس يمضون خلفه، فجمدوا جميعاً في أماكنــهم مستســلمين، كأنمــا،

للطائرات وكشّافاتها وكاميراتها الممكنة، ومتمسّكين، ما أمكنــهم، بصغار أطفالهم وحيواناتهم وأمتعتهم في زوبعة المراوح الــتي لا تــني تتنقّل فوق رؤوسهم. غير أن الوجوه المغبرّة، التي كنت أميّزهــا الآن تحت الكشّافات من وقت لآخر، لم تعد مجرّد وجوه مرعوبة. ربما لأن الطائرات، على غير عادتها في الغوطة وفي تلفزيوناتنــا، لم تُســقط فوقهم حتى الآن برميلاً واحداً، أو لأنهم كانوا على يقينٍ من أنهــم لم يخرجوا من بيوتهم، مع كل أطفالهم وحيواناتهم ومــا خــفّ مــن أمتعتهم، لكي يعودوا إليها الآن. كأن الجنازة التي خرجوا بهــا لــن تنتهي اليوم بدفن القتيل. كان لا بد، كأنما، من نهاية أخرى ستحدث ربما بعد قليل، فلبثوا في أماكنهم ينتظرونها تحت الطائرات. ثم مضــى وقتٌ بطيء عسير بدا، بالنسبة إليّ، طويلاً جداً قبل أن يدوّي انفجار هائل ويشبّ لهبٌ عملاق أمام عيونهم في مكانٍ ما من الحيّ الروسي. ارتفعت الطائرات عندئذٍ حتى اضمحلت في أعالي الســماء، فيمــا كانت خيوط الصباح الأولى قد بدأت تشتّت، ببطء شديد، شيئاً غير محسوس بعد من العتمة الدامسة فوق الجميع، وقد بدؤوا يتــدفّقون الآن، مثل مُنوّمين، إلى الطريق المعبّد العائد، بــين أشــجار التــوت العتيقة، باتجاه الحريق.

الزرافة

I

كانت الزرافة، كما لم أرها قط، تقف في وسط الشارع بين سيارتَيْ إطفاء. إلى جوار قائمتيها الأماميّتين كان ذئبا الحديقة الطاعنان بالسنّ يتماسكان بصعوبة. كانت السيارة المفخّخة قد رُكنت أمام بوابة الحديقة قبل أن تنفجر بعدة دقائق. لم يبقَ من البوابة الآن سوى قضبان حديدية ملتوية ومتناثرة هنا وهناك بين أحجار السور المُهدّم وشجيراته المتفحّمة المبللة بخراطيم الإطفائيين. لم يُصَب أحد في الحديقة باستثناء غزالة، بنت سنتين، كان الطبيب البيطري بشير غندورة قد انتهى من تضميد إحدى قائمتيها الخلفيتين قبل وصولنا. لقد تكفّلتْ بحماية الحيوانات من أذى الانفجار المسافةُ الطويلةُ التي تُفضي إلى قلب الحديقة عبْر الممرّ المشجّر المُطفأ الأسود المبلّل الآن. غير أن ضغط الانفجار القويّ قد خلخل بعض الأسيجة والأقفاص، فطارت ثلاثة عقبان، كان أحدها الآن يتراءى، بصعوبة، على رأس مدخنة تُطلّ على الحديقة، ووجد الذئبان العجوزان نفسيهما في الشارع من شدّة الذعر. أما الزرافة فكان بوسعها أن تخرج من باب سياجها المخلوع عبر أنقاض مكتب فيكتور إيفانيتش في آخر الممر المشجر، أو عبر مستودع الحديقة الذي سُوّي بالأرض مع سطحنا وغرفتنا أنا ونونا. وقد لحق ضرر واضح أيضاً بالأبنية

المقابلة على الطرف الآخر من الشارع، غير أن مشـــاركة القســـم الأكبر من قاطنيها بالجنازة قد قلّلت كثيراً من عدد الضحايا- كانت سيارة إسعاف، كما أكّد لنا البيطريّ بشير غندورة، قد نقلت ثلاثة مصابين إلى المشفى بعد الانفجار بوقت قصير.

كان الإطفائيون ينهون عملهم، يسحبون خراطيمهم وسلالمهم ويغادرون، عندما بدأ الناس العائدون من المقـــبرة يصـــلون تباعـــاً ويحتشدون أمام الحديقة من جديد مغبّرين مذهولين مع ظلمة الليـــل الأخيرة المشتّتة في الصباح الباكر هذه المرة. كنتُ واقفاً معهم، تمامـــاً كما يقفون، مغبّراً ومذهولاً. لم يكن في ذهني وضوحٌ كافٍ لأعرف ماذا أفعل وإلى أين أذهب. دائماً ظننتُ أنني ما عشـــتُ في مكـــانٍ مناسب لي أكثر من مكاني في حديقة الحيوانات بـــالحي الروســـي. ولعلّي لم أفكّر يوماً بهجره إلى أيّ مكان آخـــر. غـــير أنـــني الآن لم أقترب، ولا اقتربتْ نونا، من سطحنا المُهبّط وغرفتنا المُكوّمة علـــى الأرض لنطمئن على شيءٍ يمكن أن يخصّنا بين الأنقاض. ظللنا ننظـــر إلى هناك من بعيد كما ننظر إلى أشياء عزيزة مدمّرة أصبحت فجـــأةً تنتمي إلى ماضٍ ربما لن يعود. لم يعد كأنما ممكناً، بعد كـــل الـــذي حدث حتى الآن، أن نجد أياماً جديـــدة نعيشـــها معـــاً في حديقـــة الحيوانات. ثم إن شيئاً ما مُلحّاً كان يشدّنا الآن للبقـــاء إلى جانـــب الزرافة في وسط الشارع. كان فيكتور إيفانيتش قد انفصل عنا فـــور وصولنا، اتجه إلى الذئبين العجوزين الأعجفين المتراعشين بين قـــوائم الزرافة، وقادهما مثل حملين مرتعدين باتجاه الحديقة. عَبَرَ بهما الأنقاض وغاب في الدخان الأزرق الذي كان ما يـــزال يتصـــاعد في الممـــر "المشجرّ" الأسود الطويل، ثم ما لبث أن عاد بعد دقـــائق. وكـــان

مفهوماً، من ملامح وجهه، أنه لن يترك، هو الآخر، أجمل وأضخم مخلوقات حديقته تغيب عن ملاحظته في يوم عصيب. وفي حقيقة الأمر كان وقوف الزرافة في وسط الشارع لافتاً ومحيّراً وباعثاً لا يُقاوم للتأمّل والترقّب والرهبة والفضول لدى الجميع. كانت أشبه ما تكون بشعلةِ نارٍ هائلة ما تزال تضطرم وحدها بين الأشجار المتفحّمة ورماد الأحجار والناس المغبرّين المتجمهرين حولها في وسط الشارع. وقد عزّز هذا الإحساس عندي أن أحداً منّا، نحن أهلها في حديقة الحيوانات، لم يعد، كأنما، يملك أيّ سلطةٍ عليها. كأنها كانت الآن تفرض سلطتها المباشرة على الجميع. ومع عجز الناس الواضح عن المبادرة إلى شيء محدّد في الدقائق القادمة بدوا كالمُنقادين تماماً لمشيئتها. وقد كان مفهوماً طبعاً في هذه اللحظات أن تخامرهم جميعاً مخاوف جدّية من أن سوء التفاهم، الذي أصبح الآن بحكم الواقع بين الحي الروسي وبين العاصمة، سوف تترتب عليه على الأغلب عواقب أخرى أكثر فظاعةً من الطائرات التي تبعتهم إلى المقبرة. ولعلّهم اشتبهوا، دون عناء كبير، بالسيارة المفخّخة كجزء من هذه العواقب- لم يكن رَكْنُها أمام بوابة حديقة الحيوانات من قبيل المصادفة، فمن هذا المكان انطلقت جنازة عصام، وعلى سطحنا بالذات اجتمع الناس به قبل أن يتوجه إلى الغوطة أول البارحة. ثم إن إن أحداً لا يضمن الآن، إذا تفرقوا إلى بيوهم، أن لا يُستفرَدوا بعد ذلك مباشرةً، من قبل الأجهزة المعروفة المختصّة، بتهمة الاشتراك بالجنازة أو الدعوة إليها أو المرور بقربها والسكوت عليها. غير أنّ وجوهَهم المترقّبة وتحفّزَ أجسادهم، وكذلك أنصافَ كلماتهم المهموسة هنا وهناك، لم تكن تُفصح فقط عن خشيتهم من ذيولٍ

جديدةٍ أكيدةٍ لسوء التفاهم الذي وقع فحسب، بل عن شيء آخر كان يدفعهم، بالقوة نفسها، إلى الالتفاف الآن حول الزرافة والاعتصام بها. كانوا كأنما يستمدّون من ضخامتها وغرابة وجودها في الشارع معنى عميقاً لاضطراب أرواحهم في هذه اللحظات. وربما من شدّة رعبهم من العودة إلى بيوقم، أو بسبب لهفتهم الشديدة إلى الأمان بأيّ ثمن، كانوا الآن كأنهم موقنون بأن الزرافة لا يمكن أن تخرج من قلب الحديقة عبثاً، وأنهم معنيّون، لا بدّ، بما قصدتْ إليه من خروجها ووقوفها معهم في الشارع حتى الآن- لعلّها أرادت أن تصحّح سوء الفهم الآخر الذي حصل بينها وبينهم، فالأحداث التي تعشّموا بها بعد عصفور نونا تكشّفت، في نهاية الأمر، عن ذهاب عصام إلى الغوطة ثم عودته جثة هامدة من هناك. أما مقاييسه الجديدة، التي تحلّى بها في أعين الجميع بعد منام نونا، فسرعان ما تضاءلت حتى غدا، في عينيّ مثلاً، مجرد رجل قصير نحيل مقتول. ولولا خيال عبد الجليل حجازي الجامح، الذي أصابنا به، لما كانت جنازة عصام بالنسبة إلى المشيّعين رحلةً، بل مجرّد جنازة مهيبة قدر الإمكان اضطر إلى القيام بها أناسٌ مذعورون. لكنّ سوءَ الفهم هذا قد أصبح وراءنا على أيّ حال، فكّرتُ، فقد دفنّا عصفور نونا وما آلت إليه مواصفات عصام الجديدة في قبره تحت مراوح الطائرات، ولا داعي، ربما، لنبش ما مضى وتصحيحه. ثم من يدري! لعل الوقت كان يدركنا في هذه اللحظات دون أن نعلم، ولا بدّ، ربما، من فكرةٍ جديدةٍ عاجلة نؤمن بها على وجه السرعة، ثم نمضي وراءها قبل أن تستغل عطالتَنا المكشوفة في الشارع قذائفُ الغوطة أو أيّ سيارة مفخّخة أخرى.

- الزرافة خائفة!

قالت نونّا بصوت ضعيف، كأنما لنفسها.

تلفّتُّ من حولي أبحث عن عبد الجليل حجازي.

قيل لي: "ظلّ في المقبرة".

عدت أنظر إلى الزرافة مثل محكوم بها، تماماً كما كان الناس من حولي ينظرون إليها.

عندئذٍ تحرّكت الزرافة من مكانها فجأةً، وجعلــت تتقــدم في الشارع بخطى وئيدةٍ موزونةٍ حازمة، فتبعها الجميع.

II

سادت بين الناس المندفعين وراء الزرافة حماسةٌ تلقائيةٌ مجرّدةٌ كأنما من أيّ غرضٍ أو موضوع، كأن الحركة الجماعية بحدّ ذاتها قد ولّدت لديهم إحساساً مشتركاً دافئاً وآمناً كانوا الآن في أمسّ الحاجة إليه. وبرغم أنني لم أكن بأقل احتياجاً منهم إلى هذا الإحساس، فقد بدا لي أنني لا أمشي وراء الزرافة بإرادتي، إنما هو حبل متين لا أراه، ولكنني أشعر به، كان يربطني إليها، كأنما من سرّتي، ويسحبني وراءها. لم يكن ذلك، في البداية، يقلقني أبداً، بل على العكس- كان يخامرني عندئذٍ شعور لذيذٌ براحةٍ حميمة قديمة لم أذقها منذ زمن طويل، حتى خيّل إلي أنني عدت ولداً صغيراً خارجاً من مدرسة سيف الدولة الريفية أمشي على مهلي سعيداً بانتهاء الدروس، ثم أنعس نعاساً أميناً تحت شمس قويّة أعرفها وأنام في أول ظلٍّ حائطٍ مُتاح في طريقي، وأنا مطمئنّ تماماً إلى أنني سوف أستيقظ على صوت أمي في البيت بعد برهةٍ واحدة لا أكثر. وفي هذه البرهة العتيقة العميقة الآمنة كان يمكنني الآن، وأنا أمشي وراء الزرافة، أن أشبع من النوم هانئاً ببرودة ظلّ الحائط العليل وأسمع من وراء نومي أصوات الباعة وحوافر خيل العربات في بلدة طفولتي البعيدة على شاطئ الفرات. غير أنني انتبهتُ فجأةً إلى أن الزرافة تمضي في طريقها الآن لتخرج بنا من الحي الروسي إلى مفرق جادّةٍ تأخذ إلى أحياء، محرّرة كما يقولون، من الغوطة، ومن هنالك يمكن أن تفضي بنا، كما نعرف جميعاً، إلى أقصر طريق إلى العاصمة القديمة دمشق. خشيت فوراً من حصول سوءِ فهمٍ جديد، بيننا وبين القيّمين على أمنهم في العاصمة، ما كان ينبغي لنا أن نسعى

إليه بأرجلنا، ولا كان يُفترَض ربما بالزرافة أن تهدف إليه بأيّ حال- لم يكن من المستبعد أبداً أن توحي طريقة تدفّقنا وراءها، خاصة لمن ينظر إلينا من طائرة هليكوبتر مثلاً، بأنّ ما نقوم به في واقع الأمر هو لا أكثر ولا أقل من تظاهرة حاشدة متجهة إلى قلب العاصمة. والمعروف أن الحي الروسي لم يُراكِم في حياته أيّ خبرة بالتظاهرات، ولا حاول ولا أراد، يوماً، تجريبها ولا التفكير فيها حتى عندما عمّتْ الكثير من المدن والبلدات في أول الأحداث. لقد أدرك جيداً، منذ نشوئه على أطراف العاصمة القديمة، أن بلادنا، منذ ثورة آذار المجيدة، لم تعد تنظر إلى المتظاهرين إلا باعتبارهم إرهابيين مموَّلين من جهات خارجية بالضرورة مهما بحّوا أصواتهم بمطالب الناس وحقوقهم، وأن التظاهرات لن تُعدّ سلمية في كلّ الأحوال ولو خرج المتظاهرون عراة إلى الشوارع. وكان لا ينقص الحي الروسي، في غبشة هذا الصباح، سوءُ فهمٍ خطير مع طائرات غشيمة وقليلة تمييز يمكن أن تظهر في السماء في أيّ لحظة.

ثم سرعان ما تبيّن لي أن خشيتي الشديدة من أن يُشتَبَه بنا كمتظاهرين وراء الزرافة لم تكن حاضرةً في ذهني فقط، بل في أذهان كثيرين من حولي أيضاً- كانوا، الآن، يبذلون، دون اتفاق معلن، ما أمكنهم من الجهد الواضح الحثيث المتواصل في تنظيف وجوههم وأصواتهم الخفيضة النادرة وحركات أجسادهم والتفاتات رؤوسهم ونظراتهم إلى الأشياء التي يصادفونها، وما يخطر ربما حتى في أعماق نفوسهم، من أيّ تعبيرٍ أو إحساسٍ يمكن أن يوحي بأيّ قدْرٍ من التشنّج أو السخط أو حتى التأفّف الذي يمكن أن يمارسه أحياناً الناس السعداء في أيّ جنة على الأرض. كانوا يتخيّلون، كأنما، عيوناً لا

تُحصى مصوّبة إليهم، تتمعّن بهم وتوثّق حركاتهم وسكناتهم وتُبوّبها، فلا يكفّون طوال الوقت عن الإحساس بها والتصرّف على أساسها. وكانت روح الرحلة، التي بثّها فيهم عبد الجليل حجازي، ما تــزال تسري في عروقهم لحسن الحظ، ما جعلهم يبدون، حتى في العيــون التي تخيّلوها على الأغلب، أقرب ما يكونون إلى مسافرين غريبــي أطوار متدافعين لسببٍ غامضٍ وراء زرافةٍ هائمة علــى وجههــا لا أكثر. وكما لو دون قصد كانوا، في هذه الأثناء، يبالغون باستعراض أطفالهم وحيواناتهم المنزلية النائمين على أكتافهم، وكذلك أقفــاص طيورهم وحقائبهم وأكياسهم وسلالهم، كبراهين لا تُدْحض علــى سفرهم الخالص غير المُغْرِض وعلى خلوّهم التام من أيّ فكرةٍ معاديةٍ لأيّ كائنٍ أو حجرٍ أو نبات. أما أنا فقــد وجــدتُني أعــرج دون مقدمات على رجْلي اليسرى، كأنما من باب التحوّط أو تبرئة الذمّة من أيّ شبهة محتملة، مع أنني لا أذكر أنها أُصيبت بأيّ مكروه منــذ خرجتُ من حديقة الحيوانات في ليلة أمس. ولعلّي، في الحقيقــة، لم أكن أملك خياراً آخر، فنونّا كانت مشغولةً عني الآن، ولم يكن لديّ ما يُمَكّنني من رؤية وجهي، كمرآة صغيرة مثلاً، لأتأكّد من ســلامة ملامحي من حدّة ملامــح المتظــاهرين الــذين رأينــاهم مــراراً في التلفزيونات- كان من المحتمل جداً طبعاً أن أكون في هذه اللحظات متجهّماً على أقل تقدير. لكنّ تجهّمي، الذي لا أقصده بطبيعة الحال ولا أشعر به، سوف يُحمل حتماً على المحمــل الحســن، فكــرتُ، وسوف يُمكن ربطُهُ، بسهولة، بالألم المفترض، الذي بدأت أشعر به بالفعل، بسبب رجلي اليسرى السليمة التي كنت أعرج عليها بنزاهةٍ واندفاعٍ وجُبنٍ لا غبار عليه.

غير أن أفراداً متفرّقين هنا وهناك، ممن كان بوسعي أن أراهم على الأقل، كانوا يشذّون، بشكلٍ ملحوظٍ تقريباً، عن الانطباع العام الذي تجهد في تشكيلِهِ غالبيةُ الناسِ الساعين وراء الزرافة. صحيح أنهم كانوا صامتين، لكنّ وجوههم وأجسادهم كانت تفصح كأنما عن اعتدادٍ كبير بالنفس واستعدادٍ سافرٍ للتحدّي وربما للتضحية أيضاً، كما لو كانوا أصحاب حقّ مسلوب لن يتنازلوا عنه في كل الأحوال. ولو كانوا رفعوا الأعلام والهتافات واللافتات والقبضات المُتوعّدة في الهواء لكان صعباً جداً، ربما، تمييزُهم عن المتظاهرين الحقيقيين بأيّ شيء.

لقد كان موستاش واحداً من هؤلاء القلّة. غير أنه كان أكثر شجاعةً منهم جميعاً، فلم يكن يتظاهر بأعضاء جسمه وملامح وجهه فقط، بل بصوته أيضاً- كان ينبح بكلّ جوارحه من وقت إلى آخر، كما لو كان يهتف، عنهم جميعاً، بالمطالب الناريّة العادلة التي يفكرون فيها. ولسببٍ ما كان يؤيّد هتافَه، في كل مرة، سعالُ ديكٍ روميّ يمدّ عنقه الحمراءَ المجعّدة من قفة رجل من الغالبية المُتَمَلّصة من شبهة التظاهر. وكانت رئيسة بتروفنا تلتزم، قدر الإمكان، بالتحفّظ الذي تُبديه ملامح فيكتور إيفانيتش الممسوحة، لكنها كانت تنظر، في الوقت نفسه، بإعجاب ومحبّة ملموسين إلى تظاهر موستاش وهتافاته المبدئية إلى جانبها، كما لو كان يمارس شقاوةً لذيذة لا أكثر. وقد لاحظتُ أن أبو علي سليمان نفسه كان ينساق أحياناً وراء الشعارات الجذّابة الحامية التي ينبحها كلبه، فيبدو واحداً من المتظاهرين الصامتين للحظات، ثم لا يلبث أن يستقلّ عنهم بحزم، فتتشذّب حركات أطرافه وتنمحي ملامح وجهه في الحال. ومن بين

المتظاهرين، الذين أعرفهم أيضاً، كان رضا القصّاب والطبّال عز الدين، والحاجّة سعاد التي عشّش كثير من غبار المقبرة في مكياجها السميك، فتحوّل وجهها الآن إلى قناعٍ غاضبٍ مشوّه.

لكنّ أكثر ما أقلقني أن نونا كانت تتظاهر معهم. قدّرتُ أنها كانت تكفّر، بهذه الطريقة، عمّا حدث في الحي الروسي بعد اكتشافنا عصفورها الذي حاكته ذات يوم دون أن تدري- ذلك الذي أصبح في عداد الموتى بالنسبة إلى الجميع، لكنه في الغالب ما يزال حياً في نفسها حتى الآن- لا يمكن أن يموت بالنسبة إليها بسهولةِ موتِهِ لدى الآخرين، فكّرتُ، فقد ظلّتْ تحوك فترة طويلة من الزمن سماءه الزرقاء وغيومه الخضراء ونجومه الذهبية قبل أن يكتشفه أبو علي سليمان بين الصوف المشغول المكوّم في حضنها قبل ثلاثة أيام فقط. وقد كان ثقيلاً جداً عليها أن تعتبره، بعد ذهاب عصام إلى الغوطة مباشرةً، ترجمةً غير أمينة لما هدفت إليه الزرافة، فبدت فجأةً، أمام نفسها على الأقل، كما لو أنها ارتكبت، دون أن تقصد طبعاً، خطأً لا يُغتفر بحقّ الزرافة وبحقّ الحي الروسي كلّه. وكان من غير الممكن، كما بدا لي الآن على أقل تقدير، إقناعها بغير ذلك. كانت تمشي إلى جانبي، كما لو أنها توشك على القيام بتضحيةٍ كبيرةٍ لا يُقدم عليها سوى اليائسين الكاملين والقدّيسين المُحمّلين بالذنوب الثقيلة التي يتصوّرونها ببراعةٍ وإخلاص. وقد لاحظتُ، مستغرباً في البداية، أنها، منذ بدأتُ أعرج على رجلي اليسرى، لم تعد تعيرني أيّ انتباه. كانت لا تريد أن تراني جباناً على الأغلب. وكنت، حقيقةً، لا أريد أن أكون شجاعاً مثلها، على أن لا يؤثر جبني الصريح، ولا شجاعتُها الصريحة، في مشاعرنا الحميمة الخاصة الواحد تجاه الآخر.

كانت تستطيع، ما شاءت، أن تتشبّه بالشهداء في لحظات حيـــواتهم الأخيرة، وكنت أستطيع، ما شئتُ، أن أعرج على رجلي اليســـرى، المهمّ أن نبقى معاً الواحد إلى جانب الآخر، فكّرتُ. غير أنني سرعان ما خشيت من أنها لن تكون قادرة على البقاء معي أكثر من ذلـــك، فقد بدأتْ تفتح خطواتها إلى جانبـــي دون أن تعبأ بأنني، مع وضعي الجديد، قد لا أتمكّن من مجاراتها بالسرعة. ثم لم أعرف كيف أجعلها تخفف من اندفاعها إلى الأمام، فقد أصبحتُ متأكّداً تقريباً من أنهـــا تتعمّد ذلك وأنني، ربما بعد دقائق قليلة، سوف أجد نفسي وحيـــداً تماماً بين مئات، وربما آلاف، الناس المتدفّقين وراء الزرافة. وإذ كنت عندئذٍ على يقين من أنني، برغم كل شيء، لم أكـــن قـــابلاً أبـــداً لمشاركتها الغايةَ النبيلة التي تهدف إليها، رأيتُ أن أجهّز نفسي لغيابها على وجه السرعة قبل أن يحدث بالفعل. كنت حتى تلك اللحظة ما أزال أراها، وأحياناً كنت أستطيع أن ألمس شعرها العزيـــز المبتعـــد برؤوس أصابع يدي إذا مددتُها إلى الآخر. كان ما يزال يفصلني عنها خطوة طويلة جداً فقط، وأحياناً خطوتان، وفي بعض الأحيان ثلاث خطوات كاملات. كنت أعرف أنني، من دونها، سوف أفقد حتمـــاً كثيرًا من قدرتي على الخيال. وقد لا أتمكّن وحـــدي مـــن إنشـــاء وتصديق علاقات غير مطروقة شديدة المرونة والضرورة والجمال بين الناس والحيوانات والأشياء والأفكار والأصوات والإشارات والصور. وسوف أُضطر، ربما، إلى مراعاة الفروق الفظّة، التي ما راعيناها قط، بين الأشياء التي أراها بعينيّ وتلك الـــتي أراهـــا بقلبـــــي. ولعلّـــي سأتحوّل، في نهاية المطاف، رجلاً واقعياً مؤسفاً لا أكثـــر، فأتّصـــف أخيراً بالحصافة المتداولة المُجرّبة التي طالما تنصّلنا معاً مـــن قيودهـــا

المنطقية المُحكمة، والتي لا أعرف الآن حقاً كيف سأتعايش معها بسلام. ثم شعرتُ، وأنا أفقد آخر أثرٍ لنونا بين جموع الناس، بأنني سأكون، من الآن فصاعداً، إنساناً آخر على الأغلب، فحزّ ذلك في نفسي كثيراً وأحسستُ برغبة جارفة بالبكاء عليّ وعلى نونا. غير أن رائحة لحوم متفسّخة خانقة زكمت أنفي فجأةً، وانتبهتُ إلى ما كان يتعاقب من حولنا وتحت أقدامنا في "شارعٍ" كنا نمضي فيه، فوجدتني أزيد من عرجي على رجلي اليسرى تلقائياً، و لم أجرؤ على البكاء. كان يمكن أن يُفهم بكائي من بعيد كما لو كان بسبب شعوري بالهول إزاء ما أصبحت أراه في تلك اللحظات. كانت الزرافة قد خرجت بنا من الحي الروسي، وتقودنا الآن، بصعوبة واضحة، في "حيّ" محرّر من الغوطة كان من المفروض أن أعرفه من الوهلة الأولى، لكنّ حجم الدمار الذي لحق به قد غيّره تماماً في عينيّ. كان الآن أشبه ما يكون بـ "أحياء" تلك المدن والبلدات البعيدة التي طالما رأيناها في السنوات الأخيرة في بيوتنا عبر شاشات التلفزيون فقط- أبنية متداعية على الجانبين، سقوف متراكمة بعضها فوق بعض، أدراج وعضادات تتدلى في الهواء، أسياخ حديد مشعّثة، أعمدة كهرباء مائلة أو محطمة، خزانات ماء مفعّسة، براميل مقلوبة، سيارات محترقة، أكوام بلوك مكسّر في كل مكان، ألبسة بالية معفّرة بالتراب، دمى أطفال بتراء شعثاء وأحياناً عارية، فردات مستعملة مختلفة من أحذية وشحّاطات، طسوت بلاستيكية مزوية أكلت أطرافها نيران قديمة، أوصال خراطيم مياه، زمبركات أسرّة، بواري ماء، أجزاء من مدافئ مازوت وبوتوغازات، قطع خشبية شبه محترقة من بقايا ديوانات وخزائن وسكرتونات ومقاعد وطاولات، صور

فوتوغرافية مجعلكة، عربات أطفال مُخلّعة، كتب ودفاتر مدرسية عالقة أو مبعثرة بين الأنقاض، بقايا أبواب ونوافذ، قطع درّاجات هوائية، كابلات كهرباء متفحّمة، شظايا قناني وصحون وأكواب، وصلات من أسيجة حديدية، سطول توتياء، لقّاطات غسيل، صناديق كرتون فارغة، أكياس نايلون، أغصان أشجار يابسة، وقطط، كلاب شاردة سمينة، جرذان ضخمة، ذباب أخضر، وأحياناً بشر نادرون متناثرون هنا وهناك بين الركام. رجل عجوز يجلس وحده بين أحجار متداعية على كرسي بلاستيك أمام ما يوحي بمدخلٍ سابقٍ لمبنى، وآخر يجرّ بصعوبة كبيرة دراجة هوائية محمّلة بخزان ماء صغير شبه سليم. امرأة تسحب طفلاً صغيراً بيد، وباليد الأخرى تستطلع أشياء تالفة تقلّبها من وقت إلى آخر بين الأنقاض، صبيّ يلمّ قطعاً خشبيّة في كيس، وآخر يجمع أوصالاً من أشرطة كهربائية وما يشبه مواعين مشوّهة من نحاس ربما أو ألمنيوم..

وكان معظم الناس الساعين من حولي خلف الزرافة قد أصبحوا، تحت وطأة الدمار الشامل الذي يشاهدونه بأمّ أعينهم، أشدّ حرصاً على نظافة وجوههم من الملامح والمشاعر، وأكثر حزماً في تنقية أيديهم وأرجلهم ورؤوسهم من أيّ إشارةٍ عفوية ذات دلالة يمكن أن تلتقطها العيون التي تخيلوها فتؤاخذهم عليها ذات يوم. أما المتظاهرون القليلون من بينهم فقد أصبحت وجوههم وحركات أطرافهم أشدّ تعبيراً عن الرفض والتحدي والألم والاستعداد للتضحية، حتى إن موستاش أصبح ينبح دون انقطاع.

ثم شيئاً فشيئاً أصبحت الخرائب أقلّ فأقلّ مع اقتراب الزرافة من شوارع العاصمة حتى عدمناها تماماً، فلم يعد ثمة أثرٌ واضح للحرب.

حتى الحواجز، التي قطّعت قلب المدينة عدّة سنوات، لم يعد لهـا الآن وجود ملحوظ في طريقنا. عادت الشوارع أمام أعيننا شوارع حقيقية من تلك الشوارع التي طالما عرفناها في الماضي في مثل هذا الوقت الباكر شبه المعتم من الصباح- سماء شاحبة واسعة مشرّبة بأثر لـون برتقاليّ يتمدّد ببطء شديد من وراء العمارات. غيوم رمادية مظلمة قليلة عالية متوهّجة الحواف بالحمرة القانية. شمس تشرق على هينتها خلف أفقٍ بعيد لا نراه. سنونوات تحلّق ثم تحطّ على أسلاك الكهرباء. عصافير تبحث عن خبز مُفتّت محتمل على حروف الشبابيك. شبابيك مفتوحة وأخرى مواربة للنسيم المنعش. شرفات خالية إلا من بعض أشباح عجائز في ثيابهم المنزلية يصفنون، آمنين كأنما، بالفراغ، أو يشربون فناجين قهوتهم الأولى، وأحياناً يتفقّدون، على مهلهم، أصص زرع معلّقة على حروف دربزيناتهم. محالّ، على الجانبين، ما تزال مغلقة. أشجار قديمة تقف على الأرصفة خضراء كالعادة في حفرها الصغيرة المسيّجة المعهودة. إعلانات كبيرة مضاءة تتعاقب عن أحذية ومراوح كهربائية وسوتيانات وكيلوتات وحفّوضات نسائية ومرشحين لمجلس الشعب. ومن وقت طويل جداً إلى وقت طويل جداً تمرّ سيارة أجرة أو سرفيس أو شاحنة صغيرة محمّلة بالخضار والفواكه. عربات فول نابت برائحة الكمون والليمون وأخرى للسحلب برائحة القرفة تتخذ مواقعها، دون استعجال، على مفارق الشوارع الجانبية الخالية من الناس. وعلى الأرصفة بائعات ربطات خبز متفرّقات، وأخريات ريفيات يفرشن، بصبر وهدوء ظاهرين، بضاعتهن من اللبنة والجبنة وربّ البندورة والشنكليش. وفي أحيان نادرة أخرى لا يخلو المشهد من مخمور وحيد يترنّح عائداً من سهرة

طويلة، أو بائعٍ كتب مستعملة يفتح كراتين كتبه ويرتّبها على حافة سياج عمارة طويل.

لكنّ أحداً، من هؤلاء، لم يعرنا ما يستحقّه من الدهشة والفضول كائنٌ هائلٌ بحجم زرافة تخترق الشوارع، وخلق مبلوسون مغبرّون كثيرون يمشون خلفها بأطفالهم وحيواناتهم وأمتعتهم في ذلك الوقت المبكر جداً من الصباح. كانوا، أحياناً، يلقون علينا نظرات مبتورة باردة متوجّسة كما ينظرون إلى أشياء غير مستحبّة ولا مفهومة ظهرت، كأنما، في الوقت والمكان غير المناسبين. كأننا كنّا، بظهورنا المتواصل الطويل، نبدو في سحناتهم المتطيّرة مثل نذير شؤمٍ لم يحسبوا حسابه قط، كما لو أننا سوف نُخِلّ الآن حتماً بتوازن عالمهم الهش المتماسك بصعوبة شديدة، وسوف نجلب إليهم، ربما، مصائب كانوا دائماً في غنى عنها، وليس من مصلحتهم الآن أن يفهموا أو يتفهّموا أو حتى يتساءلوا في أنفسهم لماذا جئنا وإلى أين نمضي وماذا نريد. وكان واضحاً أنهم ليسوا مستعدين لأن يبذلوا أدنى اهتمام ليميّزوا، مثلاً، المتظاهرين من غير المتظاهرين من بيننا. حتى موستاش الذي لم يتوقف عن الهتاف لم يكترثوا باحتجاجه الحارّ ولا سمعوه ربما. وكما لو أننا لا نمرّ أبداً في شوارعهم استمرت السماء طوال الوقت فوقنا كما لو كانت سماء شاحبة مشرّبة بالبرتقال فعلاً وواسعة حقاً، وكذلك الغيوم ظلّت غيوماً داكنة عالية متوهّجة الحواف بالحمرة القانية لا أكثر. الشمس أيضاً لم تُغيّر أبداً من وتيرة شروقها البطيء فلم تظهر حتى الآن على أفقٍ بعيد لا نراه. الأشجار هي الأخرى بدت كما لو أن شيئاً لافتاً لم يحدث من حولها على الإطلاق، فبقيت على حالها خضراء. العصافير لم تتوقف عن البحث

عن فتات الخبز على حروف الشبابيك. أشباح العجائز على الشرفات لم ينصرفوا لحظة واحدة إلى أيّ شيءٍ آخر سوى شرب القهوة وتفقّد الفراغ وأصص الزرع. سائقو وركّاب سيارات الأجرة النادرة جداً والسرافيس الأشدّ ندرةً وشاحنات الخضار الصغيرة واصلوا، هم أيضاً، طريقهم كأن شيئاً لا يعنيهم ولا ينبغي لهم أصلاً أن يكونوا معنيين بما لا يعنيهم. بائعات ربطات الخبز واللبنة والشنكليش ظَلَلْنَ متباعدات في أماكنهنّ على الأرصفة، يتابعن فرش بضاعتهنّ أو يجلسن جامدات وحيدات شبه غافيات ينتظرن أوائل زبائنهن النائمين في أسرّهم حتى الآن. استمروا جميعاً بانشغالاتهم المبكّرة المبدوءة قبل ظهورنا، كما لو أنهم كانوا يستفتحون يومهم فعلاً من دوننا، فيما ظلت الزرافة تمضي بنا على إسفلت شوارعهم الخالية من المارّة حتى بلغتْ مديرية الجمارك العامة، وانعطفت إلى اليمين باتجاه ساحة الأمويين.

وهنا شعرتُ فجأةً بأصابع كفّ تمسك بذراعي برفق، فالتفتّ.

كان رجل طويل، يرتدي بنطلوناً وقميصاً كالحين مدعوكين ويحيط رأسه بكوفية عتيقة، يمشي إلى جانبي. لم أعرفه في البداية، لكن طريقة تحديقه بي وابتسامته المألوفة التي شقّها بحذرٍ وبطء جعلتاني أعتقد أنه صالح. صالح الذي لم أره في الحي الروسي منذ سنوات، ذلك الذي شغلتُ، ونونا، غرفتَه على سطح حديقة الحيوانات بعد مغادرته الحيّ قبل بدء الحرب بعدّة شهور. صالح صديقي القديم على مقاعد دراسة الأدب الروسي، وزميلي، لسنتين، على المكتب المجاور في غرفة مترجمي صحيفة **أنباء موسكو**. ذلك الرجل الخجول الطيب الأنيس الذي احتاج إلى سنة كاملة لكي

يفاتح بحبّه فتاة روسية كانت تبيع الفطائر الساخنة على عربة في حديقة ألكسندر. صالح الذي أحسن الظنّ بي دائماً، حتى عندما كنت أرتكب الأخطاء والخطيئات عن سابق عمدٍ وتخطيطٍ وإصرار. في موسكو كان بابه مفتوحاً لي في أيّ وقت من الليل أو النهار. وقد كنت في تلك الأيام أحتاج إلى زيارته من وقت إلى آخر، لا لشيء إلاّ لكي أستمدّ من تفهّمه المُتاح دائماً قدرةً جديدة على الخوض في ما كان يضطرم في حياتي وروحي من التناقضات والانفعالات المؤلمة المتلاطمة والعبث الغاوي بالقواعد والأعراف. دائماً كان صالح شفيعي أمام نفسي على الأقل، وكنت كلّما خرجتُ من بيته شعرتُ بأنني لست شخصاً سيئاً جداً كما كان يخيّل إليّ أحياناً، بل مقبولاً برغم كلّ شيء.

وإذ كنت الآن متأكّداً من أنه صالح حقاً كدتُ أندفع إليه وأغمره بذراعيّ، كما يمكن أن يفعل صديقٌ يُفاجَأ بصديقٍ عزيزٍ لم يره منذ سنوات. لقد كنت مشتاقاً إليه بالفعل، ولعلّي ظننت لبرهةٍ خاطفة أنه قد ظهر في وقتٍ كنت في أشدّ الحاجة إليه. غير أنني انتبهت في تلك اللحظة إلى أنني ما زلت أعرج على قدمي اليسرى إلى جانبه، فخجلتُ تلقائياً من نفسي. شعرتُ بأنه يقبض عليّ الآن متلبّساً بنفسٍ أخرى لا تليق بي، وقد بدا الأمر، لِلَحظات، كما لو أنني أصبحتُ فجأةً حريصاً على صورتي في عينيه. إلاّ أنني، في الحقيقة، لم أكن عندئذٍ مستعداً، برغم كلّ شيء، لأن أتنازل عن عرجي على قدمي اليسرى. ثم إن الزرافة كانت تقترب من ساحة الأمويين، فلم يكن مواتياً لي سوى أن أتظاهر بأنني ما عرفت صالح قط. تابعت طريقي إلى جانبه مثل رجل غريب، ثم نظرتُ إلى وجهه

مباشرةً لأتأكّد، كأنما، من حجم العار الذي كان، لا بدّ، يسربلني في عينيه- وجدتُه ما يزال يبتسم لي ابتسامته الساحرة الخجولة وينظر إلي بوداعةٍ موجِعة جداً كأنني لم أكن أنكره أبداً، أو أنه قد وجد في الحال ما يسوّغ له نفسي المخزية التي كنت أظهر بها أمامه في تلك اللحظات. حاولتُ الابتعاد عنه قدر الإمكان، لكنني لاحظتُ أنه ظلّ يحرص على أن يكون بجواري، ففهمت أن في فمه كلاماً يريد نقله إليّ. ثم ما لبث أن مال برأسه نحو رأسي وجعل يحدثني عن عصام. حاولتُ أن لا أفهم شيئاً مما كان يقوله لي، و لم أستطع، فتظاهرت بأنني لا أسمعه، وأنا أنظر أمامي إلى ذيل الزرافة العالي. وقد عرفتُ من مجمل كلامه أن عصام قد قُبض عليه حال وصوله إلى الغوطة، وأن المحكمة الشرعية هناك قد أعدمته، في الساعة نفسها، بتهمتين اثنتين: حماية الفحشاء والمنكر والبغي في كباريهات الحي الروسي، والزنا بامرأة مغربية مسلمة والعيش معها منذ سنوات تحت سقف واحد دون عقد نكاح شرعيّ. كما فهمتُ أنه لم يعد الآن قادراً على العودة إلى الغوطة بعد أن نما إلى المحكمة الشرعية أنه قد أرسل جثة عصام إلى الحيّ الروسي. "ولكنْ ما الذي أخذه إلى الغوطة؟!" وددت كثيراً أن أسأل صالح هذا السؤال. بيد أن عصام كان قد أصبح الآن، بالنسبة إليّ، شخصاً من ماضٍ بعيدٍ ما أردت، وما استطعت ربما، أن أعود إليه بأيّ حال. تابعت طريقي، وأنا أعرج وأنكر صالح بكلّ قواي حتى توقفتْ بنا الزرافة فجأةً في ساحة الأمويين، فتوقف الجميع وراءها على الفور على بعد أمتار قليلة.

كان كلّ شيءٍ في الساحة ما يزال على ما كان عليه منذ سنين طويلة: المكتبة الوطنية، مبنى الإذاعة والتلفزيون، دار الأوبرا، سيف

دمشق الإسمنتي العملاق، ورئاسة أركان الجيش. وقد كان، كأنما، لخلوّ الساحة الكبيرة والشوارع العريضة التي تفضي إليها من حركة الناس والحافلات، مهابةٌ خاصّة في نفوسنا جعلتنا نشعر فوراً بعبء توقّفنا المفاجئ فيها إلى درجة أن موستاش قد كفّ عن النباح. ثم سرعان ما تحرّرنا من هذا العبء إذ وجدنا أنفسنا نصغي بإخلاص إلى تشغيل محرك آلية ضخمة تناهى إلينا من جهة رئاسة أركان الجيش. ثم لم تمض دقيقتان، وربما ثلاث، حتى ظهرتْ دبّابة من طراز تي 90 من مفرق شارع المهدي بن بركة. اتجهتْ إليها أنظارنا في الحال، وجعلْنا نراقبها في نزولها باتجاه الساحة حتى توقّفت عند مشارفها.

لم يُغيّر مدفع الدبابة الكبير اتجاهه. ظلّ يشير من بعيد إلى دار الأوبرا، بينما تململ مدفعها الرشاش في مكانه لِلَحظات، ثم رشّ رشّةً قصيرةً واحدةً فقط. عادت الدبابة، بعد ذلك مباشرةً، إلى المكان القريب الذي انطلقت منه في شارع المهدي بن بركة، ثم ظهرت، من مفرق الشارع نفسه، رافعة ضخمة وانحدرت، هي الأخرى، في اتجاه الساحة.

كانت الزرافة، في هذه الأثناء، قد تقدّمت بضع خطوات إلى الأمام، ثم تكوّمت فجأةً على الأرض، وقد التوى عنقها الطويل برأسها المدمّى فوق إسفلت الساحة.

وكما لو أن كلّ شيء كان مُعدّاً مسبقاً لهذه اللحظات، انشقّت عندئذٍ البوابة الرئيسية الحديدية السوداء لمبنى الإذاعة والتلفزيون، وخرجت منها سيارة جيب توقفت قرب الزرافة المتكوّمة على الإسفلت. ترجّل من السيارة مجموعة رجال أقوياء في بذلات داكنة يحملون حبالاً ثخينة وجنازير. وكانت الرافعة قد توقفت، هي

الأخرى، في الساحة فيما تدلّت من ذراعها الهائلة كلاّباتُها القويّة فوق كومة الزرافة النازفة. وكما لو أنهم أمضوا سنين طويلة في حزم وتعليق الزرافات المقتولة بكلاّبات الرافعات بأسرع وقت ممكن، تمكّن رجال الإذاعة والتلفزيون من تطبيق مهاراتهم المكتسبة على زرافة الحي الروسي، فارتفعت وحيدةً في الهواء العالي في غضون دقائق قليلة جداً. عادت الرافعة أدراجها بعدئذٍ، بحمولتها الضخمة الحارّة المعلّقة، في اتجاه شارع المهدي بن بركة وانعطفت فيه. وكان رجال الإذاعة والتلفزيون الأشدّاء قد أنزلوا، في هذه الأثناء، من مؤخرة سيارة الجيب بيدونَيْ ماء كبيرين ومكانس خشنة ومواد تنظيف في كراتين صغيرة ومجموعة بطانيات عسكرية. أزالوا بسرعة فائقة، وحرفية ظاهرة، بقعة الدم الكبيرة التي نزفتها الزرافة من رأسها فوق الإسفلت. ثم ركبوا، بخفّة وهدوء ورصانة، في سيارتهم الجيب مع المكانس الخشنة والبيدونين الفارغين وكراتين مواد التنظيف والبطانيات الملوثة بالدم. عادت بهم السيارة إلى مكانها في قلب الإذاعة والتلفزيون، ثم أُغلقت بوابة المبنى الحديدية السوداء.

- أستطيع أن أشرح لك الآن ماذا فعل تورغينيف بالأدب الروسي.

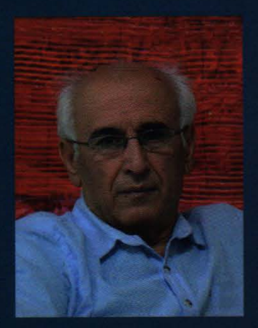
سمعتُني بصعوبة أقول ذلك لصالح، وقد وجدتني الآن بين ذراعيه لسبب لم أفهمه. كان يهزّني بقوة، كما لو كان يوقظني من نوم مخيف، وكنت أحاول عبثاً الوقوف على قدميّ.

ثم لم أعد أرى شيئاً من حولي.

غير أني، في اللحظة الأخيرة قبل أن أهوي في صمت مطبق عميق، سمعت موستاش يهتف من جديد، وأنا أبتعد عنه بسرعة كبيرة.

الحي الروسي

لقد ساهمت، في حقيقة الأمر، كلّ تلفزيونات الحي الروسي بِنفض الغبار، الذي كان قد راكمه الزمن، عن مشاعر الناس القديمة تجاه عصامٍ منذ بداية الأحداث عندما عمّت المظاهرات عدداً من مدن وبلدات البلاد. غير أن الفظائع، المتواصلة في الليل والنهار على شاشات التلفزيونات، منذ تساقط القتلى بين المتظاهرين، وما تلا ذلك من تشكيل الألوية والكتائب والفيالق المجاهدة في سبيل الله، واستمرارِ وصول الجنود القتلى من أولاد الحي الروسي، وبدءِ تدفّق قذائف الهاون القادمة من الغوطة فوق رؤوسهم، وتزايدِ أعداد الموتى من المعتقلين الذين أصبح يُعثر عليهم عراةً مشوّهين مُكبّلين في البساتين وفوق تلال القمامة، ثم إمعانِ الطائرات بقصف المدن وإزالة بعض الأحياء والبلدات الصغيرة من الوجود، ما لبث كلّ ذلك أن جعل حضور عصام في أذهان الناس، في اليقظة وفي الأحلام، حضوراً كثيفاً ساطعاً وغير مسبوق. لكنّ أحداً في الحي الروسي ما كان ليتوقّع، عندما وصلت الأمور إلى هذا الحدّ من الفظاعة، أن يكون لتلفزيوننا على سطح حديقة الحيوانات دورٌ مميز في تأجيج الحاجة إلى عصام في حكاية جديدة عاجلة، برغم حجمه الصغير بالمقارنة مع تلفزيونات الحيّ الأخرى ذات الشاشات الضخمة والمواصفات الحديثة في الكثير من المطاعم والمقاهي والبارات والبيوت.



خليل الـــرز

روائي ومترجم سوري. صدر له رواية «سولاويسي» 1994 عن دار الحوار. رواية «يوم آخر» 1995 عن دار الحوار. رواية «وسواس الهواء» عن وزارة الثقافة 1997. رواية «غيمة بيضاء في شباك الجدة» عن وزارة الثقافة 1998. رواية «سلمون إرلندي» عن دار الينابيع 2004. رواية «أين تقع صفد يا يوسف» عن وزارة الثقافة 2008. رواية «بالتساوي» عن دار الآداب 2014. رواية «البدل» عن مركز المحروسة 2016. مسرحية «إثنان» عن وزارة الثقافة 1996. وفي الترجمة عن اللغة الروسية صدر له «حكايات الزمن الضائع» ليفغيني شفارتس عن وزارة الثقافة 2004. مختارات من القصة الروسية عن وزارة الثقافة 2005. ومختارات من قصص أنطون تشيخوف في مجلدين عن وزارة الثقافة 2007.



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com



ISBN: 978-614-02-1724-9